

عمّار
أوزيغان

الجهاد الأفضل

دراسات جزائرية


دار الطليعة . بيروت

الجهاد الأفضل

AMAR OUZEGANE

LE MEILLEUR COMBAT

(René Julliard - Paris, 1962)

(الطبعة الأولى ، كانون الأول ١٩٦٢)

عمار أوزيغان

الجهاد الأفضل

منشورات : دار الطليعة - بيروت

افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر

حديث شريف

تمهيد

– لنظهر ، يا أبي ، في مظهر الشرفاء !

– من السهل ، يا بنيّ ، أن نقرّر نبالة أصلنا بتمويه شجرة العائلة . لكن يجب ان ننتظر حتى يموت الاشخاص الذين يعرفوننا .

خطر لي ، بصورة طبيعيّة ، هذا المثل القديم في الحكمة المغربيّة بعد ان قرأت مقاطع من المقالة المنشورة بتوقيع السكرتير الاول للحزب الشيوعي الجزائري ، في مجلة « الكومونيست » الصادرة في موسكو ، في عدد تشرين الثاني ١٩٦٠ .

لقد أصبنا بخيبة . وكانت خيبة عميقة .

الكثيرون ، بين مجاهدي جبهة التحرير الوطنية ، يعرفون القيمة الصحيحة لموهبة المحرر في المجلة الشيوعية . فحينما كانت تأتينا مقالاته في شكل كرّاسات للدعاية المنشورة في براغ او برلين ، لم تكن تثير فينا أي نوع من أنواع الفضول .

لكن هذا الادب يكتسب شهرة برّاقة ومصطنعة بفضل الضوء الوهاج الذي تسلطه عليه « الكومونيست » المجلة النظرية الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفياتي .

أكيد أنه ليس في مجلة الحزب الرسمية مجال « لمنبر حر » يسمح لرئيس تحريرها ان يُحسن التخلص عند اللزوم . فهذه مجلة سياسية وإيديولوجية لا

يُسمح ، مبدئياً ، ان يظهر فيها ، على سبيل الصدفة ، أيّ كلام حاسم . فما تضمنته هذه المقالة عن الثورة الجزائرية من نقد لجبهة التحرير الوطني والحكومة الجزائرية الموقتة وجيش التحرير الوطني ، قيل على مسؤولية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي .

يشرّفنا ، قبل كل شيء ، ان نرى الجزائر تأخذ مكانها كأمة عظيمة في الجبهات كلها ، وفي التخطيطات كلها ، وعلى الأخص ، التخطيط الإيديولوجي الماركسي اللينيني ، حتى لو كان نصيبنا من ذلك ، النقد المتحامل .

وما دام في هذا دعوة لنا ، بشكل غير مباشر ، فان جبهة التحرير الوطني تقبل الدخول في نقاش ودّي مع اللجنة المركزية للاتحاد السوفياتي .

إن جزائريي جبهة التحرير الوطني الذين أظهروا في كفاحهم المسلّح طاقة ترتفع ، مع مراعاة الفروق كلها ، الى مستوى أنبل انواع النضال في سبيل الاستقلال القومي للشعوب ، يمكنهم ايضاً ان يدللوا على طاقتهم في بعد نظرهم السياسي .

وهكذا فإن غرضنا لن ينحصر في دحض مقالة نشرت بالروسية في موسكو . إننا نريد ان نرشد الى اكتشاف الثورة الجزائرية ، وتطوّرها ، وصعوباتها ، وارتجالاتها ، ونجاحاتها ، ووجهات نظرها ...

نريد ان نوضح كيف ان جبهة التحرير الوطني كانت قادرة ان تؤدّي بشرف رسالتها التاريخية كقوة محركة لحرب التحرير الوطني .

إننا نحاول ان نقوم بعمل مفيد يبقى . ونريد ، عبر هذا النقاش ، ان يُفيد شبان الجزائر وأفريقيا وآسيا والعالم كله من هذا الخلاف الفكري لكي يحسنوا خدمة قضية الشعب ، ويحسنوا الكفاح من أجل مثلهم العليا في الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية .

كيف سيكون منهجنا ؟

سيكون ، قبل كل شيء ، نقيض المنهج الذي اعتمد في المقالة المنشورة في

المجلة النظرية الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي . يعني أننا لن ندبّج إطلاقاً ، قائمة بأصول الحرب الثورية ، واستراتيجيتها وتكتيكها في الثورة البورجوازية الديموقراطية . فهذه معلومات يمكن الاطلاع عليها في الكتابات المدرسية التي وضعها لينين وستالين ؛ وماو .

ما سنقوله ، لم يُعرف بعد في أي مكان ؛ اننا سنتحدث عما تمّ في الجزائر من خبرة ثورية صارت أداة فعالة حينما تعهدتها أيدٍ ماهرة . يعني اننا سنشرح خبرتنا ، وسنشرح باستمرار ، داعمين كل فكرة بأدلة ملموسة نأخذها من الحياة والعمل والتجربة التاريخية .

لن نرد على تعليلات جازمة بتوكيدات أخرى مماثلة . وعلى العكس ، فإننا إن صادفنا خطأ سنبرزه مشيرين الى الطريق الصالح. وإن رأينا كذباً ، سنبرهن أنه ليس الحق .

وحينما نرى حادثة معزولة عن سياقها ، فسوف نعيدها الى إطارها ، وزمانها ، موضحين قيمتها المتعددة الأثر أو صلتها بحوادث أخرى داخلية أو عالمية .

لن نقبل النقد السلبي ذا الاتجاه الواحد دائماً على أنه كلام مُنزل . كذلك سنحاول ان نفصل ما يختص بالمادية التاريخية ، عن « علم الكلام » – الاصطلاح العربي الذي يدل على التيولوجيا المذهبية .

لهذا سنضع في منخل النقد ، طحين الحزب الشيوعي الجزائري ، المليء بالشوائب ، وسنعنى به العناية الصابرة نفسها التي يبذلها الجزائريون لإبعاد الشوائب ناخلين ، بعناية مماثلة ، الطحين الاسود لمجاهدي ثورة ١٨٧١ أو المغربية البيضاء لجنود جيش التحرير الوطني بين عام ١٩٥٤ – ١٩٦١ .

وحين يحدث غالباً ان نستخدم أسلوباً خيالياً أو لاذعاً ، فان السخرية هنا لن تكون أبداً خبيثة ولا خسيسة ، وإنما ستكون معبرة عن عاطفة حقيقية نريدها ان تنتقل لكي تُقنع .

لكم نفهم الحماسة التي كانت تنعش السيد خروتشوف في مناقشة اللجنة

المركزية حول الزراعة السوفياتية ، حين رفض ان يقبل الأعذار الجوية أو التقنيّة التي يقصد بها تبرير التنبؤات الإحصائية الخاطئة . إنها تذكرنا بالحس السليم الراسخ عند فلاحنا في جبال الجرجورة ، الذي كان يخفّف بالطريقة نفسها نزعة التفاؤل عند جيرانه وهم يعجبون بمحصوله الجيد : « لن أصدق أن هذا قمح حتى يصير خبزاً[١] . »

وحين يتّهم السكرتير السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي « الأجهزة العاجزة ، هؤلاء المفلسين جميعاً ، اللا مسؤولين الذين خدعوا الشعب عن سوء نية أو مباهاة.. البيروقراطيين الذين يغشون ويسلكون عملياً كأعداء الاشتراكية» ، فإن هذه القسوة تعبّرعن الغضب المحق لثوريّ شريف يعي مسؤوليته الكبيرة.

ونحن أيضاً ، حين نصف ، تلميحاً ، السكرتير السياسي للحزب الشيوعي الجزائري بأنه « مُزيّح[٢] » ، يريد ان يمثل دور عزرائيل ، فلا نقصد ان نهين احداً ، بل نقصد ان نشير الى موقف مضحك يقفه محرر ترضى عنه المجلة الرسمية للحزب الشيوعي السوفياتي .

أُخذ على جان جاك روسو ، يوماً ، أنه أصغى بانتباه زائد الى حكاية تافهة رواها احد الذين يعنون بسرد الحكايات . وكان جوابه : « لا تهمني الحكاية ، بل طريقة سردها » .

كذلك نحن . مع الفارق المؤسف بأن « مدّاحنا[٣] » لايسلي جمهور السوق، لكنه يعتلي منبر موسكو ، كرسي أساتذة الماركسية ، بناة الاشتراكية وقاهري الفضاء !

لهؤلاء الذين يشكّون – طوال سبع سنوات – في كفاءة جبهة التحرير

١ــ مثل جزائري قبائلي، لعله يوازي المثل الدارج هنا : « لا تقول فول حتى يصير بالمكيول . »

٢ــ تعني حرفياً في اللغة الدارجة الجزائرية الثوب المخطط. ويوصف بها من يطعن في الناس.

٣ــ مقابل « الحكواتي » عندنا . وهو الذي يجلس في الاسواق أو المقاهي ويروي للناس قصصاً وحكايات خرافية واشعاراً .

الوطني ، نرد التحدي ونرضى بنقل المعركة الى ميدانهم هم.

هذا يقودنا الى نقد القيادة الخرقاء للحزب الشيوعي الجزائري ، بهاجس الفعالية الذي يوجهنا في هجومنا ضد الحكومة الاستعمارية الفرنسية .

يقول ماوتسي تونغ : « إننا إذ ندرس الماركسية ، لا ندرسها لأدبها الجميل ، أو لأنها تمتلك سحراً نستخدمه في طرد الشيطان ، فليست الماركسية سحرية ولا جميلة ، إنها مفيدة ، وحسب . »

لن تكون دراستنا إذن نوعاً من الشرح الموجز للنصوص. لن تكون جافة، لأننا سنقدم وقائع مفيدة ، وحوادث تاريخية .

سنملأ فراغاً « غير مقصود » في المقالة التي نشرتها مجلة « الكومونيست » . فلم يكن جائزاً ان يفوت يقظة الإدارة المسؤولة عن مجلة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، انعدام كل نقد ذاتي عند القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري .

وسننوب عنه في ايضاح أسباب هذه الخطيئة التي لا تغتفر بالنسبة لحزب يسمي نفسه لينينياً : خطيئة الجمود التام .

سنحاول ، من خلال تحليلنا لأمثلة تذاع للمرة الاولى ، ان نكشف عن الاسباب القريبة أو البعيدة لإفلاس الحزب الشيوعي الجزائري . وسنجني في طريقنا ازهاراً غريبة وخيالية من تاريخ الافكار الاجتماعية في الجزائر .

مثلاً ، هذه الزهرة الهجينة ، المتعفنة ، السامة : التحالف غير العادي ، والمتناقض بين قيادة الحزب الشيوعي الجزائري والطابور الخامس ، حيث يمت كلاهما الى « نسب إيديولوجي » واحد ، ويكافحان – كل لنفسه وفي سبيل أهداف متعارضة ، ويزاحمان ، عبثاً ، جبهة التحرير الوطني ، على تزعم الثورة أو السيطرة على اكثرية الشعب الجزائري .

إلا أن هناك ازهاراً بهية من نوع آخر ... مثلاً ، أنتيليجنسيا « الجزائر المجاهدة » ، هذه القوة الجديدة التي نشأت في احضان جبهة التحرير الوطنية ، وتكونت في الجهاد لتحرير الوطن الجزائري .

هذه الأنتليجنسيا الثورية التي تفخر بـأنها دفعت قيـــادة الحزب الشيوعي الجزائري والزعماء العسكريين الى الفشل الـكامل إزاء الجماهير التي لم تعد ملكاً لأحد ؛ وأنها حكمت بالاندحـــار الايديولوجي السياسي على الحزب الشيوعي الجزائري ، الى يسارها ، وعلى الاستعمار الى يمينها – الخصم والعدو اللذين أساءا دراسة فلسفة الثورة الشعبية ، وأساءا فهمها وتطبيقها .

يصبح تدليلنا اكثر سهولة إن استطعنا ان نلقي ضوءاً على الحـــالة قبل ثورة ١٩٥٤ ... فلـكي نفهم كيف استطاع يوسف الذي باعه إخوته ان يصير ملكاً ، علينا ان نعرف كيف تمكن سيدنا يوسف ، وقـد ألقي في الجب ، ان يخرج من القاع ليعود الى سطح الارض .

لهذا سنقسم دراستنا الى قسمين ، مجيبين عما يلي :

١ – هل كان ممكناً ان تنتصر الثورة الجزائرية دون إيديولوجيـــا ثورية قومية ؟

٢ – هل مقالة « الكومونيست » مشاركة في خدمة النصر الحـــاسم للشعب الجزائري ؟ وهل كانت القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري قادرة ان تلعب دوراً فعالاً في ثورة الفلاحين ضد الاستعمار ؟

الخلاصة اننا سنحاول ان نوضح كيف ان القومية الثوريـــة ، بكفاحنـــا المستمر ، تقدر ان تقود الجمهورية الجزائرية الى ان تصبح دولة حديثـة تقوم على ديموقراطية قومية .

القسم الأول

الأيديولوجيا القوميّة الثوريّة

الحركة الإصلاحيّة

لا نقصد أن نعطي امثولةً لمجلة الحزب الشيوعي السوفياتي الرسمية فيما يتعلق بالشروط التي يجب تحقيقها لكي تُقاد إلى النصر حرب تحريرٍ قوميّ في مستعمرة فرنسية تختلف عن الهند الصينية أو غينيا . ولا فيما يتعلق بالشروط الذاتية ...

كان هناك شيء آخر غير حرب الأنصار ... كان ينبغي السير في الكفاح حتى الموت ضد العدوّ المستعمر بمدافعه وأسطوله وطيرانه ، دون ان ننتظر تدخّل مدافع أو أسطول أو طيران قوةٍ مُزاحمةٍ لفرنسا أو عدوةٍ لها ...

كان يجب القتال ضد جهازه السياسي والإداري والاقتصادي ، ضد إيديولوجيته الاستعبادية التي تمثلها البورجوازية الاستعمارية ، وأسياد المزارع ، وملوك المناجم والبنوك والنقل البحري ... الخ ، ضد إيديولوجيا أنصاره غير المباشرين ، الأرستوقراطية العمالية الأوروبية وإقطاعية الأغوات والباشوات من موظفين وأسياد ورجال دين وملّاكين كبار .

لم يكن العدو المستعمر مجرد قوة مادية راسخة ، ظاهرياً ، كجبلٍ يصمد للقنبلة الذرية . كانت تدعم قوته المادية قوته المعنوية وقدرته على الاستهواء التي كان الماريشال ليوتي يعبّر عنها بقانون إيمان المسؤولين عن الشؤون الإسلامية : « إظهار القوة كي لا يُلجأ إلى استعمالها . »

كانت قوة العدو المستعمر ، الحقيقيـــة تكمن واقعياً في عقدة العجز عنـد ضحاياه . وهكذا فإن للأفعى نظرة ساحرة تقدر أن تشلّ من بعيـد العصفور الذي ينسى أن يطير عن غصنه ويستسلم للسقوط ، جامــداً ، تحت الشجرة ، قرب الأفعى . . .

كيف نقنع العصفور بأن فيه قوة تستطيع التغلب على الأفعى ، وبأن هـذا لا يكلفه إلا أن يؤمن بقوتـه الخاصة ، وأن يقهر خوفـــه ، وألا ينسى وجود أجنحته ؟

كيف نقنع الشعب الجزائري بأنه قادر أن يتحرر بنفسه من العبوديـــة الاستعمارية ، شريطة ان يؤمن بقوته الخاصة ويبدأ الكفاح الثوري مستوحيـاً الأمثلة من فييتنام ومصر وماليزيا وأندونيسيا . . .

كان هذا الأمل يبدو ، في كلتا الحالتين ، وهماً لا يتفق مع القوانين المعروفة عن طبيعة الطيور أو الطبيعة الآدمية .

الايمان بالقوة الذاتية ؟

والبدء بالكفاح دون انتظار التدخل الخارجي ، بقدرة خارقة ، السياسي ، أو العسكري ، أو الديبلوماسي ؟

لم يكن هذا ممكناً إلا بمساعدة الشعب الجزائري ، في ضوء خبرته الخاصة ، على ان ينبذ الأحزاب الهرمة أو المنظمات المفلسة .

كانت جبهة التحرير الوطني قادرة ان تجهز على الهزيمة السياسية والإيديولوجية للقوى التي تشل الشعب :

١ – الإيديولوجيا الوطنية – الرجعية، التي يمثلها النساك أو أصحاب الطرق الذين يخدمون الاستعمار المفسد . وعقيدتهم هي :

– على الصعيد الديني، بدعٌ إسلامية يسيطر فيها التعصب ، والجمود المذهبي، والتعبد ، والتأمل ، والقدرية – السلبية ، والخرافة ؛

– وعلى الصعيد السياسي ، الخضوع الكلي للسيطرة الاستعمارية ، لأن هذه هي الإرادة الإلهية .

كانت لهذه الايديولوجيا الرجعية قاعدة اقتصادية هي الملكية العقارية الواسعة التي كانت تستغل المزارعين الذين لا أرض لهم أو الفلاحين المعوزين .

لقد خلق الاستعمار طبقة كبار الملاكين وشجعها ، بواسطة مِنَح يجريها على الموظفين ، إداريين ورجال دين ، أو بواسطة اختلاسات كانت تجري عنوة . كان غرض المستعمر هو أن يرتبط بفئة ثابتة على الصعيد الاقتصادي والسياسي ، وأن يستخدم تأثيرها الاداري او الديني ، للسيطرة على الفلاحين الفقراء أو المتوسطي الحال ويراقب غالبية الشعب الجزائري .

كانت الرجعية الدينية أيضاً تحرص على بقاء الهوة التي تفصل الريف عن المدينة، الأكثر تطوراً في جميع النواحي الدينية والسياسية ، وفي الوعي الطبقي والعاطفة القومية .

وقد تجنبت جبهة التحرير الوطني الخطر الطائفي بتجنُبها كل تخطيط يؤدي إلى اللاطائفية السوقية . ذلك أنه كانت هناك دائماً طوائف دينية مختلفة الآراء أو جمعيات سرية لم يكشف ميثاقها إلا لمريدين يتوحد ايمانهم بالحقد على الادارة الاستعمارية .

لم ننس – وهذا ما جهلته « ليبرتي » ، جريدة الحزب الشيوعي الجزائري الاسبوعية – أن بعض فلاحينا القبائليين لم يكونوا كما هم الآن ، حلقات للدراويش أو الحواة ، أو صانعي التمائم والتعاويذ التي تبعد « العين الشريرة » ، والفقر ، والمرض ، والضعف ، والعقم ...

كان هؤلاء في الماضي جمعيات دينية ـ عسكرية ، كالمرابطين ، مؤسسي الامبراطورية المرابطية ، والداويّة أو فرسان الهيكل[1] المتجندين في سبيل الكاثوليكية والاقطاعية في أوروبا .

---

١ – L, Ordre des Templiers ، الداوية أو فرسان الهيكل ، جمعيه عسكرية رهبانية تأسست عام ١١١٨ . اشتهر أعضاؤها أيام الحروب الصليبيه في فلسطين . ألغاها البابا اكليمنضس الخامس، عام ١٣١٢ بعد إثارة قضية ضدهـا اتهمت فيها بالاثراء وبالتعاطف الخفي مع الاسلام .

وفي مقاومة الاحتـــلال الفرنسي عـام ١٨٣٠ ، كان الاخوان ـ الجنود ، كالرهبان ـ الجنود ، أول المتطوعين الذين لبوا نداء الأمير عبد القادر في محاولة لإنقاذ الوطن والدين .

إن الانكسار العسكري ، بعد سبعة عشر عاماً من القتال ، وتهـديم النظام القبلي ، وسرقة الارض ، والضغط ، والفساد ، والبؤس ، والمجـاعة ، وانتصار الرومي ، الغريب ، الكافر ، الظالم ... إن هذا كله ظهر وكأنه لعنة ... وبعد ان نفي فرسان العقيدة إلى فرنسا ثم الى سوريا ، فقدوا الأمل كله وأخـــذوا ينتظرون المهدي ، الذي سيدل الشعب ، بمعجزة ، على الطريق المستقيم !

٢ ـ الإيديولوجيا الوطنية ـ الاصـــلاحية ، وهي تتميز بارادة الوصول إلى الاستقلال بسير متبصر ، بالسياسة اللاعنفية . كأن يتم الاستقـــلال بالتعلم ، أو بالتجارة ، أو بالصناعة أو استرداد الارض ، أو بالحياة العصرية أو بتعليم المرأة أو بالتخلص من الحجاب أو بالعمل البرلماني أو النقابي أو بالفواتح والصلوات التي تجلب اللعنة الإلهية ، أو بالأناشيد الوطنية الحماسية !

ذلك ان العمل الثوري والثورة « لعبـــة خطرة » نار تحرق دائمـــاً ، السحرة ـ الأغبياء ..

ينبغي إذن أن نعرف كيف ننتظر الحليف الذي سيأتي من الخـــارج والذي سيقضي على الاستعمار بأسلحة من أنواع أسلحته !

وهكذا كانت هذه الإيديولوجيا الإصلاحية تبشر بالصبر الى أن يجيء المحرر الذي سيلبس ، في آن واحد ، قناع سيدنا سلطان اسطنبول ، والحـــاج غليوم الثاني ، والغازي أتاتورك ، وجوزيف ستالين ، والفوهرر هتلر ، وروزفلت ...

٣ ـ إيديولوجيا الاستسلام أمـــام صعوبات الثورة المسلحة . وكانت تشل الثوريين «ذوي الاغراض» في الحزب الشيوعي الجـزائري والحركـــة الوطنية الجزائرية .

كان هذا الموقف المتردد يؤدي الى بذر الشك في يقين النصر ، وفي اهلية جبهة التحرير الوطني للنجاة من المغامرة .

وإذ كان «الستراتيجيون» غير موجودين خارج الحزب الشيوعي الجزائري والحركة الوطنية الجزائرية ، فإن كل عمل مستقل عنهما محكوم عليه بالفشل مسبقاً ... الثورة فن لا يعرفه غير الاعضاء المريدين وحدهم ... خطر ! الاقتراب ، بغير اذن ، ممنوع ! هذا كله ، لكي لا تكون الثورة مغامرة دامية وبلا مستقبل و«عملية انتحار» تقوم بها حفنة من «المغامرين» الذين تلقحوا بالجرثومة الفوضوية الكامنة في الاقلية الفعالة ... ولكي لا تكون الثورة هوساً يولد خطراً حقيقياً ونتائج اجتماعية وخيمة العاقبة .

سنرى ، حينما نحلل بدقة سياسة الحزب الشيوعي الجزائري ، أن هذا الموقف كان نتيجة منطقية لنظرية ضبابية تمتزج فيها اللينينية بالاشتراكية ـ الاستعمارية ، والانتهازية الخائفة والطائفية المناقضة للشعور القومي ، مع الصبر والتريث ، والخوف من الشعب ، والعزلة السياسية ، وعدم التهيؤ الزمني لانفجار شعبي جيد النتائج .

٤ ــ الايديولوجيا المصالية[١] المناقضة للثورة . وقد نشأت بعد انشقاق « حركة انتصار الحريات الديموقراطية» وامتداد الثورة المسلحة في نوفمبر ١٩٥٤ ، «الحركة الوطنية الجزائرية» التي سرعان ما انتقلت من الحذر الى العداء المستتر ثم العلني . وهكذا انحطت إيديولوجيا الاستسلام الى ايديولوجيا مناقضة للثورة .

وقد ظهر العون غير المباشر لعدو الوطن الجزائري ، أولاً ، في شكل الانصراف الى حياة اللهو أو التعصب العنصري .

كانت تُعتبر خيانة « الحركة الوطنية الجزائرية » حتى ذلك الوقت عملاً « لا شعورياً » في نظر بعض القوميين الذين لم يكونوا يرون فيها إلا منافسة بين « إخوة أعداء » يكافحون ، كل على حدة ، ضد العدو المشترك . وقد أصبحت في نظر الجزائريين جميعاً خيانة صريحة ومقصودة ، بعد الاغتيالات المتكررة لمناضلي جبهة التحرير الوطني .

---

١ ــ حركة مصالي الحاج .

لقد تأكدت نظرتنا للمصالية « الورقة الاخيرة » بيد الحكومة الفرنسية ، فيما أسرّه « سوستيل » الحاكم العام ، للبروفسور ماسينيون . والتحليل الذي نشرناه في بيان جبهة التحرير الوطني لمناسبة (مؤتمر الصُّمام ٢٠ آب ١٩٥٦) يدل ، في ضوء التجربة ، على اننا كنا مصيبين في ان نبدأ بشدة الكفاحَ الإيديولوجي والسياسي والتنظيمي ضد « الحركة الوطنية الجزائرية » ، جمعية أعداء الشعب الجزائري .

وكانت هذه الحركة تفيد ، في نظام ديغول ، وإبان حكم غي موليه – لاكوست ، من الدعاية الطنانة في الاذاعة والصحف ، وكان رئيسها ، في مقابلات يوحي بها البوليس السياسي الفرنسي ، يتحدث تماماً في الموضوعات التي تثيرها مصلحة الدعاية البسيكولوجية في الجيش المستعمر : انقسام الحكومة الجزائرية الموقتة ، المائدة المستديرة ، تأثير « الحركة الوطنية الجزائرية » المضخّم ، التهويل بالحزب الشيوعي الجزائري ... وقد نقلت على لسانه جريدة « باري – بريس » ، تاريخ ٣ – ٦ – ٦١ ، القول : « وعلى كل حال ، فان الشيوعية بشعارات من نوع « الارض للفلاحين » ستضايق جميع الذين يرغبون بالتفاهم مع الفرنسيين . »

هذا ذلٌ لا يصدّق يظهره احد معادي الثورة . إن المشعوذ الساحر الذي يتظاهر بأنه يبصق النار يجرؤ ان يعلن نفسه مدافعاً عن الملاّكين الكبار ضد الإصلاح الزراعي الذي يعتبره المجاهدون وحدة لا تتجزأ مع الكفاح من اجل الاستقلال القومي .

لم يعد ذلك يدهش أحداً . ان حياة « أبو لحية[1] » ما تزال غالية على الحكومة الفرنسية التي تحميه –حتى في فرنسا! – بحرس دائم من ثلاثين مأجوراً! دون ان نعدّد رجال الدرك والأمن .

لم يعد الزعيم القديم ، القائد الديماغوجي إلا جلاّوي لا اسم له ، ولا شرف ، ودون غفران ...

---

١ – لعله يقصد مصالي الحاج .

« فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره »[1].

*

ولدت « جبهة التحرير الوطني » ، القوة الموجهة والمنظمة للثورة الجزائرية ، في مرحلة تاريخية فريدة .

لقد نشأت في حمّى التمرد المسلح الذي بدأته في أول نوفمبر ١٩٥٤ ، اللجنة الثورية للاتحاد والعمل .

ان جبهة التحرير الوطني هي تفتح اللجنة الثورية للاتحـاد والعمل ، كاللهب الذي ينبثق طبيعياً من الشرارة ، وكالثورة التي هي التطور النوعي للتمرد .

وكان من الواجب ، للقضاء على الاستعمار الفرنسي ، التخلص من الخرافـات التي تعرقل وظيفة الفكر النقدي ، والخلاص من تقـاليد الخنوع . لكن المفاهيم الباطلة والنظريات الطوباوية لا تزول آلياً ، بعد تجربة اولى . فهي لا تريـد ان تترك مكانها للواقع التاريخي ، دون مقاومة ضارية .

علينا ايضاً ان نعرف كيف نميز ، البـائد او الطوباوي ، ليس في المطلوب التجريدي ، بل بالقياس الى موضوع حسي : القضاء على النظام الاستعماري .

كان ما يزال مثلاً للجامعة الإسلامية عشية ثورتنا ، أنصار بينهم قوميون مخلصون ، يحلمون بتحرير الجزائر عن طريق بعث وحدة سياسية دينية مزقتها نهاية اقتصاد تجاري قائم على الملاحة الشراعية وطرق القوافل .

غير ان السكان المسلمين أدركوا ، بخبرتهم الخاصة ، أن التضامن الديني كان قد فقد الكثير من قوته وعفويته وفاعليتـه . كان الاستعمار الفرنسي يستخدم الجنود السينيغاليين أو المراكشيين في الجزائر ، ويستخدم الجزائريـين ضد السوريين أو المراكشيين الريفيين ... وفي الجزائر ذاتهـا كان الموظف والحارس والشرطي والبوليس السري — وجميعهم مسلمون ! — يشكلون الجهاز الاستعماري في البلد ...

ولئن كانت « الغابة تحترق بمشعل من خشبها بالذات » ، أفليس اكثر حكمة

---

١ ــ القرآن الكريم ، سورة الزلزلة ، آية ٧ و٨ .

القول مع السوريين واللبنانيين : « الدين لله والوطن للجميع . » ?

ويعتبر الإلحاد ، في الطرف الآخر ، عند الارستوقراطية العمالية الأوروبية ، شرطاً أولياً للخروج من طفولة المدنية ، وغالباً ما يظهر الإلحاد في شكل عصبية مهذبة ، لكن حيث يسيطر دائماً الاستخفاف بالشعب الذي ما يزال «متخلفاً» ؛ وإذن ، « قابلاً للاستعمار » الدائم .

يا لهذا الجهل الفاحش بالبسيكولوجيا الاجتماعية ! كأنما ظهور الملّاح الفضائي يكفي بذاته ليمحو من ضمير الشعوب الذكرى الساحرة للبُراق أو الجواد المجنح برأس امرأة او رأس عنقاء .

نعرف أن هذه العقول « المتفوقة » تهتم أكيداً أن تعرف مثلاً أن « ليتراً من الماء يتحول ، بالتماسّ مع مولد كهربائي ، إلى ألفي ليتر من البخار . » ، وأن « سمكة حمراء معزولة تستهلك من الاوكسيجين أكثر مما تستهلكه وهي ضمن مجموعة من السمك ! »

ما من أحد يحاول ان يفسد على هذه العقول خلوتها في الأندية « العلمية » أو في « المقاصير » . وما من أحد يدهش حين يعرف أن أشياع العقل هؤلاء يظنون أنهم مجبرون على وضع مئزر لتبادل أسرار كهذه عن « الفيزياء المسلية » ... أو للأمل بنجدة « المكبس » من أجل التقدم في الادارة الاستعمارية .

لكن ، أن نزعم أننا نرسم طريق التقدم الإنساني بدعوتنا للنظر إلى « العَرْقِية » نظرة خلاعية ، فذلك يعني أننا نجرح معتقدات الغالبية العظمى من الشعب الجزائري دون تمييز طائفي .

إن ادعاء الكفاح ضد الاستعمار مع تصريح المدعي بأنه أقرب إلى فلاح ثري ملحد وأوروبي ، منه إلى العامل الزراعي المؤمن والجزائري ، يعني أنه يرسم حداً خاطئاً على الصعيد السياسي . وأنه يثير جدلاً بيزنطياً ، ناسياً العدو الرئيسي : النظام الاستعماري ، مصدر الجهل والظلامية .

وتصريح هذا المدعي ، بأنه مفكر « حر » دون أن يكافح في سبيل فصل الكنيسة عن الدولة فصلاً حقيقياً ، ونسيانه حتى مساعدة المسلمين لنيل الحرية

الدينية، وبشكل أخص وقوفه ضد التدخل الفرنسي لاختيار رجال الإمامة والإفتاء الذين يعينهم حاكم مسيحي أو يهودي أو دون إله ! — هذا كله يعني رفض الدفاع عن أكثر الحقوق بداهة : حرية الضمير . يعني رفض الدفاع عن الديموقراطية ، والامتناع عملياً عن المساس بمؤسسات الظلم الاستعماري ، والمشاركة في ترسيخ الركود الاقتصادي والاجتماعي وازدياد التخلف الإيديولوجي.

وإنها لمفارقة أن يكون الولاء للاسلام الذي اضطهده الاستعمار واستخف به ، هو الأكثر ثورية بالفعل ، في السياق الأخير ، على الصعيدين : الديالكتيكي والتاريخي .

إن «حركة الإصلاح الديني» حركة نهضة إسلامية ذات طابع ثقافي وسياسي . وغالباً ما ظهرت كإيديولوجيا بورجوازية ديموقراطية ، لكي تقضي على النظام الاقطاعي ، اقتصادياً واجتماعياً وإدارياً . وقد أخذت في الجزائر تنمو نمواً مستمراً بعد تأسيس « جمعية العلماء » المسلمين الجزائريين ، منذ ثلاثين عاماً .

كان منهجها يتلخص في هذه الصيغة الأخاذة : « الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا . »

وكان عملها بادىء الأمر ، خصوصاً في المدن الكبرى، عملاً أخلاقياً خالصاً ، إذ أخذت تحارب الكحول ، وخرافة الدروشة والزهد ، وتطالب باعادة أملاك الوقف إلى وضعها السابق ، والتعليم « الإكمالي » باللغة العربية .

وقد اتهمت الادارة الفرنسية والصحافة الموالية ، العلماء بأنهم متعصبون « وهابيون » ، يعملون للوحدة العربية والجامعة الإسلامية ، كعملاء للملوك العرب الصغار ، توجههم مصلحة الاستخبارات ...

أما بالنسبة للحزب الشيوعي (يوم كان الفرع الاقليمي الجزائري للحزب الشيوعي الفرنسي) ، فقد كان يعتبر هذه الحركة منظمة بورجوازية ، رجعية ، تحارب الشيوعية وتعمل على معاكسة العمل الثوري للحزب الوطني الثوري ، « منظمة الجماهير » التي تضم جميع المطالبين باستقلال الجزائر .

كان البرهان الواضح على ذلك هو الهجوم الذي كان يقوم به الشيخ العُقبي[1]، وهو خطيب شعبي تتعشقه الجماهير، على الشيوعية من خلال نشاط « العمال الذين لا رب لهم »، وهؤلاء منظمة « جماهيرية » لا يتجاوز أعضاؤها الخمسة عشر! ولم يكن أحد يهتم بمعرفة ما يجري بينهم في الاجتماعات « شبه السرية ».

أما الشيء الذي لم يكن يجهله أحد فهو مظاهر الاستعراض التي كانوا يتباهون بها في الأعياد الشعبية الصيفية للنقابات العمالية، والتي كانت تبرزها جريدة «الديبيش ألجيريين» في ريبورتاجها، الذي لم يكن منه بد، عن «الأعياد الحمراء» لكي تفتري على الطبقة العاملة وتشوه الحقيقة.

كانت هذه الجماعة الفوضوية القليلة تتسرب بين المخيمين في الغابة أو بين المستحمين المستلقين على الرمل.

ولم يكن الخطاب يهدف إطلاقاً الى توضيح أصل العالم، والانسان أو الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية، وانما كان يسخر من المذاهب و«الأفكار المسبقة». «العقيدة» هي نقيض الاخلاق «الرأسمالية» : الالحاد، والنباتية، والطبيعية. ثم يدعى «هؤلاء الذين فهموا» للانضمام الى «معسكر الفكر الحر» في طرف الشاطىء أو الغابة. وهكذا كان الفضوليون يشهدون حفلة عري جماعية هستيرية في البحر ... كان مشهداً يثير الشفقة، لأنه كان يذكر بمذهب العري في القرن الثاني الغريغوري، حيث العري كامل كعري الإنسان الاول في التوراة!

ومن حسن الحظ ان موقف الحزب الشيوعي الجزائري قد تعدل تحت ضغط المناضلين النقابيين المرتبطين بالشعب؛ وتم «التحول» في الاتجاهين : أولاً، بالانفكاك عن فئة لم يكن لنشاطها المشئوم اية علاقة بالرأي اللينيني في الدين الذي كان يقبل انضمام المؤمنين – وحتى الكهنة! – الى حزب ثوري يؤمن بفلسفة مادية، يعني انه يقوم على التفسير العلمي لظواهر الطبيعة، وهو تفسير عقلاني تؤكده الكشوف الإنسانية ... عند الاميركانيين أو الروسيين.

---

١ – نائب رئيس سابق، ترك جمعية العلماء عام ١٩٣٩ متابعاً محاضراته في « نادي التقدم » في الجزائر.

وثانياً ، بتنظيم حركة جماهيرية ، بالتعاون مع «الحـزب الوطني الثوري» ، تأييداً للشيخ العقبي نفسه الذي منعته السلطات من التبشير في الجـامع الكبير ، وهو حق يقر به الإسلام لكل مسلم حكيم أو عالم .

سارت المظاهرة في ساحة الحكومة ، وسط مدينة الجزائر ، بنجاح كبير.. وقد حكم القضاء الاستعماري على الطيب ، وهو مناضل عربي ، ونافارو ، وهـو مناضل اوروبي ، بالسجن ستة اشهر لأنهما دافعا عن حرية المعتقد وحرية الاسلام الذي يأخذه الاستعمار بخناقه . كان ذلك عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤ !

هذا الموقف الذي وقفه الشيوعيون وحلفاؤهم الوطنيون الثوريون ، لا يمكن أن يعني إدراكهم ان الدين ، في الجزائر كما في اوروبا سابقـاً – كان يسيطر على فئات الناس . وهم ، في استعجالهم مراحل التطور ، كانوا يعتبرون ان الدين يجب ان يوضع في معزل عن السياسة : كانت هذه مسألة اختيار فردي .

لم يكونوا يرون أن الحركة الاصلاحية تمثل وعياً قومياً ، ذا شكل مغاير ، لكنه صادر عن وعي المصالح المشتركة أمام ظـلم النظام الاستعـماري الذي يضطهد الشعب الجزائري دون تمييز بين طبقاته .

أكيد انه لم يكن من السهل ، في واقع جزائري ، متحول معقـد ، بنتيجة الخلافات الايديولوجية وتضارب المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ... أو الانتخابية ، التقييم الدقيق لحركة دينية كان العلماء انفسهم يحـددونها كيفياً بإحدى كلمتي الشعار : الدين أو اللغة العربية .

كان يُنسى أو بالاحرى يُجهل – ان سر الرسالة القوميـة لحركة الاصلاح الجزائري ، يكمن في صلة هاتين الكلمتين من الشعار بالكلمة الثالثـة : الوطن .

ولم يكن الشيخ بشير الإبراهيمي–طيب الله ذكراه! - لينسى مطلقاً أن يذكر المواطنين الجديرين بالثقة أن الهدف من مخطط العلماء كان تحرير الوطن تحريراً قومياً .

غير أنه كان لا بد ، لبلوغ ذلك بيقين النجاح الـكامـل ، من خلق المنـاخ الإيديولوجي ، وتهيئـة العقول . هذا هو المعنى الذي ينبغي ان نعطيه لكلمة الشعار الاولى : الإسلام ديني .

المرحلة الثانية هي معركة اللغة العربية ، اللغة القومية . وقد ارتفع عدد المدارس العربية بين ١٩٤٣ و١٩٥٤ ، من بضع عشرات الى مئة وخمسين مدرسة .

والمرحلة الثالثة هي الكفاح في سبيل الاستقلال .

وقد جاءت لحظة التشديد على كلمة الشعار : « الجزائر وطني » ، تماماً في لحظة الفشل الذي أصاب الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها .

وأثنى ، بشكل خاص ، الشيخ العربي التيبازي (أوقفه المظليون واختفى) على وثيقة تقع في حوالي عشر صفحات ، وتعرض التفسير الديالكتيكي للعمل الاصلاحي في الكفاح من اجل الاستقلال .

هذه المعرفة الحدسية للمستقبل لم تكن تتناقض مع كلامه المشهور الذي أنكر فيه الزواج المختلط قبل القضاء على الطغيان الاستعماري : « من يتزوج فرنسية يُدخل الاستعمار الى بيته . »

ما يستحق الاعتبار والإعجاب عند زعيم ديني معروف بتقواه الكبير ، هو ان نكتشف وطنيته العنيفة ، الخالصة من كل عصبية دينية أو عرقية .

ويعلّم القرآن أن « لا إكراه في الدين[1] » .

هذه الأولية التي تعطى لما هو سياسي على ما هو ديني — أو هذا التغلغل ، تغلغل الشعور القومي حتى أعماق الايمان — ظاهرة جزائرية بشكلها ، لكنها اجتماعية بمضمونها .

يكفي ان نعيد النظر الى سير الفكر عند « ديدرو » لنكتشف أن الفلسفة في عصر النور ، أخذت بدءاً من البروتستانتية تفتّح الاذهان للتطور حتى انبعاث الثورة عام ١٧٨٩ .

وهذا شأن حركة الاصلاح ، أعني العمل لضبط الأمور ، وتصحيحها ، ولتحسينها ، وإصلاحها .

فقد لعبت دوراً أول في انهيار ايديولوجيا النسك والدروشة « الرسمية » وهي عقيدة الاقطاعية وعامل من عوامل الجمود الاجتماعي ، وستار فاصل بين

---

١ — سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

سكان الريف وسكان المدينة ، وحصن النظام الاستعماري .

يكفي مثل واحد للتدليل على تأثير هذه الايديولوجيا . كان الحج السنوي الى مقام سيدي عابد (قرب روليزان) سوقاً دينية يحتشد فيها حوالي مئة الف شخص ، حيث كان الإفراط في الاكل والسكر ، طوال اسبوع كامل ، يمتزج بالاعتقادات الباطلة ، على مسمع ومرأى من السلطات الاستعمارية ، وبلباسها الرسمي .

ولقد شاركت الحركة الاصلاحية مشاركة فعالة في إضعاف الاتجاه الذي يدعو الى الدمج ويقول به المثقفون المتفرنسون الذين كان يرئسهم الدكتور بن جلّول . وكانوا يطلقون على الاتجاه الذي قضي عليه اسم « صوت الودعاء » .

فهنا ايضاً ، بخلاف ، وجهة النظر « الغربية » ، ليس الثوريّ ولا الرجعي هو الذي يُدلّ عليه وفق سلّم القيم الاستعماري .

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس -- أدام الله ذكره -- أول رئيس لجمعية العلماء. كان خطيباً ساحراً ومتواضعاً كأحد ابناء الشعب .

كان يساعد كل عمل مناهض للاستعمار . وكان له أصدقاء سياسيون أو شخصيون في مختلف الاحزاب ، وعلى الأخص بين المناضلين الثوريين ، دون اعتبار للاتجاه أو الطائفة . وقد تجلّت ايضاً شجاعته السياسية في مواقف أخرى ، كاستنكاره النزعة اللاسامية ، أو مناهضة اليهودي لمجرد انه يهودي ، ونشاط « الاتحادات اللاتينية » وتواطؤها مع الادارة الاستعمارية .

كان مصلحنا الديني ثورياً خالصاً وحكيماً ، لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية اكثر مما تقدر ان تعطي . كان أب المؤتمر الاسلامي الجزائري حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار . وكان هذا المؤتمر استنفاراً عاماً للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل ، دون استثناء ودون عصبية .

كانت هذه اللحظة العلامة المميزة لدخول الشعب الى الحلبة السياسية التي كانت وقفاً حتى هذه الآونة على نخبة معينة .

انها المرحلة التي كان الثوريون فيها ، أشبه « بديوك الليل » التي تبشر بالصباح

قبل الأوان ، والليل ما يزال أسود كثيفاً ، لم يفوزوا بعد – ولم يكن بامكانهم ان يفوزوا – بمواجهة الجماهير لاستخدام العنف في الكفاح من اجل الحرية .

كان كل شيء مرّكزاً حول المساواة في الحقوق مع الاوروبيين .

تجشم المشقات مع الخصم – أعني اوروبيي الجزائر – للحصول على مدارس، ومحاريث ، وطرق ، ومستشفيات ، واختيار طريق « الانعتاق بالتطور ! » – هذه كانت الخطة السياسية للمنتخَبين « غير الاداريين » الذين يُسمع صوتهم اكثر من غيرهم ، والاكثر شعبية ، « الاعيان » و « الطـلاب » الذين تثقفوا بالثقافة « الفرنسية » .

كانت وسائل العمل هي الشكاوى التي كان يرفعها « الى الفرنسيين الطيبين في فرنسا » ، « وفد » يرسل الى باريس ، حيث كان « منتخَبونا » يجدون رجالاً ديموقراطيين لكي « يصغوا » إليهم ، ويشاركوهم غضبهم ، ووزراء يسمح لهم تهذيبهم « باستقبالهم » وبتقوية الاوهام ... فيما يتعلق « بفعاليـة » العمل الذي تقوم به بعض الشخصيـات – حتى العالية ! – لرفع العبء الاستعماري دون استخدام العتلة الشعبية .

لهذا لم يكن المنتخَبون – الأتباع و «المستقلون» – يسلّمون بهذا التناقض: بطالون « مخمورون بحشيشةالكيف »... او علماء « لا يتكلمون حتى بالفرنسية » ويحاولون ان يفهموا السياسة بدلانصرافهم الى تعليم الوضوء والصلاة وأصولها .

بعد خمسة عشر عاماً ، أثار السيد جاك شيفاليه ، مواضيع من النوع ذاته ، بنبرة وزير سابق . ففي حديثه عن تأسيس « الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها » ، في ٦ آب ١٩٥١ ، لا يخفي حزنه وغضبه لرؤيته نظاماً تدرجياً دينياً يحقق تحالفاً مع الأحزاب السياسية ، بينهـا « حركة انتصار الحريات الديموقراطيـة ، والحزب الشيوعي الجزائري ؛ فيقول في كتابـه « نحن الجزائريين ... » : « لم تكن أهداف هذا التحالف تتضمن أي شيء يمكن ألا تقره ديموقراطية حقيقية . »[١]

---

١ ــ جاك شيفاليه ، « نحن ، الجزائريين ... » ، باريس ١٩٥٨ ، ص ٣٧ و ٤٣ .

أكيد أنه لم يكن ممكناً أن تكون المسألة مسألة إعداد للعمل الذي ينتزع الاستقلال القومي . كان ذلك مخططاً باستطاعة « دي سيرينيي » أن يوقعه ... لأنه كان يجسد رغبة في الاصلاح .

لكن هذا « الاقتران المخيف » كان ينذر بالانفجار ، لأن « المسلمين المعتدلين وجدوا أنفسهم محاصرين حيث لا منفذ » .

ولماذا ؟ يجيب جاك شيفالييه : « سيفسر البعض مناهضة الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها ، على أنها عمل عدواني ضد الدين ، لأن الدين الاسلامي داخل في هذه الجبهة . »[1]

هذا عين الحقيقة .

كان الخطر المميت بالنسبة للاستعمار يكمن على وجه الدقة في هذا الاتحاد « الغريب » بين « مفاهيم متعارضة (؟) في الاسلام ، كالروحية والمادية . »[2]

لقد كان الدين الإسلامي وثاقاً يمتّن اتحاد مختلف العناصر في القوة الشعبية التي تزخر بها بلادنا .

غير أن العدو الاستعماري الذي كان يقيم في « الفيو-باليه »، كان أكثر ذكاء حين كان يهدم الجوامع ويحولها إلى ثكنات أو إصطبلات !.. كانت هذه معابد تهدم ويتم الخلاص منها . إلا أن الجامع كان ايضاً الجامعة ، كما هي الزيتونة في تونس ، والقيروان في فاس ، وكما هو الأزهر في القاهرة . فهدم جامع كان يعني هدم مدرسة ، ومكتبة ، وقاعة للمحاضرات، وبيت للشعب ، وجمعية استشارة أو شورى .. ومُتحف موسيقي يُدرس فيه تجويد القرآن ، وهو فن يتطلب معرفة مسبقة بمقامات الموسيقى الكلاسيكية أو الشعبية ، الأندلسية أو الشرقية .

لن نشدد الكلام على الروح الصليبية التي تجلت في تحويل الجامع إلى كنيسة، وإقامة الأنصاب التذكارية يعلق عليها الصليب الحديدي فوق العبارة اللاتينية :

---

١ - المصدر السابق .

٢ - المصدر السابق .

« In hoc Signo Vinces » ؛ (ستنتصر بهـذه الإشارة !) ولن نشدد على شعارات المدينة ، كشعار مدينة الجزائر، الذي عمم في العالم كله بواسطة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخم في السماء ، منتصراً على هلال صغير منكس فوق البحر .

وكان العدو الاستعماري ذكياً جداً في اختياره « موظفي الجوامع » من بين العسكريين المتقاعدين المرشحين لأن يصبحوا نواطير ، وسواس خيل ، وعمال بلدية ، وكهرباء ... وإذا برهن طالب الوظيفـة على إخلاصه للنظـام الاستعماري ، وحفظه عن ظهر قلب « الـ ٦٠ فصلاً » ، اعتبر مستوفياً للشروط المطلوبـة ، ليمنح إجازته « كشيخ للاسلام » ، موقعة بإمضاء الحاكم العـام . ولم يكن على المفتي الأكبر أكثر من أن يختار من المحفوظـات النص الصالح ليكون خطبة الجمعة ، مع حرصه أن يخضع « كلمات الله » إلى الرقابة المهنية المجدفة عليه ، التي يمارسها « الإله الآخر » — المفوض السامي . وإذ يصغي إلى المـذياع وهو ينقل الصدى المحرك الآتي من عبارات « الله أكبر » ، يتصور هو ، كاهن السلطـة النازي ، أن جمهور المصلين الذين يسجدون فيلمس جبينهم السجادة التي تغطي الارض ، يشبهون حشداً من العبيـد الراكعين الذين يقدمون خضوعهم وأرواحهم قرابين !

وكان العدو الاستعماري بارع الذكاء في محاربته المستمرة المميتة للغة العربية ، اللغة الاجنبية : حين كان يغلق كل مدرسة عربية موجـودة على بعد ثلاثـة كيلومترات من اية مدرسة فرنسية غايتها تعليم بعـض المفردات الـكافية لإدارة العمال الزراعيين ، كما تعلم البغال بضع كلمات تجعل قيادتها أقل ازعاجاً ...

وكان العدو الاستعماري يدرك مدى الخطورة في ازدهـار اللغة العربيـة الصحيحة ... فأن يتعلم الصغار الجزائريون لغتهم الأم ، يعني تخلصهم من عـار انهم «اطفال الساحة العامة» ، أيتام ، ولقطاء ، ومشردون ؛ يعني إيقاظ وعيهم بجدارتهم وكرامتهم ؛ يعني تجنيبهم خطر المراهقة التي لا جذور لها والتي تتدهور في هاوية الكحول ونرفانا الكيف والكوكائين والفجور ؛ يعني أن تعـاد للشاب

العزب روحه الواثقة القوية الصافية ليدرك منشأ الفعل الانعكاسي الاستعماري : مثلاً عار الاوروبية العرقية ، العاهرة ، الكريهة كالقملة ، التي ترفض ان ترقص مع «عربي» حتى لو كان ساحراً كأدونيس ، عربي فينيقيا الذي عشقته فينوس .

إن تعلم اللغة العربية من جديد هو إحياء التربية الطبيعية والعقلية والتاريخية التي تتيح أن نكتشف السبب في أن جبل الجرجورة ، «الجبل الحديدي» الروماني الذي لم تصله المسيحية ، قد سمى أعلى قمم الاطلس في منطقة التل باسم لالا خديجة ، الزوجة الاولى للنبي العربي ، وأم المؤمنين .

وهو ايجاد تفسير لهذا اللغز : لماذا تغلبت اللغة العربية على اللاتينية في افريقيا التي «طبعت بطابع روماني» ؟ وهو الاكتشاف اللغوي العلمي القائل بأن اللغة البربرية ليست غريبة الى الحد الذي يظن عن اللغة العربية .

ليست المسألة قطعاً مسألة تعريب سطحي يكتفي بنقل بعض المصطلحات الشرعية -- الدينية ، كما يحدث الآن في الجزائر وباريس ولوس انجيلوس .

ولا يحتاج الأمر الى التضلع في المورفولوجيا كالآباء الذين أنعموا علينابكتاب عن قواعد الصرف والنحو في اللغة القبائلية ، بل ان الطالب الذي يعرف استخدام المنجد ، القاموس اللبناني ، يمكنه أن يرى في الكلمات المعتبرة «كلمات بربرية نموذجية» ، مفردات عربية خالصة !

حين نخرج كلمة ameslai من قبرها العامي الفقير ، فانها تأخذ في القبائلية معنى «المسألة» — السؤال ، الطلب ، البحث ، قضية للحل ، موضوع المناقشة ، الالتماس ...

ولم تعد اللغة الدارجة Louatua في Tizi - Ouzou اصطلاحية ومفيدة ، بل اصبحت لغة شعراء يزيد أسلوبهم التصويري في جمال لغة عربية أدبية قديمة .

وتحية السلطان Kou Kou ملك Azazga ، الذي كان اخواه Aroudj وخير الدين حليفين ، نشكل عقداً من كلمات هذا المرجان العربي ـ البربري .

Aguellid : ملك ، آتية من الكلمة العربية «مقلد» ؛ مقلد عقداً ؛ والسيد يقلد أمور قومه. فالمقلد يحمل علامة الافضلية المميزة .

Thamettouth : امرأة تعني في العربية : «ذات الحواجب الطويلة التي تنظر باستخفاف ، وتسير بكبرياء .»

Azib, : ابو شروف مرعى بعيد[1].

'Akhzar : ابو شروف نظر (بمؤخر عينه وتداهى بالمعنى العربي الدقيق[2])

'Ourqoube : ابو شروف عرقوب، الطريق في الجبل، منحنى الوادي، المنعرج.

Chemmam : شمّام .

A - Yazidh : ديك ، بالعربية : صيّاح ، المعنى ذاته موجود في الكنية العربية : أبو اليقظان أي الديك الذي يوقظ النائمين .

Azgane : نصف ، بالعربية : أخذ عنه نصف العبء ، شاركه في عمله .

A - querouill : رأس ، بالعربية : ذروة جبل ؛ مضياف .

A - mazgih : تعني ، بالعربية المكان الذي تغرب فيه الشمس ؛ المغرب ؛ الغرب . هذا يعني ان كلمة mazigh هي مثل كلمة maghreb تماماً . أي ان العربية والبربرية لغة أم واحدة مشتركة ، في وطن مشترك ، ونفسية مشتركة ، ومصير مشترك .

لا نستغرب . فالأمر يتعلق بظاهرة يمكن ان يوضحها التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم اللغة .

١ – شكلت جبال الجزائر حاجزاً اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، لاعبة الدور نفسه الذي عُرف وتأكد في المانيا وايطاليا قبل الوحدة القومية . واللغة القبائلية التي حفظتها العزلة الجغرافية جمدت كاللغة الأدبية التي حفظها القرآن . فهناك ، الى جانب اللغة العربية المحكية ، وهي لغة حية تتطور باستمرار ، اللغتان الأخريان : القبائلية والدينية ، وهما تتحنطان وتزداد صعوبة فهمهما

---

١ ـ العازب ، لغة ، الارض التي ليس فيها أحد . وعزب الراعي إذا ابتعد بماشيته عن الناس في المرعى .

٢ ـ خزر ، نظر بمؤخر عينه وتداهى . وخزرت العين : ضاقت . وشزر الرجل : نظر اليه بجانب عينه مع اعراض أو غضب .

يوماً بعد يوم .

٢ ـ اللغة القبائلية بالنسبة للغة العربية هي كاللغة الكندية بالنسبة للفرنسية . فالكندي ـ الفرنسي الحقيقي لا يستعمل كلمة Automobile بل كلمة Char وهو حين يستعمل عبارة Char à feu لا يقصد دبابة أو مصفحة ، بل « قاطرة » .

٣ ـ اللغة القبائلية لغة عربية قديمة احتفظت بما تتضمنه من العذوبة لغة هاني بعل ، هذه اللغة الأم التي شوهها الخط الفرنسي والنعوت اللاتينية بتأثير « الروح البونية » ، بين قرطاجيين ، وفينيقيين ... أو مالطيين .

٤ ـ ان الكلمة المركبة عربي ـ بربري ، عند الاستعماريين ، تعبر عن فكرة التعارض بين الشعبين ، واللغتين ، والثقافتين . وهي تستعمل بهذا الشكل لإعطائها قوة سلبية لا تتفق مع الواقع الجزائري .

هذه الكلمة بالنسبة لنا ، صلة وصل بين جماعتين شقيقتين . إنها وحدة الأرومة التاريخية ، منشأ الوطن الجزائري المعاصر .

ومن جهة ثانية ، لم ينجح الاستعمار اطلاقاً في الفصل فصلاً نهائياً بين العربية والبربرية ، اللغتين المحكيتين المتميزتين ، لكن اللتين يوحدهما أصل واحد هو اللغة العربية الفصحى التي تلعب دوراً موصلاً مثلث الأبعاد ـ كلغة دينية ، ومكتوبة ، وتجارية .

وليس صدفة أن تغذي اللغة العربية اليوم شعور الانتماء إلى الوطن الجزائري ، كما كانت تحيي ، منذ ألف سنة ، حركة التوحيد اللغوي في الدولة الفاطمية أو دولة الموحدين .

لهذا ، فإن « النزعة البربرية » ، مبدأ التجزئة الاستعمارية ، الذي قدم في شكل حلقات « قبائلية » معارضة للعرب ، أو حلقات « تنسكية » ضد حلقات « العلماء » لم يتعد نجاحها تشكيل حلقة « فرنسية ـ مسلمة » للقضاء على نمو الشعور القومي الوحدوي .

وقد فشلت ايضاً النزعة البربرية بمظهرها السياسي في تشكيل « الحزب

الشعبي القبائلي » ، رغم انه كان يفصح عن رغبة مشكورة بخلق معارضة منظمة للقيادة المصالية في « حزب الشعب الجزائري . »

ان الأمانة للغة الضاد ، الحرف الأبجدي الذي لا يوجد إلا في اللغتين العربية والقبائلية ، هي الرفض العنيد لكل « فَرْنَسة » ، وهي عدم تفسخ الجزائر ؛ عدم تفسخ فرديتها ، وشخصيتها وقوميتها . إنها التعبير عن الوطنية الأنقى . ولقد أعطى على ذلك ، عام ١٩٢١ ، المثال الاكثر صفاء وروعة ، إخواننا في لبنان ، الآباء العرب ـ المسيحيون ، حين هددوا الفاتيكان بالتخلي عن الكنيسة الرومانية ، اذا تمسك البابا بمشروعه الرامي الى استعمال اللغة اللاتينية في الترتيل ، بدل اللغة العربية .

هذا لا يعني اننا نحتقر لغة فولتير وجوريس وإليوارد . الحديث المشهور يمنع ذلك علينا : « اطلبوا العلم ولو في الصين . » بل على العكس ، فنحن لأننا نحب اللغة الفرنسية ـ لقد سرقناها بمعنى الكلمة الحرفي من الاستعمارية الظلاميّة ـ نقذف الى النار باللغة السائرة عندنا ـ هذا المزيج الهجين المموم من هنا وهناك .

* * *

لم تكن القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري تدرك ان بإمكان الثوري الحديث ان يدرس ، في آن واحد ، القرآن والماركسية ونزعة النقد التجريبي .

لقد كان الاستعمار اكثر ذكاء حينما اختبر انه لا يمكن فصل الدين عن السياسة دون تهديد الاستقرار بنظام حكم مطلق .

وقد رفض ، بوقاحة كلية ، ان يطبّق النصوص الديموقراطية في قانون الجزائر عام ١٩٤٧ ، التي تعهدت بموجبه فرنسا بضمان حرية العبادة الإسلامية وتعليم اللغة العربية .

لم تكن كاترين الثانية الروسية تجهل تأثير هذه القوة الجذابة على النفوس حينما تطاولت على سلطة البابا بيوس السادس ، فجددت الابرشيات ، وأنشأت كرسياً أسقفياً عُهد به الى كاهن بسيط يمارس السلطة على جميع الكاثوليك في دولتها . لم تكن تجهل ايضاً تواشج الاسلام والحياة الاجتماعية ، حين أعلنت الحرب على

دين محمد ، الذي تمارسه بحماسة شعوب آسيا الوسطى .

ولم يكن لينين يحتقر العقيدة الاسلاميـة ، إذ ان العمل الاول الذي قـام به بعد سحق القيصرية ، والإعلان الى شعوب الشرق، هو إعادته الى جامع بُخارى أو سمرقند ، أثراً دينياً عزيزاً على قلوب المسلمين من بكين الى الرباط . وهـذا الاثر مخطوط نادر جداً أخذته كاترين ووضعته في احد متاحف موسكو : وهو نسخة قرآن الخليفة عثمان ، وما تزال حاملة آثار دمـه الذي تدفق حينما اغتيل وهو يقرأ فيها .

ترجع القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري ، في تحـديد موقفها من الدين ، الى الشيوعيين الفرنسيين الذين ورثوا اللاإكليروسية اليعقوبية حـين أغلقت الأديرة لفشلها في تحويل الكنيسة الرومانية الى كنيسة قومية . وتـكاد منشورات الحزب الشيوعي الفرنسي ان تكون وحدها مصدر ثقافة الشيوعيين في الجزائر . فـإن قواد الحزب الشيوعي الجزائري ، المتـأثرين بالانحـراف الإيديولوجي للأرستقراطية العمالية الاوروبية ، وبالكسل العقـلي ، وبالتقليد الآلي ، ينسخون رأي جريدة « الاومانيته » ، المعادية دائمـاً لرجـال الكنيسة الـكاثوليكية في فرنسا وفي الديموقراطيات الشعبية . وهم لا يلاحظون عند هذه الجريدة الباريسية ، موقفاً مغايراً ومراعياً بالنسبة لآباء الكنيسة الارثوذكسية .

هذا الموقف المرن هو كذلك اكثر مرونة ، وأكـثر تنوعاً وواقعية ، عند الحزب الشيوعي الايطالي الذي سمح لنوابه ان يصوّتوا للكونكوردا . وهـذا موقف لم يكن يفهمه الحزب الشيوعي الفرنسي ، والوضع السياسي الديني يختلف في فرنسا عنه في إيطاليا .

ومع ذلك ، فان الدين ، حتى في فرنسا ، لم يُنقد دائماً بشكل شامل ، بـل بشكل جازم . ولم تتخذ الصيغة الماركسية : « أفيون الشعب » مظهـر النقد المدقق ، كما يُظن خطأ . وقد لاحظ الثوريون ، من جهتهـم ، والموسوعيون الفرق بين « نزعة الزهـد » و « نزعة الإصلاح » التي كانت تقسم المسيحية في اوروبا . إذ ان هناك ايديولوجيا دينية لعبت، في الفـترة التي سبقت الرأسمالية،

دور الفلسفة التقدمية ودور الخميرة الثورية .

حركة الإصلاح ، مثلاً .

كان هدفها ان تعيد الكنيسة الكاثوليكية الى الطهارة البدائية . مثل الاسلامية التي طهّرت الاسلام من الشرك ، مذهب القديسين الذين يُعبدون كشركاء لله .

كانت حركة الاصلاح عاملاً ثقافياً في تطويرها النزعة الانسانية والافكار الجديدة . مثل الاسلامية التي قدمت رؤيا حديثة عن العالم بقضائها على التطرّف في التقوى ، وهو تطرّف عازل : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب[1] . »

وقد شجعت حركة الإصلاح، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، في مشاركتها لتعزيز البورجوازية في كفاحها ضد الاقطاعيين ، من اجل الإصلاح الزراعي عن طريق مصادرة أملاك الكنيسة ، ومن اجل التصنيع وظهور الرأسمالية التي كانت ، آنذاك ، قوة تقدمية .

هذا شأن الحركة الاصلاحية . فحين قضت على التعصبية الزهدية ، أثرت على السلطة الاستعمارية والملكية العقارية الكبيرة . كانت تشجع القوى الجديدة ، البورجوازية والبروليتاريا الوطنيتين ، في رسالتها لقيادة الفلاحين الفقراء . وكانت تفسد عملية الحجر على العقيدة الشيوعية في العائلة الفلسفية القومية .

وكان الوعي القومي ، في قرنه فكرة الوطن بالعروبة وبالاسلام الذي عاد عاملاً من عوامل التقدم، ينمو ويزداد سمواً وقوة. كان المناخ ملائماً لكي يكتمل نضج جنود الله .

لهذا كان فشل إيديولوجيا التنسك والزهد يهيىء الفشل الايديولوجي للحركة الاصلاحية ، وانتصار الايديولوجيا القومية ـ الثورية .

كان الشعب الجزائري يوّلي وجهه قبل كوكب الجهاد الحديث ، قبل ان يجتاز ، وراء جنود الوطن ، طريق الرجال الأحرار !

---

١ ـ القرآن ، سورة البقرة ، آية ١٧٦ .

أيّامُ الشؤمِ في تاريخ العالم

يذكر كثير من الجزائريين المحاضرة القيمة التي ألقاها « روجيه غـارودي » في قاعة « بورد » ، عام ١٩٤٦ ، عن الحضارة العربية . كانت تعبيراً عن تقدير مكانة الجزائريين الذين يرفضون وضعهم كمستعمَرين .

وقد سكت ، لانضباطه النظامي ، عن اعتقاد شخصي بكيفية تقييم بعض المراحل التاريخية . ذلك ان « أندريه مـارتي » ، أحد المسؤولــين آنذاك في الحزب الشيوعي الفرنسي والسكرتير السابق لمنظمة « الشيوعي العالمي » ، كان قد اطلع على مسودة المحاضرة عام ١٩٤٣ أو ١٩٤٤ ، واعتبر رأيه في معركة « بواتييه » فرضية لا تُقبل لأن فيها مضموناً دينياً .

لم يكن آندريه مارتي الذي أصبح نائب « آلبي » يقدر ان يفتخر بوجهـة نظر أفسدتها أفـكار مسبقة مجذّرة في الأدمغة منذ الطفولة .

إن مؤرخاً يحترم نفسه لا يتردد ، لأسباب مغايرة ، في الدفاع عن الرومانية ممجداً القيصر الذي انتصر على الوطني « فيرسانجيتوريكس » ، وقتـله بعد ان سجنت ست سنوات في روما « الباسلة » . إن كاتباً معارضاً ليعترف بعجزه عن استئصال هذا « الجذر الروماني » الذي يضفي عليه العالم « مظهراً علميـاً حاسماً يخيف حقاً[١] » .

---

١ ــ كاركو بينو ، كما يراه أندريه فونتين ، « اللوموند » ، ١١ ــ ٣ ــ ٦١ .

هل ينبغي إذن ان نقبل هذه العقيدة « المحمومة » كي لا نكون عرضة للسخرية بادعائنا الرسوخ في العلم ؟ كلا ، ببداهة . فذلك يؤدي في السياسة الى عكس للقيم لا يمكن قبوله .

سمى الاستعمار ملك موريتانيـا ، بوكوس ، باسم شارع جزائري في القصبة السفلى . لكن « جوكورثا » مجهول . هذا هو منطق الرومـانية . إن الملك بوكوس، حمو جوكورثا ُممجّد بخيانته المزدوجة : أسلم صهره فيرسانجيتوريكس المغربي الى أعدائه الرومان .

إذا كان المؤرخون الفرنسيون لا يتوصلون الى الاتفاق على الطريقة التي يجب اتباعها لتوزيع الشرف أو العار، فإنهم، بشكل عام، يحترمون الحقيقة التاريخية، نسبياً . غير ان الشوفينية ملك متعصب حينما يتعلق الأمر بسرد الاحـداث التي تعارض الصليب بالهلال .

طبيعي أننا لا نشير الى الكتب المدرسية للتعليـم الرسمي حيث يكشف كل ما يتصل بالعروبة ــ الإسلام عن النية السيئة وعن التهويل . إننـا نتحدث عن دراسات علمية كتبها أخصّائيون مشهورون برصانتهم .

وتحليل « ضياء العصر الوسيط » خير برهان على ان تدوين التسامح في القانون هو اكثر سهولة من تطبيقه وجعله تقليداً عاماً. مؤلفه، غوستاف كوهين، الاستاذ في السوربون ، أمين على روح الـكلية الـكاثوليكية القديمة للآلهيات ، مما يتيح له الاعتقاد بأنه فوق القانون التاريخي العام . والحق انه يتقلب بـــبراعة في شرح « التأثير اليهودي ــ العربي » في « نشوء اللغـة للفرنسية والأدب الفرنسي » ، إذ لا يتحدث إلا عن مصادر « شرقية » ، يعني بها دلالتهـــا الجغرافية : سوريا ، فلسطين ، مصر ، قبرص، رودس. وينسى ان يشير الى التأثير العربي ــ اليهودي ذي المنابع « الغربية » في إسبانيا المسلمة . سنرى السبب في ذلك .

يمكن القول إن هذا النوع من البحث يهـمّ « نوعاً اختصاصياً » آخر ، هو اختصاص المهتمين بدراسة الحضارة الاسبانية او العربية .

غير ان الدراسة الجزئية لفـــترة تاريخيـــة معينة لا تكفي لـكي يصبح

الاختصاصي « كذاباً موثوقاً » ؛ ذلك ان الاهمال هنا يُفصح عن نفسه بمهـــارة يُشتبه فيها بدعوتها الى اعتبار مسلكية شارلمان مسلكية مثالية . النزاهة العلمية الظاهرة تخفي معرفة بأخبار القديسين تُراعي « البربري الجرماني الكبير » .

لنتابع ، مثلاً ، النظرية الملتوية في الاغاني الكبيرةالتعبيرية بتسليطنا الضوء المتواضع لمنارتنا على إحدى الذروات : أغنية رولانـد ، التي يصفها السيد غ . كوهين بقوله : « ينبغي ان نحمد الله وتورولد ، الذي ألهمه ، فأعطانا ، في فجر أدبنا ، ولما يتكون مفهوم مملكـــة فرنسا ، قصيدة تتجلى فيها بأرسخ شكل وبرؤيا العبقرية الخلاقة ، روحُ الوطن المقبل[١] » .

كان هذا التمجيد القومي يصير حقاً لو أنه يمتلك صدق الروح المحـاربة التي كانت تحرك « جوانفيل » ، مؤرخ الحروب الصليبية وجدّ المراسلين الحربيين .

إنه ، لسوء الحظ ، يظهر كدراسة نقدية للحقيقة الادبية المرتبطة بالواقـع الاجتماعي والتـــاريخي . « كيف نفسر ان يُمجـّد شارلمـان ويؤلـه تقريباً في « أغنية رولاند » ، حيث يوقف الله ، من أجله ، الشمس ويمنحه أصفى الرؤى السماوية ، وان يصبح في مكان آخر ، « تتويج لويس » أو « حج شارلمـان » ، دمية مضحكة[٢] » .

ليس السيد كوهين مسروراً . لقد درس باحتقار هذه الأشعـار التي تتضمن عنصراً هزلياً « تنتقد حتى الامبراطور العظيم نفسه لتسلية الجماهير . » إنـه لا يتصور لحظة واحدة أن هذه الحساسية الشعريـة ستظهر فيما بعد عند رابليـــه وفينلون. على نقيض ذلك ، يتخلى هذا العـــالم اللغوي عن الدراسة الاساسية ، دراسة قيمة النص ، لـكي يخوض غمار التفسير التاريخي في علاقته مع خصائص الملكية .

لا يقول لنا اذا كان « حج شارلمان » أثراً فنياً . غــير ان النقد ذو نزعـة

---

١ ـ غوستاف كوهين ، « ضياء العصر الوسيط » ، باريس ١٩٤٥ ، ص ٦٤ .

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

اجتماعية وهو يجبرنا ان نختار ، بفعل شرطي منعكس ، بـين الاتجاه المسمّى ملكياً في « أغنية رولاند » أعني التطور الطبيعي ، والاتجاه المسمّى إقطاعياً في القصيدة اللا ّجرمانية ، أعني البربرية التي تلجم التقدم وتعوق الوحدة الفرنسية .

ليس بهذه السرعة ! إن مظهر تطور المجتمع أكثر تباطؤاً واكثر رهافة وتعقداً . هذه النظرة التبسيطية تقتضي قفزة الى الامام في زمان يقدّر على الأقل بخمسة قرون .

أن نعتبر « أغنية رولاند » إيديولوجيا تقدمية وقتَ لم تكن المدنية تجاوزت « الماسيف سنترال » ، مضحك تماماً كاعتبارنا رقصة البطن تفسيراً فلسفياً لطرح الحجاب وتحرر المرأة الكلي .

يستطيع منتج سينمائي ان يعرض فيلماً بشكل بطيء ، أو يزيد في سرعة عرضه العادية ، وفق هواه . لكن المؤرخ لا يجوز له ان يفعل ذلك .

والحق ان شارلمان ، رغم جهوده لترسيخ السلطة المركزية ، لم يكن يمثل « النزعة الملكية » التي كانت تكمن وراء الشعور « القومي » . كان ، على العكس ، يعبّر عن النزعة « الأمبريالية » التي تهدم الأوطان . ألم يُعلن الحرب الدائمة لكي يفتتح بلداناً جديدة ، وعلى الأخص ، ضد ساكسون جرمانيا ، ولومبارديي إيطاليا ، والباشك في أوسكاريا[1] والسارازانيين[2] في الاندلس ؟

ألم تتهدم ، من جهة أخرى ، بغياب شارلمان الامبراطورية المتعددة الأجناس بتجزؤها وانقسامها ؟ حينذاك ابتدأ النظام الاقطاعي الحقيقي : لم تكن سلطة الملك تتعدى مساحة « جلد حصان » حيث كان السيد في الوقت ذاته . إذن لم تولد النزعة « الملكية » التي انتهت الى السيطرة على الإقطاعيين المنهارين ، إلا بعد سقوط سلالة شارلمان بفترة طويلة .

---

١ — Euskarie ، وهي عبارة عن المنطقة الواقعة على سفوح البيرنيه من جهتي فرنسا واسبانيا .

٢ — اسم أطلق ، في العصر الوسيط ، على العرب الذين احتلوا أفريقيا واوروبا .

في رأينا ان فرق النغمة بين « أغنية رولاند » و « حج شارلمان » يعبّر بالأحرى عن انقسام العالم الغالي – الروماني الى مجتمعين متمايزين ، جغرافياً ، ولغوياً ، وثقافياً ، ومستوى حضارياً .

في الشمال ، المجتمع الذي محا فيه الفاتحون ، بغريزتهم الخشنة ، كل أثر للثقافة في الغرب . وفي الجنوب ، المجتمع المنفتح على مختلف تيارات الحضارة المتوسطة.

ثم إن ما لا يريد ان يعترف به عالمنا الحصيف ، هو قيام حقد متبادل بين المجتمعين ساعدت في تقويته غزوات البربرية النوردية وفظاظتها .

لكن هدفه واضح . ينبغي تجريم المشوّهين الذين يحولون دون تطويب شارلمان البربري .

هذه الطريقة الفاشلة تسمح ايضاً بترسيخ وهْم باطل يكرر دون هوادة منذ ألف سنة !

هكذا تبقى أسطورة رولاند « المؤمن الذي وهب روحه لله » ، في ذهن القارىء ملحمة مسيحي صالح يتابع الحرب الصليبية المحمومة بكراهية العرب – حرب شارل مارتيل – .

إن ستر كذبة كهذه ، عند مفكر موسوعي ، أشبه بلصق خرقة شنيعة على رداء كليو ، إلهة الملحمة والتاريخ .

والحق ان معركة « رونسيفو » لم تكن مطلقاً صورة « الإيبينال » حيث انتصر الفرنسيون ، بضربات السيف والمآثر الاسطورية « التي أزرت بالعرب المسلمين الفاتحين » وبقوة أسلحتهم وبسالتهم ، لواحد ضد مئة حين لم يكن لواحد ضد الف .

الواقع أكثر قبحاً . فإن « ابن أخ » شارلمان ليس شهيد الإيمان المسيحي ، وإنما هو جندي غريب ، عاقبه مسيحيون يدافعون عن وطنهم . ولم تكن معركة رونسيفو إلا مرحلة من حرب السلب والنهب القاسية ، التي لا ترحم ، والتي أعلنها البربري النوردي على الشعوب المسيحية في اوسكاريا .

واذا لم تكن معركة رونسيفو حرباً دينية بين المسلمين والمسيحيين ، فهي إذن

حرب جائرة من ناحية شارلمان وحرب عادلة من ناحية الشعب الباسكي .

المسألة إذن هي مسألة اكبر خديعة مخزية في التاريخ !

أليست هذه ظاهرة ضد « طبيعة الاشياء » ? شارلمان القديس « يزعج » نفسه للقيام بحملة كبيرة ضد المغاربة الهرطوقيين ، وهذا هو شعب مسيحي « يثأر » (!) طاعناً من الخلف « المحرّر » الجرماني – الكاثوليكي .

ولكي نجد حل هذه الأحجية ، ينبغي إيراد وقائع « غير مستحبة » قد تؤدي الى :

١ – تثبيط الرأي العام اذ تجرح الاعتداد الوطني – المسيحي ؛

٢ – تهديم الفكرة الثابتة المسبقة السياسية – العرقية عند الاستعمار إذ يصدق ما قاله أندريه جيد : « إن التقليل من شأن العدو لا يؤدي إلّا الى إذلال المنتصر » .

الكلام على هذا الحلف الغريب بين المسلمين والمسيحيين ضد العدو المشترك ، « الامبراطور ذي اللحية المزخرفة » ، هو تذكر الطبيعة الحقيقية للعاهة الثانية في النوع الإنساني ، التي تجمد أهوالُها الدم بمجرد الذكرى . وهو ، على الأخص، إفشاء سر « لا تلمسيني[1] » . والحق ان الكشف عن وجود تحالف سياسي – عسكري بين العرب المسلمين ، وشعوب الباسك، هو تعرية البربري الجرماني من رداء الفضيلة .

أكثر من ذلك . فضحُ هذا السر الاول هو تهور في وضع اليد على « بوسوه لا تمسوه » ، هذه النبتة التي تنفجر بذورها وتتبعثر لأقل لمسة . وهو توليد سلسلة من ردود الأفعال ، تهتك العمليات السرية في الغرفة الاستعمارية السوداء .

إن اكتشاف اسرار اخرى يصبح ميسوراً حتى على غير المريدين .

كانت أسطورة « اغنية رولاند » ضباباً بسيكولوجياً يقتل حتى ذكرى

---

١ – الكلمة التي قالها السيد المسيح لمريم المجدلية (انجيل القديس يوحنا : ٢٠ ، ١٧) وهي تقال حينما يحكى عن شيء يمنع دين معين من لمسه .

هذا العمل السامي : لم يعبر المسلمون العرب جبال البيرينه كمحتلين ، بل عبروه ليلبوا اولاً نداء النجدة ، الذي أطلقه جيرانهم ، مسيحيو بلاد الباسك .

إن كشف الصفة العميقة لمعركة رونسيفو ، يؤكد ان روح الفروسية عند صلاح الدين ليست خاصية النبل الشخصي النادر ، بل اساس الأخلاق السامية في الاسلام .

لقد دُهش المستشرق الفرنسي إدوار مونتيه من « الخاصية القومية في عقيدة القرآن . » وهو يشير الى صوابية ما ورد في كتاب عن الحياة الشرقية المتنقلة ، صدر في باريس عام ١٩٢٦ ، للكاتب ر. دي تريز – إذ يقول : « الإسلام ، إن كان فهمي له صحيحاً ، يقبل الانسان ، بينما المسيحية تجادله. الإسلام طبيعي وعملي. إنه لا يدفع ، إلا استثناء ، الى القداسة؛ فهو يقنع بفضائل الحد الوسط . وهو لا يدعي، شأن المسيحية، أنه يلقي الثورة في العالم؛ بل إنه ، على العكس ، يكمل الشريعة ويكرّس الواقع[1] » .

إن التضامن الإسلامي ـ المسيحي ضد المعتدي يلقي ضوءاً ساطعاً على هذه الثورة العقلية التي لم يكن يفهمها الاوروبي آنذاك : حرية المعتقد للفرد والتسامح الديني للشعب !

لا إكراه : « لكم دينكم ولي دين[2] » .

نجد البرهان على هذا المبدأ الاساسي من مبادىء المجتمع الإسلامي في الحرية التي تركت للمسيحيين بنشر دينهم دون عائق ، وبناء كنائسهم . هذا التسامح ولّد المذهب الذيقال به نصارى الاندلس وهومزيج من ثلاث دياناتتوحيدية، ويؤمن به مسيحيو طليطلة . وفي الطرف الآخر من اوروبا ، بين شراكسة القوقاز ، بقيت القبائل التي أسلمت في « كباراتاي » تربي الخنازير حتى القرن السابع عشر[3] .

١ ــ ادوار مونتيه ، ترجمة القرآن ، باريس ١٩٤٤ ، ص ٢١٤ .
٢ ــ سورة الكافرون ، آية ٦ .
٣ ــ الانسيكلوبيديا الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، الجزء الثاني .

نجده ايضاً في قوة الجاذبية التي كانت تغذي ميل الاوكسيتانيين الى العرب المسلمين مستفيدين من مشاعرهم المعادية للطغيان ومزايا شيوخ العلم عندهم .

وفي العام الألف ، حين اعتلى سدة البابوية جيربرت اوريلاك ، باسم سيلفيستر الثاني ، أدهش المسيحية بـ « علمه المحيط » الذي وفره له اساتذته العرب المسلمون في الأندلس المضيافة .

السنونو الواحدة لا تصنع الربيع ؟ هذا أكيد . لكن واقعاً كهذا لم يكن ممكناً ، لو كان التعصب الديني قاعدة السلطة .

كانت سلالة جنكيز خان قبل ان تترك البوذية وتعتنق الاسلام تضطهد المؤمنين في مونغوليا . كان اسم تشاغاتاي بنوع خاص كريهاً . فقد كان يقضي بعقوبات قاسية على الذين يخالفون الشريعة المنغولية التي تحرّم قتل حيوان بقطع عنقه ، كما تقول الشريعة القرآنية .

ولو أن السيد غوستاف كوهين الأخصائي في دراسة العصر الوسيط استطاع ان يتصفح « تاريخ الباباوات » المنشور في عهد نابوليون ، لكان رأى حكايات عديدة عن هذا العصر . مثلاً : في استقبال أقيم للبابا ، لمناسبة مروره في مونبيلييه ، جلس الى يمينه ، حسب الأصول البروتوكولية ، قنصل مسلم لأنه كان أكثر الحضور ثقافة .

مثل آخر : تروى بعد موت شارل مارتل هذه الحكاية المعبّرة – حين أعيد فتح قبره ُعثر على أفعى تنهش لسانه !

هذا الإيمان يذكّر ، بالأخص ، العذاب الأكبر ، عقاب القبر حيث ُتعذّب الشريرَ أفعى من النار تنهشه إلى يوم القيامة .

لقد أعاد الاسلام المحرّر الأرضَ التي اغتُصبت من عبيد أفريقيا الذين جرّدوا من املاكهم . كانت سياسته الاقتصادية القائمة على التجارة الواسعة الدولية تحتاج الى انعتاق الفلاحين والى الإصلاح الزراعي . لهذا قبل النبلاء والبورجوازيون في جنوبي البلاد التي سميت فرنسا فيما بعد وجود عقيدة تحضن بطبيعتها قابلية الكمال التي كانت تذكّر بالوداعة الفينيقية .

لماذا يُخفي الاستعماريون ، مؤرخين ومشرّعين ، الذين ينكرون وحدة الشعب الجزائري ، فيجزئونه على الورق الى عرب وقبائليين – لماذا يخفون « بربريّتهم السفاكة » ؟ ألا تتجلى حتى أيامنا هذه في استعادة اللغة القديمة : اللّانغدوكية ، والبروفنسالية ، والغاسكونية ، والكاتالانية ، والأوفيرنية[١] ؟ « إن في « بايون » عاصمة بلاد الباسك ، وراء أسوارها ، متحفاً غنياً بالألبسة والوثائق والمخلفات التي تكشف روح ووجه شعب لم يرض إطلاقاً ان يتخلى عن لغته التي لا تُعرف أبداً أصولها الحقيقية .. إن بلاد الباسك « كلّ » مجموعة » من التقاليد والطبيعة والسكان الذين يتشابهون لمجرّد أنهم يمتون لجنس واحد ، جنس قوي ، راسخ ، باق[٢] .

لماذا يعكس تيودور أوبانيل في ديوانه الإقليمي « Lou Reire Saleu » بحنين ، التأثير المغربي في غنائه لمسقط رأسه ، لشمسه ، وقمحه الأسود ؟

نحّس ان هذا الشاعر الذي أحيا الشعر الإقليمي يصف ابطاله اعتماداً على النماذج الواقعية التي تجمعت في احد اعياد الكونت دي تولوز ، شقيق زوجة ملك عربي ، او في احد الاستقبالات التي أُقيمت في قصر صلاح الدين ، حينما عرض ريشار قلب الاسد أخته حنّة ، لكي تكون زوجة للأمير سعد الدين شقيق السلطان ، وان يكون مهرها مملكة القدس .

« كبير اسمر كأمير مغربي[٣] ... نحوه تلتفت اجمل العيون ، والنساء يتنهدن ، بين ذراعيه ، راعشات أكثر مما ترتعش روح الكمان . بلطافة الشرق ومغنية مغربية غضة كالندى والصباح ، تراءت وعبرت أمامي . »

وفي مكان آخر : « وحين يراك المغاربة هنالك ، أيتها الفتاة البالغة النعومة ... »

---

١ – هذه الكلمات منسوبة الى مقاطعات فرنسية قديمة .

٢ – اللوموند ، ١٤ آذار ١٩٦١ .

٣ – أي عربي . فالمغربي كالاسماعيلي Sarrasin اسم يطلق على العربي الذي احتل اسبانيا في العصر الوسيط ، وأفريقيا .

« ... الزوج اسمر كالتوت : والأرض السوداء تأتي بالقمح الطيب ! لم يسافر من اجل زواجه ، ليبحث عن زوجة في باريس ، فالفتى حكيم ، انه يبني بأحجار البلد[1] . »

هوذا حكم قومي بالغ الغرابة ضد الزواج المختلط يذكّر بحكم الشيخ العربي التيبازي . لكننا نعتقد ان رئيس العلماء كمؤلف « الرمانة المشقوقة » ليسا عنصريين : إنهما يعبّران عن شعور وطني ضيق ، ولكنه صادق مخلص .

هذا الحكم يوضح القطيعة بين تيودور أوبانيل وصديقه القديم فريدريك ميسترال الذي أصبح « مرتداً » عندما قبل ان يتلقى وسام الشرف وينشد المارسيّيز الى جانب وزير في حكومة فرانكايماندية . ومع انه اتهّم علنياً « بالانفصالية » ، فقد تنكر لحلمه القديم الغاريبالدي : ان يفرض على فرنسا واسبانيا القبول بإنشاء « إمبراطوريةالشمس » هذه ، المبنية على وحدة مرسيليا وتولوز وبرشلونة[2] . »

يروي ميسترال ، من جهته ، قصة مثيرة فيما يتعلق بموضوع الإحياء المشين لذكرى أحد مشيري فرنسا ، الذي اغتيل اثناء اضطرابات شعبية في أفينيون ، عام ١٨١٥ . وألفونس دوديه ، مؤلف « تارتاران دي تاراسكون » هو بطل القصة : « ومرة أخرى ، على الجسر الذي يوصل أفينيون بجزيرة باتلاس ، كان يصرخ : « إننا من هنا ، يا جذع الهواء ، ألقينا في الرون ، جثة برون ؛ بلى ، جثة الماريشال برون ! وليكن هذا مثلاً للفرانكيماند والألاّبروج[3] الذين يعودون لإزعاجنا[4] . »

نستطيع ان نذكر أمثلة ثانية غريبة ومرَضية . يتحدث ميسترال ، فيما

---

١ ـ تيودور أوبانيل ، « شمس ما وراء القبر » ، منشورات أوبانيل ، آفينيون .

٢ ـ اوروبا ، مجلة شهرية ، باريس – نيسان ١٩٥٩ ، ص ٣٤ .

٣ ـ Alloliroges , Franchimando هم سكان الدوفيني وسكان السافوا ، زمن القيصر .

٤ ـ ف. ميسترال .

يتعلق بالطب ، عن « الترياق » ، « الدواء الأعظم المصنوع من دهن الأفعى » ، والذي استعمله « تريا كلور البندقي ».

لنشرْ الى ان كلمة ترياق المجلوبة في آن واحد من البندقية والقدس تعني على وجه الدقة ، شيئاً يناقض السمّ . وكثيراً ما ذكر العرب اسمه وعلاجه .

واضح أن مصدر الطب في العصر الوسيط ، بالنسبة للسيد كوهين ، هو غاليان اليوناني . هذا صحيح ، لكن ، جزئياً ، فقط .

هذا يستدعي ملاحظتين لا غنى عنهما . يجب أولاً ان نتذكر العبارة اللاتينية التي كانت تقول : « هذا يوناني ، لا يُفهم . » ولهذا كان النسّاخ في العصر الوسيط ، لجهلهم وتعصبهم ، يرفضون نقل الكلمات اليونانية التي يصادفونها في المخطوطات . هذا يعني ان العرب كانوا يمتازون باحترام كلّ علم حتى لو كان هرطوقياً . وبفضل العرب عُرف اليونان .

والملاحظة الثانية هي ان العرب قاموا بأعمال لا سابق لها . وفي القرن الحادي عشر ، زوّدت مدرسة ساليرن الطبية ، « الفقيرة في الأبحاث الطبية باللغة اللاتينية » بكتب الطب العربي التي أخذها من تونس يهودي متنصّر ، مترجمة وموقعة باسمه كما لو انه هو الذي ألفها . ولكم يصدق في هذا الصدد قول أوفيد : « أرى الخير وأستحسنه ، لكنني أفعل الشر[1] » .

أما بالنسبة لاحترام المرأة ...

يقول[2] : « الحب اكتشاف كبير في العصر الوسيط وعلى الخصوص في القرن الثاني عشر الفرنسي . »

كيف يمكن ان نجهل أن الحب الغزلي عند المطربين – الجوّالين هو في اوروبا ابتكار عربي -- أندلسي في القرن الثامن ، نبع من روعة البلاط القرطبي وفتنة حمراء غرناطة ؟ لماذا نغلق عيوننا مخبئين ضوء الشمس بغربال ، حين يدل هذا

---

١ ـ أوفيد ، التحولات ، ٧ ، ٢ .

٢ ـ غ. كوهين ، ص ٨٥ .

الغربال ذاته على ان الكلمة الاقليمية Trobar أي الشعر الغنـــائي ، هي اخت الكلمة العربية طرب، أي الشعور بالفرح والحزن، والابتهاج بالغناء والموسيقى .

كيف يمكن ان نجهل في القرن العشرين ان الحب العفيف دون « حزام عفة » ليس « اكتشاف القرن الثاني عشر الفرنسي » ، لأنـــه كان موجوداً حتى قبل ظهوره في قرطبة بحوالي أربعة قرون ؟

أضف الى ذلك ان شعر الحب هو إبداع عربي في الجاهلية قبل الإسلام . بين مجنون ليلى ، الذي أثـّر في نشأة الدراما الغنائية ، و « تريستان وإيزولت » الدراما الغنائية التي كتبها فاغنر ، اكثر من اثني عشر قرناً .

ولا عجب في ذلك . فلقد كان المجتمع الاسلامي اكـــثر المجتمعات تقدماً ، واكثرها تذوقاً للأدب والفنون الجميلة ، واكثرها مدنية .

كان لا بد للغزل ان يزدهرطبيعياً في اللطافة التي تولـّدت من الوحدة المتآلفة بين عبقرية القرآن الذي أشاد بالمرأة ، والرقة الساحرة في ألف ليلة وليلة .

والحق ان من يعرف عن الإسلام ، ولو شيئاً قليلاً ، يمكنـه ان يكتشف في النصوص المقدسة او الدنيوية مصدراً مزدوجاً لإيحاء الأدب الفروسي . فلقـــد عرف الخلق الاسلامي ان يخلق ، بين التقشف الصارم والخـــلاعة ، التوازن المنسجم الذي يتجلى جماله في هذه الدعوة الى الاعتدال : « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون[١] » .

كيف يمكن ان نجهل فيالقرن العشرين ان ربيع انعتاق بنات حواء متواقت مع فجر الإسلام ؟

الإسلام ، فيما عدا مرحلة نظام الأمومة ، فيما قبـــل التاريخ ، حيث كانت المرأة تتمتع بسلطة متفوقة ، هو البادىء الاول بإعادة تحريرها حيث خلصهـــا من حالة الدونيـّة القديمة التي كانت تنوء تحت اثقالها .

إن المجتمع الإسلامي ، القـــائم على اقتصاد تجـــاري حر ، حرر المرأة من

---

١ ــ القرآن ، سورة النساء ، آية ٤٣ .

الوصاية الزوجية ، وأعطاها الحق في ان تدير مباشرة وشخصياً املاكها وإرثها . ولكي نقدّر المضمون الثوري في هذا الموقف ، نذكر بأن هذا الحق لم تمنحه للمرأة الفرنسية الجمهورية الخامسة ، على الرغم من مرور ثلاثة عشر قرناً[1] .

وحرمان المرأة القبائلية من حق الإرث؟ يجد فيه الاستعماريون «المتبربرون» دليلاً على « الفتور » الإسلامي و « الموقف المعادي » للعرب لدى سكان جبل الجرجورة .

مرة ثانية ، لنفضح هذه المزاعم التي ينشرها اعداء الإسلام والشعب الجزائري . فالواقع التاريخي يناقضها .

الواقع ان المرأة القبائلية كانت ترث وفاقاً للشريعة الإسلامية . لكنها حرمت هذا الحق بقانون عرفي على أثر حدث سياسي زعزع التناسق الوظيفي في الحياة الاجتماعية .

هل هذا غريب ؟ لنشرح هذه الظاهرة من جديد . إنها تدلّل على أن الأفكار والعادات تتغير بتغير الشروط المادية ، وهي العامل الأكثر حتمية .

لم يعش سكان جبال الجرجورة في إطار مغلق قط . كانوا من الكثرة بحيث نزحوا من هذه الجبال ليعيشوا في مدينة الجزائر ، عمالاً او تجاراً ؛ او ليبحروا في مراكب الغزو والصيد حيث برعوا كربابنة شجعان « كسوركوف » بارون الامبراطورية . وفي حالة الفشل، لم يكن بحارتنا الذين يقعون في الأسر الاسباني يتركون أثراً ما او يعودون . وكانت الجمهورية العسكرية الجزائرية تسمح مع ذلك للكهنة بزيارة السجناء المسيحيين ، وتأمين العبادة في السجون البحرية ، وفدية العبيد .

وكان يسمح لزوجات البحارة القبائليين المفقودين بالزواج والتصرف الحر

---

١ ـ رفض مجلس الشيوخ المشروع الذي تبناه (على عجلة) مجلس النواب ، وقد تبنى مجلس الشيوخ بناء على اقتراح وزير العدل تعديلين قانونيين يتركان للزوج « إدارة الاملاك الخاصة بالمرأة » و « هي لا تقدر ان تتصرف بها تمام التصرف إلا برضا الزوج » (اللوموند ، ٦ ايار ١٩٦١) .

بممتلكاتهن والممتلكات العائدة الى الزوج المجاهد .

الحادث السياسي الذي كان لا بد ان يزعزع الاوضاع ، جرى في القرن السادس عشر أو السابع عشر : قررت الجزائر ومدريد ، قبل نشأة الصليب الأحمر الدولي ، تبادل أسرى الحرب البحرية .

وقد عاد الشهداء – الأحياء الذين كانوا قد اعتبروا امواتاً، الى قبائلهم حيث لم يستطيعوا العثور على زوجة أو بيت أو « مرقد عنزة » .

وولّدت عودة الذين « جاؤوا غصباً عنا » اضطرابات اجتماعية وخصومات قبلية ، او حروباً أهلية ، نظراً إلى نظام الزواج المعمول به في القبائل التي تسكن جبال الجرجورة .

وقد عقد العلماء ، في سبيل ايجاد التوازن بين العلاقات الاجتماعية الجديدة ، مجمعاً كونفيدير الياً ، للتشاور بمقتضى الشريعة الإسلامية من أجل البت في نقطة تشريعية ، دينية – مدنية – سياسية ، لم يرد شيء عنها في القرآن أو الحديث او السنّة . وقد اعتمد المجمع على ما تقره الشريعة وهو الاجماع . هكذا كان الحل المستند إلى الإجماع والقاضي بحرمان المرأة من الإرث وإلزام الورثاء الذكور بتعهد الأقارب حتى البعيدين منهم ، كما كان يفرض ذلك قانون الشرف في المجتمع القديم القائم على نظام الأبوة .

ومع تطور العادات بدا نزع الملكية مذلاً وظالماً . وقد جرت محاولات شخصية لتصحيح القانون العرفي بتعميم هبات الوصايا التي يأمر بها القرآن .

إن فعل الاسلام المعتق المحرر ينتصر بفضل الحماسة الديموقراطية المتوقدة دائماً في « الجبل الحديدي » العصي على الرومنة والفرنْسَة . فرغم حراب الاستعمار تنجح الأخلاق الاسلامية في الجزائر نجاحها في أفريقيا السوداء .

ليس القرآن أخلاقاً بلاغية خالصة . فإن الفرقان الذي يفصل بين الخير والشر، حصر نظام الزواج المتعدد بأربع زوجات ، كحد أقصى . إلا أنه ينصح بالزواج من امرأة واحدة فقط ، ذلك أن من يتزوج من نساء كثيرات لا يمكنه

أن يبقى عادلاً ودون تحيز[1]. وقد صان شرف الزوجة من العار بتشريع صارم: « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً . »[2] ،

ولأول مرة ، في تاريخ الحياة الاجتماعية ، يخضع الرجل للقانون نفسه الذي تخضع له المرأة التي تساويه في الحقوق[3] .

تحرير الأنثى من بربرية الذكر هو الموضوع الرئيسي في حياة شهرزاد الرمزية ، البطلة الباسلة الذكية ، التي سحرت بقصصها شهريار ، « الباوب – بلو » الشرقي الذي كان يقتل زوجاته واحدة إثر الثانية قبل شخصية « بيرولت » بحوالي ألف عام .

أليست قصص ألف ليلة وليلة ، الغريبة البطولية المليئة بالحنان ، تطريزاً أصلياً ، عربياً – فارسياً تحوّل فيه الحرير والفضة والذهب الى حب وغناء وكأس ؟

يتساءل الانسان كيف يمكن مؤرخ أخصائي في تاريخ الآداب ان يصرّ على تجاهله لوقائع عصر لا يُعرف جيداً إلا بها . لقد بدّلت نبالة الجنوب الجفاء الإقطاعي باللطف والمؤانسة من جراء احتكاكها بالحضارة المتوسطية – وفي المقام الأول ، بحضارة العرب المسلمين ، الأقرب إليهم ، أعني حضارة الأندلس العربية المسلمة .

الشخصية الأدبية التي تبنى بغاية العمل الوحيد الصّرف لسيطرة الثقافة الغربية ، قد تقود أسيرها الى ان يلعب دور جلاد الفكر الخلاق .

---

١ – « وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وإن خفتم الا تعدلوا فواحدة . » ، سورة النساء ، آية ٣ .

٢ – سورة النساء ، آية ١٥ .

٣ – « في حين يخضع الزاني والزانية للعقوبة نفسها في الشريعة الاسلامية (مئة جلدة لكل منهما) ، تجدر الملاحظة ان القانون الايطالي الحالي يعاقب الزانية بالسجن من سنة الى سنتين ، بينما الرجل لا تطاله أية عقوبة . ان الدستور الايطالي الذي يعلن مساواة المواطنين امام القانون يقبل بأن يعاقب الزانية ولا يعاقب الزاني . » (اللوموند ، ١٠ نوفمبر ١٩٦١) .

عندما يتعلق الامر بالعرب والاسلام يلتقي السيد كوهين المختص بدراسة العصر الوسيط بأخيه في الاستعمار، المختص بالعصر الوسيط في أفريقيا الشمالية. إن كتابه «ضياء العصر الوسيط» مليء بالجهل والتحيز مثل كتاب «قرون مظلمة في المغرب» للسيد غوتييه، الجغرافي – المؤرخ. هذان الكتابان مفروضان على الطلاب ككتابين كلاسيكيين في النقد المنصف، في حين انهما ليسا في الحقيقة غير دفاع خالص عن المسيحية يحاول ان يبرر الضغط الخارجي: ضغط الجرمان على الغوليين، وضغط الرومان على البربر.

هذا عمل نُفّذ بحسب تنوع الوسائل والأمزجة. الضابط المظلي يحرق مراكبه، صائحاً مثلاً: «ينبغي أن نبقي الجزائر فرنسية ولو فقدنا شرفنا.» و «الأكاديميون» كالخبثاء الذين يريدون أن يسبحوا ويحرسوا الثياب، يحاولون أن يضموا علم الأخلاق وعلم الجمال إلى النخاسة. مع هذا الفارق: السيد غوتييه يكذب ليزور التاريخ، أما السيد كوهين فيزور التاريخ لكي يجعله كاذباً.

هل ينبغي أن ندهش من تحليل معركة بواتييه وعرضها بحسب المذهب الحتمي كظاهرة ثابتة بالنسبة للمستقبل كيفما انتهى امر الحادثة؟

«لو بدلنا، نظرياً أيضاً، انتصار شارل مارتل في بواتييه بالفشل، فمن الجائز ان نتصور بلادنا وقد آمنت بدين محمد. لكن المسيحية كانت قد غرست فيها، في عام ٧٣٢، جذوراً بالغة العمق. ثم إن مثل إسبانيا يبين كيف أن الانتصارات الاسلامية في أوروبا بما يتعلق بالدين، لا تدوم طويلاً.»[١]

هذا دليل إضافي على البهلوانية التي طالما غررت بطلابنا الذين درسوا في الجامعة الاستعمارية.

هذا الكاتب المبرّز في دراسة العصر الوسيط يموه، شأن الحبّار الذي يفرز سائله الأسود ليغطي فراره، جزءاً من تاريخ فرنسا والعالم.

---

١ – غ. كوهين، المقدمة، ص ١٦.

وما دمنا لا نملك السلطة التي تخولنا استدعاءه أمام محكمة دينيـــة وإجباره على كشف وقائع يعرفهـــا ، فإننا سنحاول إيراد بعض الأمور التي قصد السكوت عنها :

١ — إن فصل « المادة الدينية » عن الاسلام الواحد الذي لا يتجزأ بحيث لا تنفصل الإلهيات عن الأخلاق والسياسة ، تشويه للواقع التاريخي .

٢ — القول بأن الاسلام قام على السيف، يمحو ظاهرة امتداد المساواة الدينية التي تذكر ديناميكيتها بالشيوعية المعاصرة التي لقبها فيلسوف فرنسي بـ « إسلام القرن العشرين » . ويقصد من هـذا ، التبرير ، المسبق ، للحروب الصليبيـــة الدينية — السياسية والغزو الاستعماري .

٣ — في إنــكار وجود فلسفة إنسانية ومدنية تجارية ، طمسٌ لكل مـــا قدمه عرب الأندلس خـــلال نصف قرن ، هؤلاء الزارعون الذين قدموا القمح الأسود والثقافة ، بالري ، والطب والصيدلة ، والفلك والهندسة ، وصناعـــة الحرير ، والصياغة ، والتسامح ، والتعايش السلمي .

٤ — في اعتبار معركة بواتييه مجرد صدمة دينية ، يلقى ستار النسيان على ماضٍ عظيم في جنوبي فرنسا ، هـذا المصب الذي امتزجت فيه تيـارات التقدم الإنساني ، التي نقلهـــا ، مباشرة أو مداورة ، عرب فينيقيـــا أو قرطاجة أو الأندلس .

أكيد أنه يسهل على « أغلف الأذنــين والقلب » ان يمحو المتن الأساسي ويختلق طرساً له مظهر المخطوطـة الصحيحة . وكم يصح في هذا الصدد المثـــل الجزائري القائل : « ما بينكر أصلو غير البغل . »

لكن كيف يُمحى ما نقش في أعماق نصف فرنسا ، في صلواته وفي اسمـــاء النجوم والسماء ، وفي مفرداتـــه ، واسماء أمكنته ، وأعـــلامه ، وفي شعره وأصوله ...

إن القرآن الكريم يذكرنا بالآيـة : « ومن يكسب إثماً فإنمـــا يكسبه على

نفسه[1] . »

هل كان يوم انتصار بربري* بواتييه علامة جيدة أو بلية عامة ؟ إن السيد غوستاف كوهين الذي تعميه عصبيته يتظاهر أنه لم ير فيها إلا معركة بين مذهبين يتفقان في الزهد بالعالم . وهذا كلام حذر ، لكنه يشف عن توكيد للبربرية ضد المدنية .

إننا ، دون استسلام للحنين الأعمى الى ماضٍ لا يعود ، نحيي بامتنان الفرنسيين ، مؤرخين وشعراء ، الذين أجمعوا على اعتبار انكسار أجدادنا في « بواتييه » ، بمثابة « الأيام المشؤومة في التاريخ الانساني . »

يكفي أن نقدم مما نسي نموذجاً عن الحقيقة التاريخية التي يعيد مِسكُها حاسة الشم التي فقدتها الرؤوس المريضة بزكام الشوفينية . إنها شهادة ضابط بحري ، هو كلود فارير عضو الأكاديمية الفرنسية[2] :

« في عام ٧٣٢ ميلادية ، ألمت بالإنسانية كارثة قد تكون أكثر الكوارث شؤماً في العصر الوسيط كله ؛ وقد غرق فيها العالم الغربي ، طوال سبعة قرون أو ثمانية ، في مهاوي بربريةٍ كان عصر النهضة قد بدأ يبددها ، والتي قواها عهد الاصلاح من جديد .

« هذه الكارثة التي أكره حتى ذكرها ، هي الانتصار المقيت الذي أحرزه ، قرب بواتييه ، متوحشو الهاركاس من محاربي الفرانك بقيادة الكارولنجي شارل مارتل ، على الكتائب العربية والبربرية التي لم يعرف الخليفة عبدالرحمن أن يحشدها بما يكفي فتراجعت وفشلت . لقد تقهقرت المدنية ، في هذا اليوم المشؤوم ، ثمانمئة عام . ذلك أنه يكفي أن يكون الانسان قد شاهد حدائق الأندلس أو البقايا المدهشة لعواصم السحر والحلم - أشبيلية ، غرناطة ، قرطبة ، طليطلة ، لكي يستشف ، في دوار معجز ، ما كانت آلت إليه فرنسا ، وقد

---

١ - سورة النساء ، آية ١١١ .

٢ - مقاطع من مقدمته لرواية جرجي زيدان : « العباسة » في الترجمة الفرنسية ، منشورات فونتوموانغ ، باريس ١٩١٢ .

خلصها الإسلام الحاذق ، الفيلسوف ، المسالم ، السمح – الإسلام هو هذا كله – من أهوال لا تسمى ، اجتاحت على الأثر بلاد الغال القديمة التي خضعت ، بادىء الأمر ، للعصابات الأوسترازية الوحشية ، ثم جزئت ومزقت وأغرقت في الدماء والدموع ، وأفرغتها من الرجال الحروبُ الصليبيـة ، وأُتخمت بالجثث من جراء حروب كثيرة أهلية وأجنبية ، في حين كان العالم الاسلامي ، من الوادي الكبير إلى الآندوس ، ينمو وينتصر بسلام ، في ظل الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين !

« هذا ليس التاريخ الرسمي ، التاريخ الكاذب الذي تلقنه الكتب المدرسية لطلابنا الصغار الفرنسيين في مدارسنا . إنـه التاريخ الحقيقي ، التاريخ الذي تعلمته بنفسي ، بفضل البحار التي عبرتها ، والأرض التي اجتزتهـا ، والمكاتب الأجنبية التي اطلعتُ عليها . وليس بكثير قط على حياة جوّاب أن يؤكد ، في نهاية المطاف ، ويلمس لمس اليد الكذب الكبير الوقح الذي أراد أساتذتنا ، وما يزالون يريدون ، أن يفرضوه علينا باعتباره حقيقةً – باعتباره الحقيقة .

« ... سأسأل فيما بعد هؤلاء الفرنسيين ماذا يفكرون في « انتصارنا » عام ٧٣٢ على المسلمين ؟ وعما إذا كانوا لا يحكمون معي أن هـذا الانكسار الذي أصاب شعباً متمدناً على يد شعب بربري كان ، بالنسبة للانسانية جمعاء ، مصيبة كبيرة ؟ »

الوعيُ الطبقي والحِسُّ القومي

ألا تكشف الأهمية التي أعطيناها للمظهر الديني من الشعور القومي ـ الثوري، عن الصفة «البورجوازية» لإيديولوجيا مشوشة تريد ان تنمّي اسطورة «التوافق الاجتماعي»؟

إننا، على العكس، أردنا ان نبين ان المذهب السياسي الذي تقول به جبهة التحرير الوطني، يمد جذوره عميقاً في الواقع الجزائري. المشكلة الدينية هي بالنسبة لنا واقع اجتماعي وسياسي ليس فيه أي شيء غامض. هذا ما يوضح السبب في عدم إلحاحنا عليها في البيان الذي أذاعه مؤتمر الصمام، وهو وثيقة داخلية موجهة في الدرجة الاولى الى المناضلين النابهين، في القيادة والادارة.

ثم إننا استطعنا، لأننا حاولنا ان ننظر نظرة نفاذة الى المشكلة الدينية، ان نعرف مدى التنازع الاقتصادي والسياسي أو الايديولوجي في كل مجتمع إنساني، وعلى الأخص في المجتمع الاسلامي.

إن نضال الطبقات مفهوم وُجد في المجتمعات التي سبقت المجتمعات الرأسمالية، لكن صراع الفقراء والأغنياء في الجاهلية وفجر الإسلام ايضاً لم يكن ممكناً ان يظهر إلا في شكل تعارض بين السياسة والدين: الهرطقة المسيحية، نزعة الخوارج، النزعة الشيعية، القرمطية ... الخ.

هذه هي أروع الأمثلة، على بُطلان المزاعم التي تناقض الحقيقة والتي تُكرر منذ ألف عام حول عدم استعداد المسلمين الوراثي للتحرك والمطالبة بالعدالة

الاجتماعية ، وهي أمثلة تدين الاستغلال البغيض ـ استغلال الانسان للإنسان .

قبل خبراء علم الجريمة الحديث بفترة طويلة ، أشار عمر بن الخطاب ، الخليفة الثاني ، الى مسؤولية المجتمع في الفوضى التي يُسببها الجوع . وقد برّأ مقترف الجريمة وأدان المتسبب، في حادثة مشهورة . فقد اعترف خدّام بعض الأشخاص أنهم سرقوا ناقة . فحُكم عليهم بقطع يدهم وفاقاً للشريعة آنذاك . إلا ان الخليفة أمر بإحضارهم أمامه ليحكم عليهم من سيائهم . كانت وجوههم صفراء يابسة ، وعيونهم غائرة ، وأجسامهم هزيلة من جرّاء البؤس والجوع . فأمر بإحضار سيدهم الذي جوّعهم باعتباره المسؤول الحقيقي عن السرقة . وقد حكم عليه ان يدفع لصاحب الناقة المشتكي ضعف ثمنها . وأوصى الخدام ألا يعودوا الى فعلتهم أبداً . وقد جاء في حديث شريف رواه أبو ذرّ الغفاري : « إن الله جعل الحق على لسان عمر ، يقول به[1] . »

هذا التطلع الى تحقيق العدالة الاجتماعية عند عمر موجود أيضاً عند أبي ذرّ الغفاري . وقد اشتهر بكلمة تبرر عنف الجائعين : « عجبت ممن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه[2] . »

إن أبا ذرّ الغفاري شخصية جذابة على نحو فريد . ويصفه أحمد أمين ، المؤرخ المصري في كتابه « فجر الاسلام » ، بأنه رجل ورع ، قنوع ، فصيح ، واسع المعرفة . إنه من « اكثر الاشخاص جاذبية » . وهو مشهور بالأحاديث التي سمعها مباشرة من نبي الاسلام المحرر . فقد كان من صحابة النبي ؛ وكان الشخص الرابع أو الخامس الذي آمن بالدين الجديد .

« كان يتميز بتواضعه وتقشفه ، ولهذا قيل عنه إنه كان يشبه المسيح . وقيل إنه دخل في جدال مع ابن مسعود في قضايا دينية . ويُسند إليه مئتان وثمانون

---

١ ـ أورده احمد امين في كتابه (فجر الاسلام) ، القاهرة ـ الطبعة السابعة ص ١٤٢ .

٢ ـ أورده خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نبدأ) ـ القاهرة ، الطبعة التاسعة ، ١٩٥٨ ، ص ٩٨ .

حديثاً : روى منها البخاري ومسلم واحداً وثلاثين[1] » .

ونحن نعجب أيضاً بأبي ذرّ الغفاري باعتباره الاشتراكي الثوري الأول في الإسلام . ويحدثنا مؤلف « فجر الإسلام » استناداً الى الطبري ، بايضاحات جديدة، عن العمل الذى أطلقه صاحب النبي الاشتراكي، الذى سبق الماركسية. والحق أن أبا ذرّ تجرد لدعاية فعالة ضد الأغنياء . وقد نجح مناضلنا الاشتراكي، معتمداً على آية قرآنية يهدد بموجبها الغضب الإلهي ان يسم بالحديد المحمّى « جبين وجنب وظهر » الذين يكنزون الذهب والفضة ، - نجح ان يخلق عند الفقراء حركة جماهيرية « أجبرت الاغنياء على التقيد بمبدأ القرآن وتنفيذه . »

وعلى أثر وقوع بعض الاضطرابات الاجتماعية ، استدعى الخليفة عثمان مناضلنا الاشتراكي الى المدينة ، بسبب شكوى رفعها عليه الوالي معاوية . فانزوى الغفاري - أو بالأحرى نُفي - في الرَّبذة حيث توفي سنة ٣٢ هـ. (٦٥٣ م) .

كان عمل معاوية ، والي سورية ، بنفيه أبا ذرّ موقفاً طبقياً لمصلحة الأغنياء الذين كانوا يستأثرون بالثروة والنفوذ .

هذه الطريقة ، التي « تتخطى الأحزاب » ، في حماية النظام القائم تذكر السلطة الاستعمارية أو الرأسمالية . فهذا التجرد الكاذب يعبّر الآن ، شأنه في الماضي ، تعبيراً واضحاً عن الموقف العدائي ضد طبقة الفقراء . إنه يكشف عن مقت الديموقراطية والخوف من الشعب .

كان القانون يتغلب على الإيمان !

والاتجاه الذي سلكه مضطهد الغفاري نحو الطغيان الفردي يؤكد حكمنا . فان معاوية ، حامي البطون الذهبية ، الذي ولي الحكم بعد الخلفاء الراشدين ، تنكب عن طريق الديموقراطية المحمدية ليؤسس أول سلالة في الإسلام تتوارث الملك .

---

١ - الأنسيكلوبيديا الاسلامية ، الجزء الاول .

أمراء المؤمنين الأربعة الأول انتخبوا تباعاً كخلفاء لرسول الله ، بطريقة الشورى . كان أبو بكر الخليفة الأول مشهوراً ببساطة حياته الكبيرة ، ورفضه الغنى والأبهة والادعاء . وعُرف الخليفة الرابع ، علي بن أبي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، بشجاعته الأسطورية خاصة ، وبكونه رافعاً للواء الإسلام وقائداً . وكان خلافه مع معاوية مصدراً لأدب عظيم يعالج الخروج على روح الدين وتعاليمه . ولم تتميز شخصية علي بدقة الملاحظة في مسائل الدين فحسب ، وإنما كان ، على الأخص ، بطل العدالة الاجتماعية ! إننا نراه دائماً الى جانب المعارضين السياسيين ، الفقراء ، المحرومين .

« حينما طُرد من المدينة أبو ذرّ الغفاري الذي كان يثير الجماهير ضد استبداد أصحاب السلطان ، خرج علي وابناؤه ، رغم اعتراض الخليفة ، لوداعه ، مما ولّد خصومة عنيفة مع عثمان .

« .. وكان بين أنصاره ، بعد انتخابه خليفة ، الأشخاص الذين عرفوا بأفكارهم المعادية لذوي السلطان ، فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية . لا يُعرف برنامجه الخاص إزاء تقسيم العائدات الفائضة ، وتوزيع املاك الدولة . لكنه ، منذ ان صار خليفة ، وزع ، حتى آخر شيء جميع الممتلكات التي وجدها في بيوت المال ، في المدينة والبصرة والكوفة[١] » .

لم يكن لهذا العمل الذي قام به الإمام علي أية صفة ديماغوجية مما يبدو في مخططات الاشتراكية – الديموقراطية في الحكم. لم تكن اشتراكيته طوباوية. فمن المعروف أنه قدم الى عمر بن الخطاب مشروعاً واقعياً للاصلاح الزراعي يقضي بتوزيع املاك الدولة ، أو السواد ، في العراق . غير ان عمر لم يستطع تحقيقه خوفاً من الخصومات والنزاع[٢] .

هكذا كان للكفاح من أجل الاشتراكية قاعدة دينية . وهذا ما يؤيده

---

١ ـ الأنسيكلوبيديا الإسلامية ، الجزء الاول.

٢ ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٦٥ .

المستشرق جاك بيرك : « كان لعلي ، المفضل عند النبي ، في تلك المرحلة من حياة الإسلام موقف طبقي جعل منه بطل المضطهدين المظلومين . »[1]

نجح الاستعمار ، خلال فترة طويلة ، أن يظهر الجزائريين الثوريين ، القائلين بنظرية المساواة الاسلامية ، والإصلاح الزراعي والعدالة الاجتماعيـة ، كمرتدّين ومارقين .

إن أبا ذر الغفاري نفسه ، صاحب النبي ، وصديق الامام علي ، والاشتراكي الأول في الاسلام ، لم يسلم من الافتراء عليه ولم ينج من النفي .

منذ عشرين عاماً ، كان يستحيل علينا ان نعثر على « الغِفاريّات » الكتاب الذي لا يعرف مؤلفه والذي يعتبر وثيقة مثيرة تضم أقوال الرائد الاشتراكي الأول وأعماله .

إن صراع الطبقات حقيقة واقعية بالنسبة للإقطاعيين ، المـلّاك الكبار ، والبورجوازيين الذين يسنون أسنانهم الضارية بالصناعة . إن كارل ماركس لم يبتكر زخارف لفظية لكي يرعب بها أوروبا الرأسمالية .

وأعـداء كل إصلاح زراعي وكل قضاء على استغلال الانسان للانسان ، يعرفون أن يحموا أنفسهم باختلاقهم أسلحة من نوع الأسلحة ذاتها التي وجهت ضد الناطق الأول باسمنا .

نحن إذن ، بشيء من المفاجأة ولمصلحة أكيدة ، عظّمنا هـذه البادرة الهجومية : الدعوة الاشتراكية عند أبي ذر ، التي ورثتها جمعية سرية أنشأها عبدالله بن سبأ ، اليهودي الذي اعتنق الاسلام « بقصد هدمه ! »[2]

ولئن كان غوبلز قد ابتكر – إن لم يكن عدل وجدد – الشعار اليهودي – الماركسي ، فإن سلالة معاوية تتلاشى بينما ينتصر أبناء أبي ذر الغفاري .

وكان عبد المجيد الثاني ، آخر الخلفاء ، قد طردتـه ثورة أتاتورك ، وحلت

---

١ ـ جاك بيرك ، العرب ، أمس وغداً ؛ باريس ١٩٦٠ ، ص ٢٥٠ .

٢ ـ فجر الاسلام ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

محل سلطاته الجمعية الوطنية التركية في ٣ آذار ١٩٢٤ . كان الخليفة قبل الأخير قد أنهك الامبراطورية العثمانية بالامتيازات التي أعطاها للاستعماريين الأوروبيين . وكان قد قضى نهائياً على الحصانة التامة الموقوفة على لقب زعيم الاسلام ، بالسكر والفجور والخيانة. وانتصرت الوطنية على النفاق السياسي — الديني .

صارت تُقبل ، في هذه الآونة ، فكرة التطور الاجتماعي المحتوم . وسيرى مؤرخو الجزائر الاشتراكية في وطننا ، في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حركات ثورية فاعلة. لبعضها خصائص الحمى الموقتة ، كالاضطرابات التي تنشأ عن معارضة إصلاحات مالية تناقض المبدأ الاسلامي. (جباية ضريبة ثابتة بدل ضريبة العشر) ولبعضها الآخر خصائص أشمل وأعمق كنزعة الخوارج التي سيطرت على جنوبي تونس ، والأوراس والمغرب الأوسط .

لقد بذر الغفاري الاشتراكية في أرض لم تكن مهيأة لتلقيها . لم يكن الفقراء وبسطاء الناس يستطيعون الكفاح الذي يوصلهم إلى انتصار حاسم في مجتمع كانت البورجوازية فيه طبقة نافذة ، أكثر وضوحاً وأشد حيوية .

كان لا بد من انتظار ابن خلدون ليقدم للفكر الاسلامي فلسفة مادية للتاريخ ، ناقصة ومتعثرة ، لكنها متفوقة وعبقرية بالنسبة لعصره . كان نقطة انطلاق ذات « صفة جديدة » في الفلسفة العربية الاسلامية الممزقة بين الجبرية والقدرية . وابن خلدون هو المفكر العربي الأول الذي تجاوز المترددين المتورعين الذين كانوا يتأرجحون في إطار الروحانية ، إلى إيديولوجيا أكثر واقعية وتطوراً .

لقد اكتشف ، انطلاقاً من نظرته القائمة على الملاحظة والتجربة ، قوانين التعارض بين البدو والحضر ، ووحدة الرأي في جند الاقطاع ، وحياة السلالات المالكة ناقضاً بذلك النظرية الفارسية في « الدم الإلهي » الذي يجري في الملوك ، ومبرراً مبادىء المساواة في الاسلام .

وقد تجلت عبقرية ابن خلدون ، وعلم الاجتماع في مهده ، في أنه كشف

بنظره الثاقب عن الطب البسيكوسوماتي (النفسي – الجسدي) المشهور الآن . صحيح أنه أصبح اليوم حقيقة أولية القول بالعلاقة القائمة بين شكل الحياة وطريقة التفكير ، أو بالتأثير المتبادل بين عالم الجسد وعالم الروح . غير أن هذا كان في ذلك الوقت فتحاً عظيماً .

إننا بفضل نظريات ابن خلدون التي عمّقها وأغناها فيكو ومونتسيكو وهيغل وماركس ولينين نستطيع ان نفهم اليوم لماذا كان البورجوازي المسلم الذي يختار شهر الصيام للسفر الى فرنسا أو اوروبا ، يدفع ساعات عماله الإضافية رحمة بالوالدين . مثل احد اصحاب معامل التبغ في الجزائر الذي كان يقدم الى آباء عماله كبش العيد ، في عيد ابراهيم الكبير . لم يكن يفهم جحود عماله ، المسلمين المتممين واجباتهم الدينية وغير المنتظمين في نقابة ، حينما كانوا ، في عام ١٩٣٦ ، يطلبون ، بالإضراب ، الأجور العالية التي يدفعها الصناعيون الآخرون الكفار .

ومثل بائع صودا في قسنطينية كان يقيم حفلاً يستحق المشاهدة ، مرة في العام ، لمناسبة عاشوراء ، فيمنح قطعة نقود لكل من يقف في الصف منتظراً الصدقة . كان هذا « ولياً صالحاً » يخاف الله ، لكنه يرفض ان يشغّل العمال الذين كانوا يقولون إنهم مسجلون في اللائحة المحددة للمنتفعين من الضمان الاجتماعي أو المنح العائلية .

ومثل صاحب معمل سجاد في « تلمسان » كان يشارك بتقتير في المشروع الخيري العام الذي يؤمّن سير المدرسة الحرة في مدينته . وكان هذا من انصار النهضة اللغوية والإصلاح الديني . إنه لم يفهم إطلاقاً العداء الإجماعي الذي أعلنه العمال المسلمون والأوروبيون ضد الاستغلال الكريه للعمال الأطفال ، الذين يتضورون جوعاً ، والمحرومين من التعلم .

هذا يعني ان الطبقة العاملة الوطنية لم تخدعها الهدايا الأبوية التي كانت غايتها ان تخفي الربح الآتي من فضل القيمة .

ومع هذا فإن شجرة البورجوازية الوطنية لا يجوز ان تحجب عنا غابة

الاستعمار .

كان عملنا في القضاء على النظـام الاستعماري يستلهم تخطيطاً دعائيـاً يتيح للشعب الـكادح ، ان يتوجه ويتثقف . شخّـصنا ، أولاً ، السلطة الاستعمارية في الأنظمة البغيضة التي استمرّت في القوانين الوطنيـة : الكوموّنات المختلطـة حيث الإدارة غول ، والمناطق الصحراوية حيث يسود حكم السيف ـ النظـام العسكري المستعمر .

وحدّدنا ، ثانياً ، المستغلين بأن سميناهم بأسمائهم ، مثل بورجو ، وسيرينيي. ولـكي نتحاشى كل اختلاط أو كل تفسير سيىء ، نظمنا لائحة باثني عشر شخصاً رئيسياً ، مع :

ثمانية ممثلين للاستعمار الضخم – اسياد الارض والمناجم والنقـل والبنوك ؛

اثنين من الحـكام الاداريين ، الملاّك العقاريين الكبار ، اللذين يساعدان العدو الاستعماري ؛

تاجر يهودي كبير إرهابي متطرّف ؛

صناعي قبائلي ذي وجهين .

كانت هذه اللائحة تتنوع حسب الحالة ، فالأسماء يمكن ان تتبدل. إلا أن النسبة ظلت ثابتة . كانت نسبة مناهضة الاستعمار تسيطر على هذا المزيج .

كان الطغيـــان الوطني والسياسي والاقتصادي والثقـافي يتجسد إذن في المؤسسات المقيتة والاشخاص المحتقرين . وكان الأجنبي ، العدو الرئيسي !

هـكذا حين كنا نُصْلي بنارنا البوليس أو الحكام الاداريـــين ، كنا نوجه أعنف الضربات الى الاستعماريين القابضين على زمام الأمر .

هذا النظر وهذا الأسلوب اللذان لم تفهمهمـــا الأرستوقراطيـــة العمالية الأوروبية ، كانا بالنسبة لكل مستعمَر – حتى البورجوازي – أشبه بردة فعل ضد الوباء . نشير للمناسبة ، كيف وصف « نائب معتدل جبـاية الضرائب في الجزائر . قال النائب : « أذكر ان أبي كان يأمر ، حـين لا يكون مع الوطني المال الـكافي لتسديد الضريبة ، ان تقيد يداه وراء ظهـــره ويُترك في حرارة

الشمس الى ان يأتي من أقربائه من يدفع عنه . وكان بعض الحكام يُمعنون في هذا العذاب فيصبون على رأس الوطني المقيد والمعرّض هكذا للشمس حليباً يجتذب الذباب .. هذا مشهد لم يغب عن ذاكرتي قط ، غير ان أبي ما كان ، على الأرجح ، لينال ، حين موته ، وسام « الكومندور دي لا ليجيون دونور » لو لم يكن تصرف ذلك التصرف[1] . »

كان هذا الاعتراف المؤثر حكماً رهيباً على النظام الاستعماري ، وهو صادر عن مثقف بورجوازي ، وطني ذي اتجاه إصلاحي .

وبما ان العدو الرئيسي هو الاستعمار الفرنسي ، فلا يجوز ان نتعجب اذا كانت الطبقة العمالية الوطنية تشعر أنها أقرب الى بورجوازي مسلم وطني ، منها الى عامل ارستوقراطي نيو – استعماري .

إن الطبقة العاملة الوطنية ، على نقيض العمال الذين هم من أصل أوروبي والذين لم يشعروا قطعاً بنير الطغيان الاستعماري واستغلاله ، تنبهت في كفاحها ضد العدو المزدوج ، إلى كونه مجوّعاً ومحتلاً بغيضاً .

هنا كان سر صفائها ، وكفاحها ، ونضجها . كان الوعي الطبقي والوعي القومي يمتزجان بتأثير الكراهية المتأججة المتولدة من السيطرة البربرية التي يمارسها أسياد الأرض والمنجم والبنوك ومحتكرو النقل البحري .

ولم تكن البورجوازية الاستعمارية أكثر ضراوة فحسب ، بل كانت أيضاً ، أكثر غنى وتجانساً . كانت تملأ بالذهب وألوان الترف قصور المستغلين الذين يتزاحمون حتى الموت على المتضورين جوعاً في الأكواخ الفارغة . كانت تملك أكثر المشاريع وأهمها ؛ وتملك اليد العاملة الأكثف والأذكى ، والأكثر استعداداً للكفاح (أحواض السفن ، المناجم ، النقل العام ، الصناعات الكيماوية ، البناء ، استخراج المعادن ...) .

---

١ ـ محاضر جلسات اللجنة الدستورية في الجمعية الوطنية التأسيسية ، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٤٦ ، ص ٢٠٦ .

وبالنسبة لمجموع العاملين المحرومين في الزّراعة ، فقد كان المزارع الكبير ، هو نفسه المختار أو الحاكم الذي يأمر الموّظف والدركيّ والسّجان. إنه سارق أرض الأجداد الذين صودرت أملاكهم ، دون التّعويض بفلس واحد !

وعلى عكس الفتى الأوربيّ الذي يجد مكاناً له في المدرسة ، وفي مركز التدّريب، والمدرسة المهنّية ، والكليّة، والذي يجد مهنة ، ومركزاً في الإدارة أو يجد دائماً « عملاً » للمراقبة ، فإنّ الفتى الجزائري ، ابن « العرب » عمّال البناء والحفر وأحواض السفن ، يبقى أمّياً أو شبه أمّي ، وعاملاً لا شأن له ، أو دون عمل ، وجائعاً عارياً حتماً وفي أية حال .

لقد قسّم النظام الاستعماريّ بأساليبه الاقتصادية والسياسية الملتوية الفئة الكادحة التي تتقاضى أجرة إلى مجموعتين كبيرتين مختلفتي الأصل واللغة والدين والمهنة وشروط الحياة . لأصحاب العلم المثلث الألوان ، الأجور العالية ، وضمان العمل ، والتقدّم ، ومراكز السّلطة ، والفيلا والسيارة ، والشاليه... ولفاطمة الصبّية أو لأحمد الكهل أن يعيشا خادمين بثمنٍ بخس !

هكذا تكونت في الجزائر منذ خمسين عاماً أرستوقراطية عمالية أكثر فساداً من الطبقة التي تنشأ في البلدان الرأسمالية . إن التيار الانتهازي الذي نراه في فرنسا في الاشتراكية الديمقراطية، يتحول في النظام الاستعماري إلى شوفينية، وعنصرية وحماية صريحة من الحكومة الفرنسية .

يعرف الجميعُ النظرية الثوريّة الكاذبة التي شجعها الاستعمار ليمارس نفوذه المكَبِّل ، على العمال الذين ينحدرون من أصلٍ أوروبيّ . لماذا القيام بثورةٍ ضد الاستعمار لا فائدة فيها للعمال ، لأن البورجوازية العربية ستحل في السلطة محل البورجوازية الفرنسية ؟ الأفضل هو إحداث الثورة الاجتماعية رأساً دون إضاعة الوقت في اجتياز المرحلة الأولى . أو ، يمكن بالأحرى ، بمزيد من الصبر، بلوغ المثال الأعلى : السُّمانى المشوية التي تحملها الميسترال في هبوبها فوق البحر المتوسط ...

يا للبلد المحسود الذي باركه بعَلْزَبول : تستطيع الجزائر أن تحقق اقتصاد

الثورتين ، القومية والاجتماعية ، إذا انتظرت انتصار الاشتراكيــة في فرنسا وتصديرها المتصدّق والمجاني ...

هل يمكن « التضامن البروليتاري » أن يتجلى حين يكون الوعي الطبقي في بدايته ؟ حين يحوّله التيّار العِرقي إلى خيانة لمعسكر المضطهدين ، مُعذبي الجوع الحقيقيين ؟

ولا يستطيع البيض الصغــار الذين شرّدتهم الحرب الأسبانيــة أو الذين هاجروا من جزر الباليار وكورسيكا وصقلية وإيطاليا وتركوا البؤس الشديد في مسقط رأسهم ، إلا أن يشعروا بالحقد ضد « الفئران » الفــارغي البطن الذين يهددون الاستعمار ، المجير المُحسن .

إن اعتبار مجموع البروليتاريا الجزائريــة ، في مثل هذه الأوضاع ، طبقــة عمالية منسجمة يزيد في الطوباوية والضلال والعماوة الفكرية .

أليس في ذلك اتجــاه تمتزج فيــه الجبانة البورجوازية الصغيرة بنوع من البوريتانيّـة المعكوسة ؟

كلا . المسألة ، على العكس ، مسألة حــالة واقعيــة درست بتؤدة وبصيرة وإرادة اقتلاع الشر من جذوره .

هل كان ممكناً تنمية « العالمية البروليتاريــة » ، ورفع مستوى « الوعي الطبقي » وتثقيف الشغيلة دون تميز في القومية واللغة والدين ؟

هذا لم يكن ممكناً إلا بشرط واحــد أولي : الكفاح المشترك في سبيل حق الشعب الجزائري المضطهد لكي يصبح سيد مصيره !

هذه الأخوة النضالية ضد العدو الرئيسي، البورجوازية الاستعمارية ، كانت الوسيلة الفُضلى لتثقيف الشغيلة ، والقضاء على الشوفينيّة عنــد الأوروبيين ، وعدم الثقة لدى المسلمين .

هذا هو الدور الذي لعبته بشرف منذ١٩٢٥ الجمعية الاتحادية العامة للشغيلة، المنظمة النقابية التي كانت توحــد الكفاح من أجل الخبز والكفاح من أجــل الديمقراطية مع الهدف الأساسي : استقلال الجزائر القومي .

وعلى الرغم من وجود تيار استعماري في اتحادات عمال البريد والطرق ، فإن الجمعية الاتحادية العامة للشغيلة كانت المنظمة الوحيدة التي تضم عمالاً أوروبيين ومسلمين . وعلى الرغم من القوانين الوطنية التي لا تسمح للنقابيين غير المواطنين أن يشغلوا وظائف السكرتارية وأمانة الصندوق ، فإن نقابات الصناعات الخاصة لم تكن تتقيد بـ « القانونية الاستعمارية » .

وعلى الرغم من الطغيان والفساد ، فقد كان النضال بالإضراب الاقتصادي أو السياسي ، المدرسة الثورية الأولى للمناضلين الجزائريين شبه السريين ، المهددين دائماً بالنفي الى الصحراء .

ولقد تجسدت أخوة النضال ضد الاستعمار بالتضامن الخارجي مع الريفيين ، والسوريين ، والسودانيين ، والتونسيين ، والمالغاشيين ، والهندوصينيين ... والفرنسيين (إضراب ١٢ شباط ١٩٣٤ ، و ١٥ ايار ١٩٣٤ ، ضد مجيء لاروك إلى الجزائر ، إلخ .)

إلى جانب المنظمة الاتحادية العامة للشغيلة ، كانت الحركات العمالية الأخرى إما أوروبية تماماً ، وإما إسلامية فقط .

إن الوحدة النقابية عام ١٩٣٥ في اتحاد عمالي واحد ، أتاحت للحركة العمالية في الجزائر أن تنطلق وتتسع بشكل خارق . فلقد زعزع تكاثر الشغيلة النظام التقليدي القديم . غير أن الاتجاه الإصلاحي الأوروبي (ليون جوهو ، ليون بلوم) زال ، وحل محله اتجاه معاد للروح الثورية . وقد اتفق أصحاب هذا الاتجاه الموحد ، شيوعيين وإصلاحيين ، على أن يحذفوا من مخططهم الجديد شعار المطالبة باستقلال الجزائر .

كان هناك ، ولا شك ، تغيّر في التكتيك فرضته ضرورة ربط كل شيء بالكفاح الأساسي آنذاك ضد العدو الأكبر : الفاشيّة . لكن براعة التكتيك لا يجوز أن تلغي مبدأ ثورياً . لم يكن الهدف الأخير ، الوصول إلى السلطة ، بتهديم النظام الرأسمالي ، قد طُرح ، بدليل أنه أُنيطَ بالقضاء على الطغيان الأجنبي قبل كل شيء .

كانت الفاشيّة ، أكثر الأشكال الاستعمارية وحشية ، أعني الخطر الأكبر والأقرب من خطر الاستعمار بشكله الديموقراطي ، تعتبر العدو الأول .

وكما أن الكفاح القومي كان يتقدم الكفاح الاجتماعي ، فإن النضال ضد الفاشية كان يتقدم ، وقتياً ، على النضال ضد الاستعمار .

وكما أن الانتصار على البورجوازية الوطنية كان مشروطاً بالكفاح ضد البورجوازية الاستعمارية ، كذلك فإن الكفاح ضد الفاشية كان يُهيّىء للتغلب على الاستعمار .

إن المسؤولين النقابيين، أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، تراجعوا ، بقبولهم الوحدة النقابية في الجزائر على الأساس الفرنسي ذاته ، أمام التيار الاشتراكي - الديموقراطي ، أكثر أشكال الانتهازية شؤماً ، والمموّه بطبقة من الكلام الثوري المنتفخ ، الخالي من المعنى .

هذا الخطأ لم يكن مجرّد ضلال في الرأي . كان يكشف عن خط سياسي مخطىء ، يغذّيه انحراف إيديولوجي عميق مُزْمِن في داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي .

لنذكر ، على سبيل الإقناع ، هذا التناقض التاريخي الفاحش في الحركة اللينينية العالمية . فلحظة كان الحزب الشيوعي الجزائري يتكوّن ، كمنظمة سياسية قومية ، دعامتها الأساسية الحركة النقابية العمالية ، كان يفقد صفته الجزائرية ويصير ذيلاً للحركة العمالية الفرنسية ، ويُوجَّه من باريس .

وأشار موريس توريز، في المؤتمر العالمي السابع للحزب الشيوعي (موسكو، آب ١٩٣٥) ، حين عرض على اللجنة المختصة اقتراحاً باعتبار المنظمة الجزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي حزباً مستقلاً ، إلى أن جميع المناضلين النقابيين ، أعضاء اللجنة المركزية ، يرون هذا الأمر سابقاً لأوانه .

هذا الشك العميق في كفاءتنا العقلية والسياسية لم يكن قائماً بالنسبة لنا نحن الجزائريين ، فقط . لقد تناول أيضاً الهندوصينيين الميّالين « للقيام بالعصيان المسلح » . وتناول السوريين « القوميين أكثر مما هم شيوعيون » . وتناول أيضاً

المراكشيين « المقسومين إلى أربعة أحزاب » .

لكن حين أقر المؤتمر الاستقلال التنظيمي للأحزاب الشيوعية في الدول المُستعمَرة ، تبع الاستقلال السياسي الذي اعترف به الحزب الشيوعي الفرنسي ، الاستقلال النقابي الذي اعتبره الاتحاد العام للنقابات في فرنسا أمراً واقعاً .

لكن الأمر كان مغايراً في الجزائر. فإن استقلال الحزب الشيوعي الجزائري لم يتم بالمظهر الاحتفالي الذي كانت تفرضه الحادثة التاريخية . وقد عقد المؤتمر التأسيسي الأول للحزب الشيوعي الجزائري (تموز ١٩٣٦) في أحد الأقبية في باب الواد ، وحضره السكرتير الثالث للحزب الشيوعي الفرنسي .

ولم يكن استقلال الحزب الشيوعي الجزائري كاملاً آنذاك ، إذ كان يمثل الحزب الفرنسي الشقيق « معلم » دائم في الجزائر .

إلا أن هذا المكان كان واقعة لا يصح عكسها . كان للحزب الشيوعي الجزائري لجنته المركزية في الجزائر ، وكان ، مبدئياً، قادراً على تخطيط منهجه السياسي .

وعلى العكس ، فإن المنظمة النقابية في الجزائر ، بقيت تحت وصاية باريس ورقابتها المباشرة .

كان هذا التدبير ذو الطابع الإداري والتنظيمي يهدف إلى حماية الشيوعيين الجزائريين من خطرين :

١ . تعرض الحزب والمنظمة لإمكان الحل . وبهذا تفقد المنظمة « شرعيتها » بعمل اعتباطي ؛

٢ . عدم أهلية المناضلين العرب لقيادة أنفسهم بأنفسهم ، وتجنب المغامرات الصبيانية .

وبدل ان تعاد الى الطبقة العمالية منظمتاها الشقيقتان وفق منهج حكيم ، فإن النزاع في داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي الذي يعارض بين « السياسي » و « النقابي » ، أدّى الى تسوية بالغة الحذر ، تم عن إجراءات

حيطة استثنائية .

وهكذا انعتقت الحركة السياسية وتحولت إلى حزب شيوعي جزائري مستقل ، بينما استمرت الحركة النقابية ، فرعاً لباريس كقاصر ينبغي وضعه تحت الوصاية إلى وقت نضوجه « الشرعي » غير المحدد .

نتج عن هذه الحكمة الجراحية مِسخٌ ولد تجزؤه العضوي خللاً في جهاز الحركة العمالية العصبي . وقد أثر الاتجاه النقابي الإصلاحي بتشجيع من باريس ، تأثيراً سيئاً على تطور اللينينية التي انحطت إلى ذرائعية يتجرجر فيها الفكر المتحجر وراء العمل من أجل قطعة اللحم والبراد والعطل خارج الجزائر .

وها هي تجربة عن مرحلة مضطربة طوال اثني عشر عاماً ، تتصل بالمشكلة الأولى في النظر إلى التحرر القومي والاجتماعي : استمالة خدام المزارعين .

هل ينبغي أن نُدهش أنه ، بعد وحدة الجمعية العامة للشغيلة ، عام ١٩٣٥ توقف العمل لتنظيم العمال الزراعيين ، بحجة عدم الإساءة إلى « الرفقاء الإصلاحيين » الجدد الذين كانوا يعتبرون الخدم العاملين من « نجوم الصباح إلى نجوم المساء » حيوانات بوجه إنساني يستحقون الشفقة ، لكنهم « غير مؤهلين لتنظيم نقابي » ؟

هل ينبغي أن نستغرب ان الجمعية العامة للشغيلة التي لم تأبه عام ١٩٣٦ للإضرابات « المتوحشة » التي قام بها العمال المياومون في الريف ، لم تقبل « الاهتمام بهم » إلا بعد تشكيل « اتحاد مستقل لعمال الزراعة » بمبادرة هرطوقية من الحزب الشيوعي الجزائري الذي كان يقوده آنذاك « قومي متستّر » ؟

إلا أن العمال الزراعيين كانوا قد دللوا على إحساس ممتاز بالتضامن العمالي ، زيادة على « أهليتهم النقابية » . لم يكن عمال الطرق الذين ينحدرون من أصل أوروبي يستطيعون أن يقيموا اجتماعات في أحيائهم - في « بجّاية » و « بالعبّاس » و « البيتي برلين » . كانت تروّعهم العصابات المسلحة « للاتحادات اللاتينية » التي كانت تملأ الطرق بالصلبان المعكوفة . وبفضل المظاهرات المضادة التي قام بها الخدم الريفيون المنبوذون ، الآتون لنجدة « إخوانهم في الطبقة » ، قُمِع الفاشيون وأُمنت حرية الاجتماع الذي تسمح به القوانين .

هل ينبغي أن ُندهش أنه ، عـــام ١٩٤٧ حين عللت قيادة الجمعية العامـة للشغيلة « الفرنسية – الجزائرية » أسباب تعديل ميزانيتها وضبطهـا ، سارعت أولاً إلى إلغاء السيارات التي « تستهلك الكثير من البنزين » في جولاتهـا ، ومن ثم « الاستغناء » عن العمال الزراعيين الدائمين ، في حين كان لهؤلاء القـــادة « المتقشّفين » سيارات وسائقون خصوصيون ؟

الحقيقة أن المسألة لم تكن مسألة مالية ، بل سياسية . ولم يكن صدفــة ، كذلك ، الاستغناء الغريب عن عمـــال الريف الذين يزيـد نشاطهم الخصب في أهمية النقابات ويضيف إليها عنصراً جديداً من القرى والمزارع !

لم يكن العامل الزراعي بيروقراطياً « يفبْرك » منشورات في أحد مكاتب المدينة . كان مناضلاً متنقلاً ، يوجه مخطط عمله الشهري ، لكنه يتمتع بحريـة كاملة فيما يتعلق بالتكتيك ، وممـــارسة العمل ، والزمن . فكان لا بد من خلق نقابات في المناطق المحرومـة من كل شيء ؛ وتنظيم الجماعـــة العاملة ، وإخراج الشيوعيين من مخابئهم .

لكنّ هذا المنهج التنظيمي اللاعقائدي ، هذا « العمل العربي[1] » ، كان ُيقلق القواد التقليديين ، غير أن نتائجه كانت كما يلي : خرجت من العدم نواة تنظيم تطورت بسرعـة غير مألوفة ... بالإضافة إلى مـــا تحمله من قوة تبشّر بالخير ، من أجل العمل السياسي الثوري !

وبفضل هذا التنظيم العمالي الذي توصّل، خفـْية ، إلى مناطق نفوذ المزارعين الكبار ، كانت ُتعقد الاجتماعات في محطاتهم ، ومرائبهم ، واصطبلاتهم !

ومـــاذا كان يمثل المناضلون الذين ُيمنعون من الاستمرار في أداء مهمتهم الثورية ؟ يكفي ، للجواب ، مثل واحد .

مرة غضب المزارعون الكبار على عامل زراعي قديم ، في منطقة كوليـا . ثم طرده مختار المحلة ، وهو استعماري – فاشيّ متعصب . وبعـد أن اشتغل في

---

١ – تعبير يستعمله العنصريون المتعصبون ليصفوا به الأعمال غير المنظمة .

باريس عتالاً في أحد مراكز تجارة الفحم ، تطوع في الجيش الجمهوري الاسباني . وحين مات رباح أوسيضوم قائد كتيبة « الكومون دي باري » ، كان إلى جانبه العامل الزراعي ، الملازم في الفرق الدولية فتسلم القيادة موقتاً ريثما يأتي من يحل محله .

ولم يكن ممكناً أن تأتي صدفة ، « تصفية » ثوري محترف ، ذكي ، خطيب ، منظم ، جدير بقيادة العمل القانوني والعمل السري ...

غير أنه كان يتصف « بصفات سيئة » لأنه كان يرفض تنفيذ « الأوامر » دون أن يناقشها ويفهمها . فما كان دليلاً على روح المسؤولية ، فسر عناداً ، وموقفاً « معادياً لفرنسا » مما يكشف عن خطر « قومي » ... ومما لم يكن ، بداهة ، يسمح به في منظمة تسيطر عليها بشكل مسبق الروح النيو — استعمارية .

واضح أن هذه الصرامة ضد كل مساس « بالعالمية البروليتارية » كان ذا اتجاه واحد ، حتى في الحزب الشيوعي الجزائري . فقد أسند إلى أحد سكان العاصمة الفرنسية الدائمين ، الذي رفض ان يعمل « تحت إمرة عربي » ، منصب سكرتير المنظمة في جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري .

ولم يكن ممكناً أن يأتي صدفة التخلي عن تثقيف وتنظيم أكثر الفئات العمالية جهداً ، وبؤساً ، وعدداً ؛ والتي هي الذخر الأول للثورة ضد الاستعمار ، والطليعة الأكثر وعياً لأنها الطبقة العمالية القومية في الصناعة وفي المدن .

ولم يكن ممكناً أن يأتي صدفة موقف الازدراء المزدوج ضد مناضل وعمل كان اقتران أحدهما بالآخر يعني ان الحركة العمالية الجزائرية في طريقها إلى النضج: فهم الدور الحاسم للعامل الإنساني في قطاع أساسي يلحم الريف بالمدينة ويقضي على روح الفوضى والمغامرة .

كيف نعلل فقدان وعي ، هذا شأنه ، عند القواد النقابيين ، أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري الذي كان ، آنذاك ، ينهمك في أن يملأ فراغ التنظيم لدى الفئات التي هي دون البروليتاريا ؟

هذه هي الأسباب الجوهرية :

١ . إبقاء المنظمة النقابية فرعاً للاتحاد العمالي الفرنسي العـــام . كان قواد الاتحاد « الإقليمي » الجزائري ، على صلة مستمرة مع السكرتارية الاتحاديـة في باريس وتحت سيطرتهـا المباشرة . وكان للحزب الشيوعي الجزائري ، بعـــد استقلاله ، قيادة عربية بأكثريتها الساحقة ، في حين احتفظت المنظمة النقابيـة بشخصيتها القديمة وبقيادتها التي كانت أكثرية أعضائهـــا الساحقة أوروبيـة . مبدئياً ، كان المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري قـــادراً أن يوجه « مناضليه » ، لكنه ، واقعياً ، كان لا يقدر أن يعدّل او يغير توجيهـــات باريس .

٢ . الأصل الاجتماعي لأجهزة القيـادة . كانت غالبية القيـــادة — الدائمين والموقتين — يمتّون إلى الأرستوقراطية العماليـة الأوروبيـة (رؤساء مكاتب في إدارة السكك الحديدية ، مراقبون في النقليات العامة ، رؤساء عمال، ... الخ) وعلى الرغم من الجهود الصادقة التي بذلها الخـّيرون بينهم ، فـإنهم لم ينجحوا في استئصال عقدة التفوق إزاء زملائهم العرب الذين كانت لهجتهم وطريقـة نطقهم بالفرنسية ، تذكرانهم غالباً بالخادم والبقال والزبّال .

وكان النقص في المنـــاضلين الأوروبيين ، العمال اليدويين ، الذين يتكلمون العربية هو : الثقافة دون شهادة !

٣ . كانت الإيديولوجيا السياسية المسيطرة تلتقي مع المفـاهيم الوراثية لدى النقابيين الباريسيين . كانت ، في الواقـع ، تتمشى مع مواقف الديموقراطية — الاشتراكية ، وأوضاعها . وكانت تدير ظهرها للثورة من أجل الاستقلال .

الحقيقة أنه لم تكن لدى الرؤساء النقابيين في الجزائر نيـــة سيئة ، لأنهم لم يكونوا يؤمنون بهـذا التحرر « القومي » الذي يتوجب عليهم أن « يوجهوه » ضد « وطنهم العقلي » ، « فرنسا الطيبة » .

وهم في متابعتهم ، بشغف وعاطفة ، الحياة السياسية والاجتماعية التي تحياها « البروليتارية الفرنسية » التي اتخذت رسالة لهـا ، إخراج الشعب الجزائري من

جموده وتخلفه ، لم يكونوا قـــادرين على التحرك في اتجـــاه يعاكس قناعتهم الوجدانية . حتى النظام « المقبول بحرية » لا يكفي إطلاقـاً لكي يحول دون الانضواء المخلص إلى شعار ما . من هنا ميلهم للسلام ؛ فلم يكونوا يستطيعون أن يفكروا بتهيئة (قبل الأوان) لعمل ثوري (بعيد) ، من أجل تقويض عنيف (خطِر) لنظام استعماري (غير سيّىء تماماً بالنسبة لهم).

هذا الانتقـــال الإيديولوجي بين الطبقة العمالية القوميـــة والأرستوقراطية العمالية الأوروبية ولـّدت بشكل محتوم اصطدامات ونزاعات داخل الاتحـــاد العام للشغيلة .

لكن الخلاف البسيكولوجي لم ُيثر ، حتى سحق الهتلرية ، أزمـــة خطيرة أو مميتة . فمع نجـــاح الجبهة الشعبية انطلقت الحركة العمالية في بلادنا بشكل لا سابق له . فقد شاركت في الكفاح الجماعي المتحمس جمـــاهير عمالية كانت تبدو في ُسبات ظاهري . وأدركت مدى قوتهـــا بتخلصها من ضغط القوانين المحلية . ولأول مرة ، تحت الانتداب الفرنسي ، شعر الجزائريون أنهم يتمتعون بالحريات الديموقراطية الأولية : حق الكلام ، والاجتماع ، والعمل الجماعي ، والصحافة ، والسفر الى فرنسا ، والحج إلى مكة ، وشغل الوظائف النقابية (السكرتارية أو أمانة الصندوق) والانضواء إلى حزب ثوري .

وقد فـــاز العمال دون تمييز عنصري أو ديني بالقوانين الاجتماعية ؛ الأربعين ساعة ، وزيادات الأجور ، والمساواة في المعاملة في الإدارات والخدمات العامة . وللمرة الأولى ، صار الإضراب في معمل أو شركة يصل إلى غايته إلى أن يرضى المضربون ... وكانت الإضرابات سابقاً تنتهي ، أحيـــاناً ، لصالح الأوروبيين المضربين وحسب . وتتفتت الجبهة الموحدة – الاقتصادية – الاجتماعيـــة – التي تضم البروليتاريا كلها ضد أصحاب العمل، منذ أن ُيرفع الى مستوى أعلى، المخطط القومي المناهض للاستعمار . ذلك أن أكثرية الشعب الجزائري لا تحب الخبز المر والحبل في عنقها .

هناك ، أمام الاستعمار، خط فاصل يقسم العمال إلى أنصار للنيو – استعمارية

الليبرالية ، وإلى أعداء لكل عبودية . حتى الحقد المشترك الذي يحرك الجزائريين ضد الفاشية الداخلية والعالمية ، ليس له المعنى ذاته .

إن برنامج الجبهة الشعبية لم يستدرك من أجل الجزائر إلا « إرسال لجنة تحقيق » . ولهذا ، ولانعدام الجبهة الجزائرية الشعبية ، انصهر التيار القومي ، نقيض الفاشية والاستعمار ، في المؤتمر الإسلامي الجزائري . كان ميثاق هذا الاجتماع الضخم يعكس توازناً جديداً بين القوى الحاضرة . كان تأليفاً بين الإصلاحيين أنصار الدمج والتمثل (اتحاد المُنتخَبين المستقلين ، الأكثر نفوذاً حتى ذلك الوقت في البلاد ، المثقفين الماسونيين) وأنصار الشخصية الجزائرية (العلماء ، القوميين ، الشيوعيين) .

وبعد اغتيال مفتي الجزائر ، عام ١٩٣٧ ، وهو يحضر اجتماعاً حضره حوالي عشرين ألف شخص في الملعب البلدي ، تعرض المؤتمر لأزمته الأولى بطرد الرئيس الذي تعهد التحريض البوليسي ضد العلماء « الموعزين بالجريمة الدينية » . وقد تركت أغلبية المنتخبين المؤتمر الذي وجه إليه الشيوعيون الضربة القاضية ، بالعصبية البيروقراطية . فقد فرض أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري بالتصويت ، ضد حلفائهم العلماء والقوميين ، الاستمرار الاصطناعي لوحدة العمل مع الجبهة الشعبية الأوروبية ... دون أن يقدروا أنهم كانوا يصرون على دفع حمار ميت !

تلك هي الخيبة ، والعودة إلى الوراء . دخلت العناصر المتورّعة ، المتشائمة أو الجبانة ، الى قوقعتها . أما الاستعمار فظل ، كما يبدو ، متيناً . كان عبثاً أن ننتظر منه ليلاً آخر ، كليل الرابع من آب ...

ونشبت الحرب العالمية الثانية ... وعاد الضغط ، قاسياً عنيفاً . السجون والمعسكرات الكثيرة المليئة بالناس تطبق على البلاد كلها . والمناضلون الثوريون المنقسمون منذ ثلاث سنوات يتلاقون في الحبوس أو وراء الأسلاك الشائكة .

والأوهام تستمر أيضاً ... فقد احتفلت فئة قليلة من المعتقلين بدخول هتلر إلى باريس بمقتضى التقدير المدرسي : « عدّو عدّوي صديقي . » ، وهذا قياس

تبسيطي للارتكاس العاطفي . وهو من طبيعة الإنسان . ألم يُدع ملك انكلترا، طوال ثلاث سنوات ، لحماية استقلال أكيتانيا ضد إلحاقها بمملكة فرنسا ؟ ألم يستقبل الإيطاليون بونابرت كفاتح ، وكانوا سعداء برؤيتهم النمسوي المحتلّ يطرد من بلادهم ؟

لكن ما يمكن التغاضي عنه لدى شعب لا خبرة له ، هو عمىً سياسي خطير لدى مناضلين جزائريين ينتظرون بإيمان فارغ الصبر تحرّرهم القريب الآتي من برلين . ولم يكونوا يخبئون فرحهم أثناء فترات الراحة القصيرة من أعمال السخرة في الخشب والصلصال أو الرمل التي ينبغي نقلها من مكانها وإعادتها اليه باستمرار . وكان فرحاً غامراً ، ذلك أن حلم حياتهم كلها يتحقق باشتراكهم في عيد الاستقلال الجزائري الكبير ، الذي سيكون متوافياً ، بعد صلاة الجمعة في الجامع الكبير ، مع تتويج مصالي ، سلطاناً على الجزائر !

حكاية من حكايات جحا ؟

كلا . هذه سذاجة ، لا شكّ . لكن الذين كانوا يتحدثون في ذلك مناضلون معروفون : أحمد ميزرنا ، نائب الجزائر فيما بعد ؛ والشاذلي مكي . وكلاهما دخل الحركة الوطنية الجزائرية ، وهما حالياً في القاهرة ... في السجن ، كمناهضين للثورة .

وقد نشأت خيبتهم الأولى ، عام ١٩٤٠ ، من القراءة السرية للجرائد الممنوعة . فإن هتلر « منقذ » الشعوب المستعمرة سمح في اتفاقية الهدنة ، لحكومة فرنسا « المغلوبة والمنزوعة السلاح » بالإبقاء على سلاح المشاة ، وعلى الأسطول والطيران — « فهذه كلها ضرورية لحفظ النظام في المستعمرات » .

وكانت الأسطورة تتبخر ككذبة نيسان .

واستيقظ النائمان وتخلصا من حلمهما المغنطيسي بزوال الوهم زوالاً قاسياً وصعباً .

ورفض الشعب الجزائري أن يستسلم لمخاتلة نظام فيشي رغم الدعاية الكاذبة في شعار « إخوتنا المسلمون » الذي أُطلق في ١٦ أيار ، وهو شعار كان يخفي

تطرفاً في النزعة الاستعمارية .

وكان في ذلك الشقاء الأمرّ والضغط الوحشيّ !

وكانت الأشغال الشاقة والأحكام بالموت ...

* * *

استقبل الإنزال الأمريكي في ٨ نوفمبر ١٩٤٢ بفرح شديد أو معتدل ... وقد أبقي القوميون – الثوريون ، والديموقراطيون ، والشيوعيون في السجون والمعتقلات . ولم يطلق سراحهم ، بأمر من أيزنهاور ، إلا بعد سبعة أشهر في أيار ١٩٤٣ ، تحت تأثير الضغط المزدوج للرأي العام في الجزائر والولايات المتحدة .

وقام المنتخبون المسلمون بمبادرة ، دعمها التعاطف الشعبي ، حيث قدّموا للحكومات الحليفة مذكرة بمثابة مانيفستو الشعب الجزائري .

وتغذى الوهم الإصلاحي مرة ثانية ، بالوعود ... الكلامية السرية من « مورفي » والابن « روزفلت » ... وقيل ، هذا مصير الجزائر التي ستنال استقلالها دون عمل ثوري ... لا دماء ! لا دماء !

لكن الاستعمار الفرنسي دلل على أن طبيعته السفاحة لم تتغير منذ عمليات الإبادة المنظمة التي رواها الجنرالات الفاسدون : حرائق المدن ، فضح النساء ، النهب ، قطع الآذان ، تخريب الأشجار المثمرة ، والقطعان ، والغابات ... إنه الاتجاه الموروث نفسه ، منذ عام ١٨٣٠ ، لإلحاق الأذى « بالعرق العربي القذر » الذي يجب القضاء عليه كلياً ... إذا كان ذلك ممكناً .

إنه المجزرة الوحشية ، عام ١٩٤٥ ، التي بلغ عدد ضحاياها خمسة وأربعين ألفاً : القصف بالمدافع ، بالأسطول البحري والجوي ، الحديد ، النار ، الأفران ، الجثث المكدسة في الساحات ، قتل الأطفال ...

بلى ! ليست اللا إنسانية « اختصاصاً » نازياً . تشهد بذلك الاعمال الفرنسية الوحشية في الهند الصينية ، ومراكش ، والسودان ، وتونس ، وسوريا... وقد رآها جزائريون بأم أعينهم ، وحفر أحمد شوقي ذكراها الرهيبة في ذاكرة

الشعوب العربية بقصيدته المثيرة عن ضرب دمشق ، عام ١٩٢٥ ، بقنابل جيش الاحتلال الفرنسي :

« وللمستعمرين ، وإن ألانوا   قلوب كالحجارة لا ترق . »

كان الضغط البوليسي والقضائي على المناضلين القوميين ، بالغ العنف ... كان المحكومون غيابياً يذهبون إلى الأماكن المنيعة ويتعودون على الحياة القاسية خفية في المدن الكبيرة أو في الجبال .

وكانت العصبية العمياء أو المحرضة تفلت من عقالها . فقد شوه بشكل مرعب ، صديق للعرب مناهض للاستعمار ، هو السيد دينييه **Denier** سكرتير فرع الحزب الشيوعي الجزائري في « سطيف » ، إذ قطعت يداه من المعصم .

وبرهن آخرون على رباطة الجأش وعظمة الروح . فقد نقل بعض الجنود الفرنسيين القدامى في فرقة المقاومة ، بعد أن قضوا على التجمعات النازية الأخيرة في « لاروشيل » – نقلوا في الطائرة « لمتابعة العمل القومي التطهيري» . غير أنهم ، في الجزائر ، رفضوا أن يقتلوا الأبرياء ، أخوة ، أو أبناء ، أو آباء « الرماة الجزائريين » الذي ساعدوا في إنقاذ فرنسا . لقد رفضوا « مطاردة البرنس » . لم تكن لهذا التآخي العفوي ، الصادق ، الرائع أية دعاية . وكان بعض الشيوعيين الفرنسيين أعضاء في الحكومة . فعُزِل العصاة الفرنسيون في إحدى المزارع الكبيرة ، دون خمر أو ماء . ولا يدري أحد ماذا حل بهم . فهذا سر من أسرار الدولة .

غرق « التمرد العربي » في طوفان رؤياوي ، وازداد بؤس الشعب الجزائري قسوة ورعباً . وبلغ القمح في السوق السوداء سعراً لا يُصدّق : صار يباع القنطار بعشرة آلاف فرنك . وعمّت المجاعة . حتى البقول التي كانت تباع في الأسواق « البلدية » في المدن الكبرى ، اختفت نهائياً . ولم تعد تُرى تلك الأعشاب البرية ذات السيقان اللينة ، ولا تلك البقول الخضراء . تبخّر كل شيء حتى القُرّاص . صارت الارض في عري تام ، كما لو أن الجراد لحسَها . وبدت

الجزائر كأنما أغلقت في وجهها السموات السبع .

لم تطرد السموم رذاذ المطر فحسب ، وإنما طردت أيضاً السحاب الجميل . كان يمكن لدارس الأخلاق الشعبية وخصوصياتها ، أن يلاحظ ظاهرة اجتماعية غير عـادية في الجزائر ، خلال مرحلة من القحط الجهنمي . فلم تكن تُرى في المدن ولا في الأرياف ، مواكب التوبة الإرادية وهي تهز « بوغنجة »[1] ، حيث كانت جوقة تردد نشيداً تدعو به الى الله أن « يبلل الرأس » العـاري لشخص شفيع يظهر ليستقبل المطر الخيّر .

إن الفائدة من التذكير بهذا التقليد لا تكمن في الفضول الفولكلوري . والحق أن ذلك لا تتفرد بـه الجزائر العربيـة المسلمة . ففي جنوبي فرنسا ، في « غرافسون » و « تولوز » وأمكنة أخرى ، كان الناس يطوفون حاملين تمثالاً نصفياً للقديس مارسيلان أو القديس آنتيم . وإذا لم يستطع القديس « رغـم التوسلات والتقدمات الطهورة ، أن يولّد الغيوم ، فإن التائبين كانوا يعاقبونه بتغطيسه ثلاث مرات في الماء »[2] .

لم تكن هذه مجرد خرافة يؤمن بها فلاحون بُسطاء في قرية نائية . فقد كان الاحتفال في باريس – عاصمة فرنسا – يجري بأبّهة أقوى . وكان يقام برعايـة الكنيسة والبرلمان معاً .

هذه الاحتفالات الوثنية هي بقـايا طقس زراعي قديم يعود إلى العهد الذي اكتشف فيه الإنسان الزراعةوالفخار .

كان الناس يعبدون الآلهة المخيفة أو الحـامية ، التي تسيطر على الرعـد والعاصفة ، وعلى القطعان والزرع والشجر والبساتين .

وما يزال البعض حتى الآن يكرمون الغـابات المقدسة ، فتضحى فيهـا الدجاجات السود ، والأكباش ؛ وتقدم الصلوات والشموع والصدقات ، مـالاً

---

١ – مغرفة كبيرة من الخشب بشكل رأس ببرنس ، يذكر بصولجان المجانين .

٢ – فريدريك ميسترال: مذكرات ، ص ٦١ ، منشورات « بلون » ، باريس .

أو طعاماً. أكيد أن هذه الاحتفالات طورت الصنمية الوثنية إلى صنميةصوفية.

كان موسم سيدي بلال طوافاً سنوياً أخـّاذاً يقوم بــه المسلمون السود في الجزائر . كانوا،كل ربيـع ، بعد القطـاف الأول لموسم الفول ، يجولون راقصين ، بثور أسود ، تزينه المناديل والأشرطة والأصداف وجلود الحراذين ... انطلاقاً من مقر الجمعية في شارع سيدي عبدالله حتى مكان ذبحه ، على شاطىء البحر .

والموسم لغة ، هو وسْم الحيوان بعلامة يعرف بهـا ، ومن الذهاب بالقطيع الى المرعى طلباً للكلأ ، فهو من بقايا الوثنية. وقد حرم القرآن الطقوس الخرافية عند العرب الذين كانوا يقدمون الأضاحي الى الآلهة الكاذبة والاصنام التي يُظن أنها تحمي الماشية والمحاصيل :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون[1] » .

إذن لقـّح بالإسلام هـذا السحر الصناعي الذي كان يجهد أن يخضع لإرادة الإنسان مظاهر الطبيعة التي توزّع الخير الوفير .

ومن كان أجدر بلعب هذا الدور الرمزي من سيدي بلال ، العبد الأفريقي المعتق ، رفيق النبي ومؤذّنه ؟

« الناس سواسية كأسنان المشط ؛ لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى[2] .»

كان الاسم الرمزي لبلال بن رباح يعكس النزوع إلى المساواة عند الشعب الأسود ، وكان يتخذ شهادة على إيمانه .أن الموسم هنا يتجلى في تحول سام .

يذكر العالم الإسلامي كل يوم،المؤذن الأول الذي كان يمكن لشاعر جزائري كإيميه سيزيز[3] أن يغني «العبدية برائحتها الشهية برائحة البصل المقلي » مضيفاً

---

١ - سورة الأنعام ، آية ٩٥ .

٢ - حديث شريف .

٣ - Aimé Césaire من « المارتينيك » يعتبر مع سنغور رئيس جمهورية السنغال ، الشاعرين الأولين في أفريقيا السوداء . (م . م)

إلى ذلك عسل الحرية وعطر الأخوة في المدينة المنورة .

والواقع أن اسم سيدي بلال مقترن بالأذان ، هذا النداء الرخيم الذي يحرك الروح وهو يصّاعد من المآذن معلناً الصلوات الخمس اليومية :

« الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حيّ على الصلاة . حيّ على الفلاح . الله أكبر . لا اله الا الله . »

نحب أن نذكر الاستعماريين المتخلفين، ونذكر أيضاً ذوي الأفكار «المتفوقة» التي تنظر الينا باستخفاف، ان موسم سيدي بلال يقام كذلك ، في الجهة الثانية من المتوسط . يجري الاحتفال كل سنة ، في نيسان ، بثور صغـير أسود تزينه الاشرطة الملونة والقرون والحوافر المذهبية . يرافق ذلك رقص على ايقاع التـام التام السوداني . وبعد أن يتوقف الموكب أمام الكنيسة يتوجه الى البحر حيث يذبح الثور على الشاطىء . ثم يوزع لحمه على الفقراء ، كما يحدث تمامـاً في موسم سيدي بلال ...

هذا يجري في إحدى المناطق الفرنسية الجنوبية، في فار . ويعرف الاحتفال باسمين . الأول باسم أحـد القديسـين أو القديسات ؛ والثاني باسم « رقصة الأمعاء » .

ولم يعرف بعد ، على وجه التدقيق ، مصدرُ هذه العادة في فرنسا . وقـد وصفت وصفاً دقيقاً في المجلة الجامعية التاريخية التي تصدرها جامعتا مونبيلييه وتولوز . غير أن هذا المصدر سيبقى لغزاً لا يُحلّ لكل من لا يعترف بـدور العرب وتأثيرهم في الثقافة الإنسانية .

« قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعـلم الغيب ، ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أتبع إلّا ما يُوحي إليّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفـلا تتفكرون . »[1]

إن رقصة الأمعاء كموسم سيدي بـلال ، واحتفال السانت — جنفياف

---

١ — سورة الأنعام ، آية. ٥ .

كاحتفال بوغنجة ؛ إنها الآثار الباقية من أمراض الإنسانية في طفولتها .

يمكننا أن نرى في الجزائر وجـود الظواهر التالية في آن واحد : الآثار الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية الباقية من العصر الإقطاعي الذي انتهى ، وآثار الرأسمالية التي تهدّها الشيخوخة الباكرة والاشتراكية المقبلة التي تتفتح براعمها .

ويمكن أن نرى كل فئة اجتماعية ونحس الوجود الديالكتيكي، المتواتر ، لكل ما يولد وينمو وكل ما يضمحل ويموت .

ولهذا، فإن هؤلاء الذين يعرفون أن النزعة الروحية تعم وتشتد في الفترات المضطربة، ويعرفون أن هذه الحركة النفسية تفعل وتنشط بشكل آلي ، تقريباً، في أعماق كل جمهور أفقده الضعف والعجز توازنـه ، لم يعيروا انتباهاً الى التغير الروحي عند فلاحينا الذين يخيم عليهم الشقاء .

كان الشعب الجزائري ، بإيداعه « بوغنجة » في مدفن الخرافات المحنطة ، يتبنى اتجاهاً يكشف عـن تحول نفسي سياسي عظيم . فإن الجزائريين الذين تخلوا عن أساليب التفكير الانفعالي ، كانوا يرفضون ، مثلاً ، الخضوع الى القضاء الاستعماري. كانوا يبتعدون بقرف عن المحكمة ويلجأون الى تحكيم الجماعة أو الى اليمين – القسم، بالقرآن . وكان في عملهم هذا تنبيه للغافل، قبل الهجوم النهائي الذي سيباغت الجيفة الاستعمارية .

لقد أدرك الجزائريون ، في ضوء التجربة ، ضعف العدو . كانوا شهود الهزيمة عـام ١٩٤٠ . رأى الجنود المستعمَرون كيف يسيطر الرعب على ضبّاطهم المستعمِرين. وشعر الجزائريون ، عام ١٩٤٣ ، بإعجاب الحلفاء بهم ، إزاء المآثر التي قام بها المغاربة في إيطاليا ، في جبل « كاسّان » وغيره. وهم يعرفون أن عصا المارشال جوان ، هي ثمـرة استبسالهم ، وتضحيتهم ، ومشاركتهم في سحق الفاشيّة .

كان الجزائريون يعتبرون أهـداف الحرب عند المعسكر الديمـوقراطي ، أهدافهم ، هم أيضاً . وكانوا يأملون كجميع الشعوب المحرومة من استقلالهـا ،

أن ينالوا نصيبهم العادل في حياة حرة .

كان ذلك حقاً . كان ذلك عدالة .

وهكذا فإن البؤس والضغط وتجاوز القوانين الأساسية للنظام « الجمهوري » من قبل هؤلاء الذين كانوا مكلفين بتطبيقها – ان هذا كله لم يفلّ من عزيمتنا ، وإنما شحذ حقدنا ضد السلطة الجائرة ، الوحشية ، ناكرة الخير .

والواقع أننا ، بدل أن نشاهد موت كل حياة سياسية في بلاد استنفدت وأُرهقت ، شهدنا ، على العكس ، انقلاباً ضخماً في الرأي العام : الحملة التي لا ترد من أجل العفو العام .

كانت الجزائر تتخلص من القالب الذي كانت نار الاستعمار تريد أن تصبها فيه من جديد .

في ذلك الوقت أحس السيد بيريلييه Périllier ، الحاكم السابق في الجزائر ، بالتغير النوعي . ونحب أن نذكره بالخير وننصفه لهذا الاعتراف المرّ المليء بالصفاء والحنين :

« ان فرنسا تكابد علة رهيبة . كان المسلمون يستجدون حقوقهم ؛ وهم اليوم يفرضونها . »[1]

---

١ – تصريح قاله للسيد بيرليوز ، النائب الفرنسي .

الپاليه - بوربون، قبر الحركة القومية الإصلاحية

أحس الشعب الجزائري، في خبرته الخاصة، بقوته. لم يعد يستجدي حقه بالسيادة. كان عازماً على الكفاح بمختلف الوسائل لنيل هذا الحق. كان مقتنعاً أيضاً أنه لا يمكن الحصول على الحرية والأرض والتقدم والحفاظ عليها وتطويرها إلا بزوال النظام الاستعماري.

كانت تنفتح أمامنا طريق سلمية جديدة وغير معروفة، وينفتح معها رجاء العمل البرلماني حتى في فرنسا. وكانت هزيمـــة الهتلرية قد أحدثت فجوات في الاستبداد الاستعماري.

وقد دعي الشعب الجزائري الذي لم يرد الاستعمار أن يسمع مطالبه التي كان يعبر عنها همساً أو صراخـــاً غاضباً – دعي الى التصويت[1] وانتخاب ممثليه في مجلس النواب ومجلس الشيوخ الفرنسيين.

وكان الوضع يبدو مشجعاً لتخليص الجزائر من الاستعمار بالطريقة البرلمانية. ألم يوح مؤتمر برازافيل، للجنرال كاترو، الحاكم العام للجزائر آنذاك، بأن يُعلن: « لقد انتهى عصر السيطرة الاستعمارية » ؟

---

١ – كان للرجال فقط حق التصويت، عام ١٩٤٤. ورغم أن المرأة أعطيت عام ١٩٤٧ هذا الحق، فإنه لم يطبق، شأن كثير من القرارات والقوانين الديموقراطيـة التي كان يسنها المجلس النيـــابي.

وكانت سورية ولبنان تفتحان طريق الاستقلال .

وكان الاستعمار البريطاني يتخلى ، أيضاً ، عن الإدارة المباشرة ، ويتنازل عن تشبّثه بالتسلّط السياسي . كان، لتقديره أهميــة الحركة الاستقلالية التي لا تقاوم ، يتكيّف مع الوضع الجديد ، محـــاولاً أن يبقي فقط على السيطرة الاقتصادية لكن بشكل مموّه .

لم يكن أحد في الجزائر يعتقد أنه من الممكن أن يرى الملّاك الكبار يتخلون عن امتيازاتهم ، مختارين . غير أن « لجمهم » كان ممكنـاً . ألم يفقدوا الكثير من عنجهيّتهم بسقوط بتّيتان ؟ صحيح أنهم لم يغيروا عـــاداتهم المتكبرة إزاء المسلمين . إلا أن المقاومة الفرنسية كانت تقلقهم برغبتها الواضحة في أن تجدد الأنظمة والأساليب السياسية . كما أنه كانت هنـــاك أدلة على وجود «رغبة» بالتطهير .

ألم يُحـــاكم ويُعدم بوشو Pucheu وزير الداخلية المسؤول عن الجزائر في نظام فيشي ؟

وبوردير Bordères ، رئيس المؤسسات النقديـة ، وأول شخصية سياسية للاستعمار الجَشع ، ألم يعان ذل التحقيق في دارته الخـاصة في المنطقة التي كان مختارها ، ويُقذف به كالعربي في أحد المعسكرات ثلاثـة أشهر ، بتهمة التهريب والتجويـع ؟

وبورجو Borgeaud نفسه ، ألم يكن ينتظر لكي يتوسل المسؤول عـــن جريدة « ليبرتي » للتأكيد على أن الشخص الذي زود دبابات « رومل » ببعض التجهيزات الداخلية ، لم يكن هو ، بل كان أخاه ؟

كنا نأمل بمجيء فرنسا جديدة .

لو أن قوى المحافظة الاجتماعية تهدمت – أو شُلّت فقط – لكانت المقاومة الفرنسية استطاعت أن تنشىء ديموقراطية جديدة تحل فيهـــا روابط الأخوّة الحقيقية محل سلاسل الاستعمار .

كان هناك مثـَل يوغوسلافيا ؛ ومثـَل الاتحاد السوفياتي . أكيد أن الجميـع

كانوا يعرفون أن تصفية الامبراطورية القيصرية مرتبطـــة بالانتصار المزدوج الكامل – انتصار الشعب الروسي المناهض للقيصرية .

لقد تحققت الأخوّة بين شعوب الاتحـــاد السوفياتي في الحرب الكبرى ضد الهتلرية . ففي عام ١٩٤٤ ، والحرب في أوج استعارهـــا ، سُمِح للجمهوريات السوفياتية المسلمة بتشكيل جيوش قومية لا يقودها قواد روس ، بل قوميون . وعندما تم احتلال برلين ، رفع بيرق النصر السوفيـاتي فوق الريخستاغ روسي وكازاكي .

لا شك أنه كانت هنـــاك بعض « اللطخات » في السياسة الستالينية إزاء القوميات. فبعد ترحيل الألمان في الفولغا ، القابلين للتعاون مع المحتلين النازيين، حدث أيضاً ، عام ١٩٤٤ ، في آسيا الوسطى ترحيل بعض الجماعات من القوقاز، الذين قدروا مع ذلك مساعدة حكومـة العمال الروس لعدم تصييرهم روسيين . وعلى عكس الجزائريين الذين كان الاستعمار يريد أن « يفرنسهم » بالقوة ، خانقاً اللغة العربية التي أصبحت « لغة أجنبية » ، فإن الشعوب المسلمة في الاتحـــاد السوفياتي مُنحت لغات أدبية قومية حلت محل اللغات الدارجة . وحل ، تبعاً لذلك ، محل الأدب المنقول أدب مكتوب بأبجدية عربية ، وهو يُكتب الآن ، بأبجدية لاتينية. ومنذ عام ١٩٢٢ كانت هذه الشعوب مقسمة الى أقاليم مستقلة . وفي عام ١٩٣٦ صارت هذه الأقاليم جمهوريات اشتراكية سوفياتية مستقلة . هذه الجمهوريات المستقلة التي ألغيت عام ١٩٤٦ ، أعيد استقلالها من جديد في نهايـة عـــام ١٩٥٦ وسوّيت أوضاع جميع الذين رُحّلوا منها وسمح لهم بالعودة الى بلدانهم .

إن إزالة الاستعمار ممكنة أيضاً في النظام الرأسمـالي . وسويسرا هي أفضل مثل على ذلك . فقد عرفت هذه الدولة المتعددة القوميات أن تجد حلاً عـادلاً ، ثابتاً ، ودائماً بالمساواة الحقيقية بين الأفراد ، وبين الجماعات .

وكان يستطيع الاتحـــاد الفرنسي ألا يصير يوتوبيـا بتحوّله الى اتحـــاد كونفيديرالي بين شعوب متساوية . كانت هـــذه تجربة مغريـة . فلا يجوز أن

ترفض هذه الوسيلة في الكفاح السلمي . لا يجوز الاستسلام للهوس السياسي عند الذين فقدوا صبرهم ويريدون استعجال الأمور ، ولا لهوس الإصلاحيين الذين ينتقدون الحلول المتطرفة ... رافضين وحدة عمل الثوريين ، إذ يظهرون أكثر اعتدالاً لأنهم أكثر واقعية .

لا يمكن أن يكون العمل البرلماني ، في نظر الثوري ، إلا انعكاساً للعلاقة بين القوى الاجتماعية . ولهذا لا غنى عن تنظيم الجماهير واستنفارها لزيادة الضغط الشعبي للتوازن مع معارضة الاستعمار المحتومة : الاحتكارات في فرنسا والإقطاع الارضي والمالي في الجزائر .

لا ينسى الثوريون جذور الاستعمار الاقتصادية . يعرفون أن التسلط السياسي الذي يتبع السيطرة العسكرية هو وسيلة تمكن من السيطرة الدائمة على المواد الأولية وبيع المصنوعات . بمختلف أنواعها ...

الثوريون ، لذلك ، جاهزون لاستخدام جميع الوسائل التي تتطلبها مقاومة العدو .

وبالمقابل ، فإن القوميين – الإصلاحيين ، الذين يقفون سلفاً ضد استخدام العنف كانوا يردون الخلاص من الاستعمار الى مشكلة حقوقية – سياسية محضة . كانوا يحتفظون بوهم السهولة في التوفيق بين حق الأقوى والعدالة الطبيعية .

وكان يبدو لهم ، بمعاونة باريس ، أن من السهل التخلص من السيطرة الاقتصادية – السياسية التي تمارسها الفئة اللاتينية – الاوروبية في الجزائر . وقد نجحت هذه الفئة في احتكار جميع المراكز السياسية – الإدارية . وقد ناضلت ضد سلطة باريس للإبقاء على امتيازاتها . تمردت ضد الملكية عام ١٨٤٨ ، وضد فكرة المملكة العربية عند نابوليون الثالث ، وضد القانون المتعلق ببيع الزبدة . واضطرت أخيراً باريس لمنح الاستعمار الجشع استقلالاً نقدياً . وتكرست هيمنة العناصر اللاتينية – الأوروبية ، بواسطة المؤسسات النقدية ورقابة الميزانية الجزائرية ، على الحياة الاقتصادية والإدارية والسياسية .

مثلاً ، كانت تقام سدود كبيرة لري الاراضي التي يملكها كبار المستعمرين ،

ويُغفَل عن حفر آبار لتأمين تربية الخروف، النتاج العربي الوحيد.

وحينما تقع الميزانية الجزائرية في عجز، كانت تُفرض ضرائب جديدة على السكر والقهوة والشاي؛ يعني تزاد الضريبة غير المباشرة التي يدفعها الفقراء، مع الإصرار على عدم المساس بالاغنياء، بإلغاء امتيازات الاملاك الكبيرة المعفاة من الضرائب

مثلاً، كانت تمنع الهجرة الى فرنسا، ليسهل التصرف باليد العاملة الزراعية الكثيرة الرخيصة، ويُفرض على إدارات السكك الحديدية والاشغال العامة ألا تدفع الى عمال الشوارع أو الطرق العمومية أجوراً أعلى من الاجور التي تدفع لعمال الزراعة.

وفي عام ١٩٣٥، حصل عصيان الحكام — الكرّامين؛ وعام ١٩٣٦، حصل الاعتداء على الجبهة الشعبية؛ والاعتداء، عام ١٩٤٠، على منظمة المقاومة ضد هتلر وبّيتان.

كانت تجربة «الباليه — بوربون» ضرورية لكشف القناع عن الألاعيب الكلامية الصادرة عن الاشتراكية — الديموقراطية التي كانت تقدم للاستعمار أشد حكامه حماسة، وأكثرهم رياء ووحشية.

ألم يضع الحكام الاشتراكيون، في سبيل تأمين راحة الملاكين الكبار وسعادتهم، مشاريع لترحيل الجزائريين الذين لا أرض لهم ولا جنسية، ترحيلاً جماعياً «لاستعمار ُقرْطِ النّيجر» أو لإعمار الاراضي البور في جنوبي لانغدوسيا الغربي الذي هجره الفلاحون الفرنسيون؟

لم يكن ذلك اتفاقاً عرضياً. كان من طبيعة منطق الاشتراكية — الاستعمارية عند موّليه — لوجون — لاكوست. الوطن «فكرة مضى عليها الزمان». التعلق بأرض الأجداد هو عبادة قبور، «لا يقرها العقل». الإصلاح الزراعي «مستحيل تكنياً»، فالأراضي كلها محتلة!

كانت تجربة «البّاليه—بوربون» ضرورية للتدليل على أن العدو الاستعماري كان في باريس والجزائر معاً، وعلى أن الخلافات الداخلية كانت تغيب أمام

الاتحاد المقدس ضد العرب .

وكانت ضرورية أيضاً للتدليل على أنه لم تكن هناك مندوحة من اللجوء الى القوة لتحرير الوطن من العدو المزدوج .

لم يكن الاستعمار الفرنسي مِسْواطاً[1] وحسب ؛ وانما كان ذئباً كذلك... لا يحس بالفاتحة[2] المضمومة اليدين أو براحة اليدين المرفوعتين الى السماء .

ان عرضاً موجزاً لقانون الأحوال الشخصية الجزائري يوضح كيف ان التشدد الفرنسي كان يسيء دائماً الى المشاعر الحساسة ويقتل الأمل بإيجاد قوة ثالثة ..

١ – في البداية ، كان قانون ٧ آذار ١٩٤٤ ، يمنح « للفرنسيين المسلمين » المساواة الكاملة مع فرنسيي الجزائر ، دون التخلي عن أحكام القرآن .

كان هذا شجاعة ، على الورق . كان ينهي – على الورق – اللامساواة في الأحوال المدنية بين سكان بلد واحد . لم يكن الجزائري يعرف في هويته الا بتسميات تنطوي على التحقير : مسلم جزائري؛ مسلم بلديّ ، مسلم بلديّ فرنسي غير متجنس .

والمعروف ان الثورة الجزائرية دفعت السلطات لتعديل هذه التسميات ، فصارت : فرنسي مسلم ؛ فرنسي من أصل أفريقي – شمالي ؛ فرنسي كامل .

كان النفاق الاستعماري من القوة بحيث أنه ينفي صفة « مواطن فرنسي » والجنسية الجزائرية ، في آن معاً .

ألم تكن حقوق الجزائريين- الفرنسيين الكاذبين أقل من حقوق الفرنسيين – الجدد الذين يتحدرون من أصل لاتيني ؟ كان المسلمون المجنسون ملزمين بتشكيل فرقهم الدفاعية باسم « المواطنون الفرنسيون من أصل بلديّ » أو « من أصل مراكشي » ، كي يستطيع أبناؤهم ان يؤدوا خدمة العلم في الفرق « الفرنسية » أو يستفيدوا من توزيع الأرض التي اغتصبت من القبائل ، مجاناً !

---

١ – بالعربية ، في الاصل ، والكلمة تعني الفرس الذي لا يجري الا بالسوط . (م . م)

٢ – بالعربية في الأصل .

كانت الرغبة في تقوية سياسة التذويب والدمج هي التي أوحت قانون ٧ آذار. لكن سرعان ما تعرقلت هذه السياسة التي كانت تهدف الى الإبقاء على التسلط الفرنسي بالحد من تسلط الملّاكين الكبار. فقد كان هؤلاء لا يطيقون فكرة أن يروا حاكماً عربياً، او قوميساراً عربياً، او كولونيلاً عربياً، او طياراً عربياً، او ملاحاً عربياً!

ولم تكن هذه الذهنية مقتصرة على المنتفعين الكبار من سياسة عزل العرب. كانت تتجلى في فرنسا ايضاً، في كتب ذات أهمية او كتب مدرسية، بشراسة أقل، لكن بالفاعلية ذاتها. هذا ما كان يسوغ عملية إغلاق الكليات الصناعية في وجوه الجزائريين. كان العربي عامة، – والجزائري خاصة – غير أهل لفهم الماركسية او للحصول على بطاقة نقابية. كان غير صالح لأن يتعلم قيادة قاطرة او سفينة. وها نحن نكشف، عام ١٩٦٠ (!)، أنه ليس أهلاً لأن «يحمل لوحاً» او «يجر نقالة».

ليس هذا مزاحاً. انه رأي السيد ج. انطوان رئيس البعثة الدراسية في شرقي الجزائر. وما يحزن هو ان هذا الرأي التقني – العرقي نشر في مجلة كاثوليكية شعبية. وبعد خمس سنوات من حرب دون هوادة، ظهرت في باريس كلية حديثة كهنوتية تضفي صفة دينية على آراء استعمارية مسبقة.[١]

هل ينبغي التعجب من يقظتنا الحذرة التي لا تتركنا «نضعف» أمام خداع حقوقي؟ كانت المساواة الصحيحة خرافة ضمن إطار النظام الاستعماري. ولم يستطع قانون ٨ آذار ان يكون إلا سلاحاً شرعياً يرتد ضد مقدسات «السيادة الفرنسية» الاستعمارية.

كان العدو، سيد البلاد، لا يفتأ يزيد من تسلطه. فكل وعد بالمساواة، من جديد، – على الورق – كان، إذن، كذباً ونفاقاً.

---

١ – انظر مجلة العمل الشعبي، في عددها الخاص «الجزائر اليوم»؛ باريس، كانون الأول، ١٩٥٩.

منذ أكثر من قرنين ، كتب ديدرو ، يقول : « لا بأس أن يملك الإنسان عبيداً ؛ ما لا يمكن احتماله هو ان يملك عبيداً يسميهم مواطنين . »

٢ – الأمثولة الكبيرة عن التقلب البرلماني – الفرنسي – نأخذها من التحول في الأهمية العددية لتمثيل الجزائريين .

رأى المجلس التأسيسي الأول انه من الضروري ، في قانون انتخابي لم يطبق، زيادة ممثلي عشرة ملايين مواطن من ١٤ الى ٢١ نائباً ، والإبقاء على الـ ١٤ نائباً الذين يمثلون مليوناً ونصف المليون. ويعني هذا ما يلي : نائب لكل /٤٧٥،٠٠٠ ألف مسلم ، ونائب لكل ٧١،٥٠٠ ، أوروبي .

ورأى المجلس التأسيسي الثاني – بعد ستة أشهر – ان هذا الميل الى التقليل – ولو رمزياً – من امتياز التفوق الفرنسي في الجزائر ، ميل يتجاوز الحد . هكذا أنقص عدد النواب من ٣٥ الى ٣٠، وخصص ١٥ نائباً لمليوني ناخب مسلم، و ١٥ نائباً ل ٦٠٠،٠٠٠ ناخب لاتيني – أوروبي .

٣ – والأمثولة البرلمانية الكبيرة الثانية، هي المعركة الحقوقية – الإيديولوجية حول موضوع الليبرالية الدستورية في الجزائر او الجمود الدستوري .

يعرف الجميع أن دستور الجمهورية الرابعة كان ينوي تحويل المستعمرات بأنظمتها الاستعمارية الموروثة عن الجمهورية الثالثة الى اتحاد فرنسي تطوري . وما تقوله المادة الستون المشهورة ، معروف أيضاً : « يتكون الاتحاد الفرنسي من الجمهورية بما فيها فرنسا الميتروبوليتانية ، والأقاليم والولايات فيما وراء البحر ، من جهة ؛ ومن الاقاليم والدول المتحدة ، من جهة أخرى . »

وكان الجميع أقل معرفة بما تتضمنه من النسغ الجوهري العامل على إزالة الاستعمار .

سنفاجىء إذن قراءنا بالدفاع عما يستحق أن يُعرف بشكل أفضل. وما أكثر القضاة الصارمين الذين يجهلون عملياً ما يتحدثون عنه بسلطة ، نظرياً .

هذا الجهل المخلص أو المصطنع يعشش غالباً لدى أشخاص لا يُشك بجزائريتهم .

يعتبر البروفسور جاك لامبير الاستاذ في كلية الحقوق الجزائرية أن المادة ٦٠ تنطوي على فهم غير كامل ، إذ يقول :

« الجزائر هي من التكون الاصيل والخصوصية ، بحيث أن الدستور الذي لم يرد أن يحسب حساباً في مادته الستين إلا للمقولات المجردة ، تركها تُفلت، خالقاً هذا التناقض الفريد بإلغائه في آخر الامر الجزائر كما يحددها الاتحاد الفرنسي . »

يعزز هذا الرأي الخاطىء جاك شيفاليه الحاكم السابق في الجزائر ، في كتابه « نحن ، الجزائريين ... » ، حيث يقول (ص ١٧) : « إن انعدام التحديد هذا ، الذي يُؤسف له كثيراً ، أرهق منذ عشر سنوات مصير الجزائر وأتاح المجال للالتباس وأعنف الجدل . »

لكن ، أبداً ! لم تُنس الجزائر .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . »[1]

إن الاستفتاء المزدوج الحقوقي — السياسي الذي يسبق ، يتضمن خطيئة مزدوجة يتبارى فيها عدم التبصر وجهل الواقع والقانون .

هذا سيفاجىء ، على الرغم من القول « لا جهل بالقوانين » ، كثيرين ، كالسكرتير السياسي للحزب الشيوعي الجزائري . فقد كتب في جريدة « ليبرتي » مقالين افتتاحيين ، حول النظام الجزائري ، متتابعين ومتناقضين . كان الاول هدية سلبية ، وكان الثاني صدقة ثورية .

كان رسوخ السيدين لامبير وشيفاليه في علم الحقوق وفقه الشرائع يؤهلهما لشرح القوانين . وهذه كانت بالفعل مهمتهما : كان الاول فقيهاً ، والثاني وزيراً ومشرعاً .

وبدل أن يعجبا لعدم العثور على تحديد الجزائر في المادة ٦٠ — حيث لم يرد إلا اسم فرنسا وحدها — رأيا أن عليهما أن يتصرفا على طريقة القضاة والسياسيين الذين يتصرفون برصانة ونزاهة . ويمكن أن نضيء ونحيي جسداً ميتاً ، نصاً

١ — سورة البقرة ، آية ٤٢ .

قانونياً ، مثلاً ، في محاولتنا اكتشاف الروح الكامنة في نية المشرّع .

إن التدقيق في أعمال لجنة الدستور يظهر لنا ، على العكس ، أن الجزائر لم تكن غائبة عنه. لقد كانت محددة فيه بوضوح على الرغم من الالتباس الحكومي وضده .

أضف الى ذلك انه يمكن ان نرى في الدستور مواضيع غير منتظرة . فحين نشرّح الدستور رقم ٤ ، كما نشرح جثة بقصد البحث الطبي الشرعي ، يتضح لنا السر : لم يمت دستور الجزائر موتاً طبيعياً ، وإنما مات مسموماً !

ويقيم التحقيق الدليل على سابق التصور والتعمد بثلاث وقائع أساسية :

١ – كتب السيد ج. كايتو نص المادة ٦٠ ، لتعديل المشروع الحكومي وإكماله بإضافة تعبير « أقاليم متحدة » إليه . وكان لا بد لهذا التعبير ، وفقاً للغاية التي يهدف إليها المشترعون ، من أن يحسب حساب الفرق في درجة التطور بين الدول المحمية (مراكش ، تونس ، فييتنام) وولايات عبر البحر (المارتينيك الغوادولوب) أو أقاليم عبر البحر (السنيغال ، الخ .)

لم يكن هذا التعبير إذن زخرفاً مفتعلاً لتجميل هندسة فكرية . كان « الإقليم المتحد » ، يتمتع باستقلال داخلي – دون أن تكون له صفة الدولة بمعنى الحق الدولي . كان له إذن هدف محدد وعملي .

٢ – ثم إن الإقليم المتحد أُنشىء لإنهاء الخلاف العميق الذي كان يفصل ، فيما يتعلق بوضع الجزائر المقبل ، بين الحكومة وأغلبية الاعضاء – المؤسسين . فقد كانت الحكومة تعتبر الجزائر « ولاية فرنسية » تشكل جزءاً من الجمهورية. فيقول مثلاً الوزير الفرنسي لما وراء البحار : « سنسير في طريق التحرر الجزائري ، بقدر ما تكون الجزائر ولاية فرنسية » . هذه وقاحة لا مثيل لها ، لإبقاء الشعب الجزائري مكبلاً . إن روح التذويب والدمج هي التي كانت توجه وتسيطر دائماً ، كشكل للسيطرة الاستعمارية الشاملة . وكان ذلك يتم دون أن تعطى لأغلبية الجزائريين، كأفراد وجماعات ، الحقوق نفسها ، على الصعيدين – السياسي والاقتصادي أو الاجتماعي (الاجور ، الضمان الاجتماعي ،

العلاوات ...)

غير أن أغلبية المؤسسين لم تكن لتنطلي عليهم كلمـــات الوزير الاستعماري الكاذب . ولهـــذا فإن السيد بيـــار كوت رد الاقتراح الحكومي : فللشعب الجزائري ، وحده ، الحق بتقرير مصيره .

« علينا إذن ان نضع صيغة ثالثة ، أتمنى ان تكون مرنة واسعة لمواجهـــة الاحتمالات كلها والإبقاء ، عند اللزوم ، على الجزائر إذا فضلت يوماً الاتحاد على الدمج[1] . »

ولم تنجح الحكومـــة في خنق هذه الفكرة الموجهـــة . فقد سيطرت على مناقشات اللجنة . ونحن نراها بكاملها في اشكال مختلفة . وهي واضحة تماماً عند وزير الطيران السابق . وتأخذ دلالة خـــاصة في الاعتراف ، بعد خمسة عشر عاماً ، بمبدأ حق تقرير المصير ، وبعد تجربة قاسية ، ويا للأسف :

« ... ثانياً ، الجزائر ومدغسقر اللتان يجب اعتبارهما جمهوريتين مستقلتين ضمن الاتحاد الفرنسي . ونستطيـع ، إذا وافق ممثلوهمـــا ، ان نضع لهما قوانين تنظيمية بشرط ان تتبـع ذلك ذلك دعوة شعبيهما للاستفتاء[2] . »

هكذا يتضح بشكل لا جدال فيه أن الدستور قد اشار الى « الولايـــة المتحدة » ليتيح للجزائر الخروج من سجنها – الجمهورية الفرنسية -- والاتجاه نحو التحرر القومي التطوري .

ايضاح الحقيقة اعتماداً على بصيرة الأغلبية من الأعضاء المؤسسين وكفاءتهم ، هو أسلوبنا في تحية وطنيين فرنسيين يحبون بلادهم دون ان يضطرهم هذا الحب الى كره وطنيتنا ، وهو منهجنا في التعبير عن امتناننا الصادق للديموقراطيـين المخلصين لروح المقاومة ، والذين حاولوا ان يساعدوا الجزائر لتتحرر من النـير الاستعماري .

٣ -- البرلمان الفرنسي هو الذي فضح فرنسا عام ١٩٤٧ . فلحظة كان يحضر

---

١ – محاضر جلسات لجنة الدستور (١٢ - ٩ - ١٩٤٦ ، ص ٥١٣) .

٢ – جلسة ٣١ تموز ، ١٩٤٦ ، ص ٢٤٥ .

نظام الجزائر ، رفض البرلمـــان ان يلتفت او يعتبر اي مشروع يستلهم فكرة « الولاية الاتحادية » التي اشير اليها في دستور الجزائر ومدغسقر .

كانت فرنسا الاستعمارية الناكثة، برفضها مبدأ من مبادىء دستورها الخاص، تمنح الجزائر نظاماً لقيطاً يتمثل في « فئة الولايات » – وهـــذه صيغة تشريعية مستحدثة لم ترد في المادة ٦٠ التي تحدد الاتحاد الفرنسي .

لقد تمت خيانة الدستور الفرنسي الذي كان يهدف الى « ان يضع ، حقوقياً، حداً للنظام الاستعماري » واهينت إرادة اكثرية الشعب الجزائري ، التي يعبر عنها النواب الذين انتخبهم بالاقتراح العام .

كانت هذه الخديعة تؤكد الغدر العادي عند حكومات النخاسين الوحشيين. وكانت تجعل التطور السلمي لبلادنا المتعطشة الى الحريـــة والاستقلال امـــراً مستحيلاً . وبدل التدرج من صيغة لأخرى ، وفق ما ترسمه المـــادة ٧٥ – من الولاية المتحدة الى الدولة المتحدة، فإن البرلمان الفرنسي قد اختار بقاء الاوضاع على حالها . وبدل ان تفيد الجزائر ، وفق رغبة المؤسسين المشرعين ، من حرية جزئية داخل اقليم مستقل مرتبط بفرنسا ، فإنها ألقيت في قفص حقوقي ... دون اية نافذة دستورية تتيح للحرية ان تخرج منها .

كانت هذه هي المقدمة المكيافيلية لقفص الاسود الهائـــل الذي سيقيمه الاستعمار الضاري فوق تراب وطننا غير المروض : اسلاك شائكة مكهربة من خطوط موريس حتى تونس ومراكش ، وشبكة هائلة ثلاثـــية من الاسطول الراسي في المتوسط ، وحاجز تيليدينامي في الصحراء مـــدعوم بالطيران والرادار .

وكانت هذه التدابير ، سواء اتسمت بالحيلة او العنف ، تدابير فاشلة ، ترتد ضد حكام الباليه بوربون .

« وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم . »[1]

---

١ ـــ سورة البقرة ، آية ٢١٦ .

كان الاستعمار الفرنسي يرتكب اذ ذاك خطيئة لا نمكن تلافيها . فقد كان ، بتصرفه المزري مع نواب المانيفستو الجزائري ، يضرب الإيديولوجيا القومية — الإصلاحية ، الضربة القاضية .

كان يذكّر الذين يميلون للنسيان او الغفران ببربرية الاضطهاد الذي ادى الى موت خمسة واربعين الف شخص في الجزائر ، وتسعين الف شخص في مدغسقر .

وكان الاستعمار الفرنسي ، بعماه وتعطشه للدم وانتهاكه حرمة دستور فرنسا ، يجعل لجوء الجزائر إلى الصراع امراً لا مندوحة منه .

القتال حتى الموت هو الحل الاخير !

كان التلون الاستعماري الفرنسي يستخدم جميع الوسائل ليبقي الشعوب مستعبدة . وتنفضح النية السيئة ضد الجزائر حين نعرف ان صيغة « الولاية المتحدة » التي رفضت ان تطبق على الجزائر ، طبقت تلقائياً على الكاميرون ، المستعمرة الالمانية السابقة ، التي وضعت مؤقتاً تحت إشراف الامم المتحدة . وقد سارع الاستعمار الفرنسي ، عام ١٩٤٦ ، مستبقاً إعلان استقلال الكاميرون ، من قبل الامم المتحدة الى إعلانها « ولاية » متحدة ضمن الاتحاد الفرنسي . »

هكذا يلغى حق الشعوب في تقرير مصيرها ... هكذا يُطمس الاستقلال الذاتي .

صارت « الامبراطورية » « اتحاداً » غير ان هذا التحول لفظي وحسب . فإن « الاتحاد » الفرنسي بقي بالنسبة للشعوب المستعمرة « السجن » الفرنسي .

إن الخداع الحقوقي – الدستوري للمحافظة على الكاميرون بأمل وضع الامم المتحدة امام الامر الواقع او بقصد إخضاع الجزائر وقهرها ؛ – إن هذا الجشع الكريه لا يريد ان يترك فريسته .

استطاع التطور السلمي المرحلي الذي تخيله الدستور ان يرضي المأخوذين بفكرة الحقوق والذين يصعب إرضاؤهم . غير ان ما كان ممكناً ان يحدث دون عنف ، أُهمل تحت ضغط العدوى الثورية . وفي عام ١٩٥٧ صار الكاميرون دولة تحت الوصاية ، تتمتع باستقلال داخلي ، وتكون الحكومة مسؤولة امام

الجمعية التشريعية في ياوندي .

وتبعت ذلك السيادة الخارجية لكل بلدان أفريقيا السوداء التي اعتبرهـا دستور فرنسا لعـام ١٩٤٦ أهلاً لأن تقف وراء الجزائر ومدغسقر في قافلة التحرر القومي .

غير أن الحلم شيء والواقع شيء آخر . فإن الضربـة السيئة التي وجهت الى الجزائر زعزعت الأسس التي يقوم عليها الاتحـاد الفرنسي ، ووحدة المصالح الفرنسية .

كان فشل العمل البرلماني تجربة لا بد منها . فقد بدد وهم تحويـل الذئب الى نعجة . وقضى بصورة نهـائية على الفكرة التي ترسخت في أعمـاق المثقفين الجزائريين : التطور سلمياً ضمن إطار النظام الاستعماري .

لم تكن الإيديولوجيا الثورية لتنتصر على الإيديولوجيا الإصلاحية ، دون هذه التجربة البرلمانية . ولا ثورة ظافرة ، بغير هزيمة الإصلاحية .

كان مثقفونا يُنكرون جدوى العنف ، ليس بتـأثير نشأتهم الاجتماعية وحسب ، بل أيضاً بتأثير ثقافتهم الفرنسية . كانوا يظنون أن فرنسا – ١٧٨٩ التي كانت « تزرع الجمهوريات » في أوروبا ، سوف تتابع رسالتهـا الديموقراطية بتطور التاريخ ، ذاتـه . يكفي إذن أن نعلن بطلان الاستعمار المتخلف حتى لا تظل « العدالة في ملاحقتها الجريمة » صورة جامدة في اللوفر ، أو قوس النصر .

ولكي نفهم كيف نَفِدَ صبر الشعب الجزائري مع التجربة البرلمانية ، لا بد أن نعرف أن هذا الشكل من العمل كان يُعتبر علاجاً عاماً ضد الاستعمار .

كان تمثيل « الوطنيين الجزائريين » في البرلمان الفرنسي شعـاراً أطلقه نواب « أصدقاء للعرب » ، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ .

كانت فرنسا منتصرة على ألمانيـا – غليوم الثاني . وقد عملت ذكرى فشل الثورات المسلحة عام ١٩١٦ ، في الأوراس ووهران ضد التسجيل بقصد الخدمة العسكرية ، وانعدام التنظيم السياسي ، على تعزيز الشعور بعدم القـدرة على التخلص من نير الاستعباد .

وكانت الحكومة الفرنسية، إظهاراً منها « شكر » فرنسا لولاء « الوجهاء »، قـد منحت المسلمين في المدن ، حق التصويت في الاقتراع المخصص لتعيين مستشارين بلديين لا يجوز أن يتجاوز عددهم ربع عدد الأوروبيين . كان الحاكم والملحقون او المندوبون أوروبيين فقط . حتى وكيل المدافن الإسلامية كان أوروبياً !

وكانت إدارة البلديات موجهة بكاملها لخدمة السكان الأوروبيين . وهناك مصدر حقوقي يشير الى احتكار الاعتمادات التي تمنحها الحكومة الفرنسية من أجل أعمال « بلدية » . ويعطي مثلاً على ذلك بلدية تيزي - ايزو التي أعطت الاعتماد المخصص لمساعدة المسلمين العاطلين عن العمل ، الى أوركسترا أوروبية محلية .

كان الجزائريون إذن مدفوعين طبيعياً للتفريق بين «الأخيار» و« الأشرار» ، بين فرنسيي فرنسا وفرنسيي الجزائر . وسرعان ما صار البحث عن حليف في باريس ضد عدو الجزائر تكتيكاً بارعاً . وصار تمثيل الجزائريين المسلمين في مجلس النواب مطلباً أساسياً من مطالب الحركة المناهضة للاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى .

كان لهذا التيار القومي - الإصلاحي جذور شعبية عميقة في المدن وفي الريف . وكان الأمير خالد ، الرئيس السابق في الجيش الفرنسي ، هو الذي يحركه ويوجهه . وكان يصدر جريدة دورية باسم متلألىء : الإقدام[1] .

إنه هو ذاته الجزائري الذي كان سيسير في مقدمة الشعب ، والذي كان طليعة الانتفاض على الظلم ، والذل والبؤس ، والذي كان يُعتبر شخصية كبيرة من شخصيات الجزائر . إنه حفيد الأمير عبد القادر الجزائري .

وقد نفي كجده إلى فرنسا حيث تابع الدعاية القوية بوساطة المقالات الصحفية ، والاجتماعات العامة ، وزيارات الشخصيات السياسية . ومرة عاتبه

---

١ - بالعربية في الاصل .

إدوار هريو لقبوله معونة الشيوعيين الفرنسيين . فرد عليه الأمير خـــالد بمقالة مشهورة ، تناقلتها الأيدي في الجزائر ، طويلاً ، كوصية سياسية .

وبعد سنتين ، لمناسبة الانتخابات البلدية في الجزائر ، ترأس قائمة انتخابية ، كمرشح العفو العام . وكان سيُنتخب الأمير خـــالد بأكثرية ساحقة مع لائحة الاتحاد القومي المناهضة للاستعمار ، والتي كانت تضم للمرة الأولى ، بورجوازيين كباراً ، وصناعيين ، ومثقفين ، وعمالاً نقابيين أو أعضاء في الحزب الشيوعي !

فقد كانت الحملة الانتخابية استفتاء شعبياً لا ريب فيه . إذ سيطرت الحماسة على جميع سكان مدينة الجزائر وضواحيها . وكانت تتشكل على أثر خروج المصلين من الجوامع ، مواكب تجتاز شوارع القصبة والماران وبيلكور . وكان المتظاهرون يوقعون ويرددون هذه الكلمات : ألله ينصر سي خالد[1] ، وكان يرددها أيضاً العابرون ، والتجار وزبائنهم والأطفال ولاعبو الدومينو الذين كانوا يخرجون من المقاهي لرؤية المتظاهرين .

غير أن الاستعمار الفرنسي ، وقد جُنّ جنونه من قوة التيار الشعبي ، اعتبر الأمير خالد شخصاً « لا يحق له ان ينتخب » بمقتضى القانون الخاص بالمواطنية الجزائرية ، الذي يجرّد آلياً كل جزائري اعتُقل أو نُفي أو أُبعد من الحقوق المدنية .

وطبيعي ألا يؤخذ بعين الاعتبار كونه محارباً قديمـاً في الحرب الاولى ، أو ضابطاً سابقاً في الجيش الفرنسي ، أو حـــائزاً على وسام الليجيون دونور ... كذلك لم يؤبه لتدّخل النائب المسلم في السنغال .

على العكس . كان هذا الماضي المشرف عنصراً مشدداً في نظـــر الاستعمار الذي لم يكن يقبل أو يصدق ثورة « مرتزق عربي – مسلم » . وهكـــذا نفي المجاهد الجزائري الى فرنسا . ومنهـــا نقل ، كجده ، الى سوريـــة ، المحمية الفرنسية آنذاك . وعلى الرغم من كونـــه بعيداً في دمشق ، فقد بقي اسمه في الجزائر رمزاً لا يُنسى لمقاومة الطغيان . وظل طلاب الجزائر ، بعد الانتخابات

---

١ — بالعربية في الاصل .

المشهورة بشهور عديدة ، أمناء على مظاهرتهم التقليدية : حين يتركون مدارسهم الساعة الحادية عشرة ، والساعة الرابعة ، يعودون الى بيوتهم في موكب يعيد ذكرى الماضي ، مرددين الشعار المعادي للاستعمار : الله ينصر سي خالد !

وحفظ ايضاً ذكرى الأمير خالد ، في نضارة دائمة ، فيكتور سبيلمان ، وهو ملاّك صغير قضى عليه الملاكون الكبار بحقدهم المنتقم . فمنذ ان صار ناشراً لا تلين قناته حتى موته عام ١٩٤٠ أو ٤١ في الجزائر لم يتوقف إطلاقاً عن نشر مقالات وخطب المجاهد المنفي من وطنه ، في كرّاسات يبيعها بقيمة زهيدة .

وقد أصبح اسم الأمير خالد ، الذي يحيط به كالهالة المجد الذي لا يزول – مجد جدّه الأمير عبد القادر الجزائري ، – أصبح راية لمناهضي الاستعمار ، من وطنيين أو اشتراكيين ثوريين في تلك الفترة البطولية .

كان برنامجه المؤلف من عشر نقاط يشكل ميثاق الشعب الجزائري بمجموعه. إذ أنه كانت هناك الى جانب التمثيل البرلماني ، شعارات الكفاح ضدّ :

١ – القانون الخاص بالمواطنية الجزائرية والقوانين الاستثنائية في منطقة الصحراء ؛

٢ – قانون الغابات، وهو يتصف بالروح الإقطاعية إذ يمنع حق الرعي في الغابات ، ويسن مبدأ الحراسة بالسخرة ومجاناً ، والغرامة الجماعية في حالة نشوب حريقة ... ؛

٣ – الاغتصاب المستمر لأراضي الملكية الجماعية أو الخاصة، ونهب الفلاحين لحساب الاستعمار الرسمي أو الحاكم اللص ، باسم « المصلحة العامة » .[1]

نحب للمناسبة أن نحذر من العصبية الساذجة التي تريد أن تنظر إلى أنصار

---

١ – ازدادت في المرحلة الاخيرة ، مساحة أراضي الاستعمار بمعدل الثلث ، أي حوالي مليون هكتار . وكانت الإدارة الاستعمارية تحرص دائماً على منع الفلاحين من شراء الاراضي «اللاتينية». ولم تكن تتردد ، لهذا الغرض، في الاستناد الى حق الشفعة . هكذا تم نقل الملكية إذن في اتجاه واحد لمصلحة الاستعمار ، مع الميل إلى التمركز الرأسمالي .

الأمير خالد بعيني التروتسكية أو تستخدم توازن التاريخ لكي تدرس بالمقارنة ، وضعاً بطولياً ، مختلفاً وفي ذمة الماضي ، معتمدة على قياس غير صحيح .

كان الحزب الشيوعي الفرنسي قد أنشأ في ذلك الوقت « نجمة أفريقيا الشمالية » ؛ وهي منظمة سياسية قومية – ثورية تهدف إلى تنظيم المغاربة العاملين في فرنسا . ولم يكن انتشارها قوياً على الرغم من الشعار الذي كانت تطلقه : استقلال شمالي أفريقيا .

وفي ذلك الوقت أيضاً ، كانت المطالبة ، في فرنسا ، باستقلال الجزائر ، أكثر سهولة من المطالبة ، في الجزائر ، بتمثيل المسلمين في البرلمان الفرنسي . وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفرق بين الحرية المسموح بها للجزائريين في كل من فرنسا والجزائر ، نرى أن المطالبة « بالانفصالية » في باريس كانت أكثر سهولة من الوقوف مع « الدمج » ، في الجزائر .

كان الحاج علي عبد القادر مؤسس « نجمة أفريقيا الشمالية » يقدر أن يقوم بكل حرية ، بحملته الانتخابية كمرشح شيوعي في مجلس باريس البلدي ، مطالباً باستقلال الجزائر ، ومراكش ، وتونس . إلا أن مؤسّساً آخر لهذه المنظمة ، هو معروف محمد ، المناضل النقابي الذي كان يعقد الاجتماعات في فرنسا بحرية ، اعتقل في ميناء الجزائر ، لدى هبوطه من السفينة ، وأرسل للإقامة الإجبارية في الصحراء ، دون ان يتفوه بكلمة !

كان التصريح بأن « السيد مارسيل كاشان رجل ذكي » ، سبباً كافياً لدى محكمة « فيليبفيل » الزجرية (كذا) للحكم عشرة أشهر بالسجن الشديد على هذا المعجب بمدير جريدة « الأومانيتي » .

وكانت الدعوة ، في فرنسا ، إلى إضراب عام ضد الحرب المراكشية أكثر سهولة من الظهور في الجزائر بمظهر المتمرد على السلام الذي يطالب به كل جندي فرنسي ، لأن هذا التمرد كان يعني خرقاً لمقدسات « السيادة الفرنسية » .

كانت المطالبة بتمثيل المستعمَرين في برلمان الدولة المستعمِرة – وفي جو الديكتاتورية الاستعمارية لقانون المواطنية الاستعبادي – ؛ كانت هذه المطالبة ،

في الجزائر ، آنذاك ، برهاناً على الشجاعة السياسية وإنكار الذات .

وكان ما يزال للمطالبة التي عممها وأطلقها في الشعب الأمير خالد أنصار بوطنية وشجاعة واضحتين كالشمس .

لا يجوز أن ندهش لرؤيتنا الديماغوجية الفاشية تبدأ اهتمامها بهذه الأمور عام ١٩٤١ . وقد عرف بيتان أن يتملق البورجوازية العربية بدعوته أربعة وجهاء للاشتراك في مجلس فيشي القومي .

ولا يجوز أن ندهش لرؤيتنا الحركة القومية الإصلاحية تنتعش مع انتخابات الجمعية التأسيسية ، التي جرت تماماً بعد «التمرد العربي » في أيار ١٩٤٥ ، والذي غرق في الدماء . وهذا مما سهل التقارب مع الإيديولوجيا الاشتراكية – الديموقراطية ، رسالة الخصيان « الماركسيين » الحراس الغيورين على القصر الاستعماري : كل عطلة فيها خير » .[1]

وكان الاستعمار الفرنسي ، وقد امتلأ بلادة وصمماً عقلياً ، قد رفض بوحشية تعاون الجزائريين المهيئين لسلوك الطريق البرلمانية ودفع بلادهم ، دون اصطدام ، في اتجاه التقدم الى ان يزول عنها الاستعمار كلياً .

إذن ، لا « جمهورية جزائرية » ولا « جمعية تأسيسية جزائرية » ولا حتى مجرد « حكومة جزائرية للشؤون الداخلية » .

لقد تحقق الجميع من هذا الحقد الاستعماري الضاري خلال المعركة البرلمانية ضد نظام ينسجم مع الدستور ، نصاً وروحاً ، أو من اجل هذا النظام.وأكدت هذه المعركة ذكاء الثوريين وتبصرهم وعزيمتهم . وملأت الهوة الايديولوجية التي كانت تفصل بين الاتجاهات المختلفة للعمل الوطني ، فيما أكملت هزيمة الاتجاه الإصلاحي .

وحتى ذلك الوقت ، وعلى الرغم من الأخطاء التكتيكية المتراكمة منذ ثلاثين عاماً ، كانت سياسة « رفض السيطرة الاستعمارية بواسطة التطور »

---

١ ـــ بالعربية في الاصل .

تتجدد ، رغم الاختبار المخيّب .

لم يمح نوم الذاكرة ذكرى البادرة التي قامت بها « حلقة التقدم » ، حين نظمت تظاهرة واستعراضاً يتقدمه علم كبير بألوانه الثلاثة – الأزرق والأبيض والأحمر – احتفالاً بمجيء « رينيه » وزير الداخلية المشؤوم ، الى الجزائر . وقرب المحطة الكبيرة ، ضرب المتظاهرون الذين يصرخون : « عاشت فرنسا » وجلدوا...ودعسوا لحظة كان العلم الفرنسي أيضاً ينتزعه ويمزقه ويمرغه البوليس « الفرنسي » الذي يخاف العربي خوفاً جنونياً .

كان ذلك عام ١٩٣٥. وقد خصصت « الديبيش ألجيريين » جريدة الاستعمار الجشع ، صفحتها الاولى كلها لنشر وثيقة داخلية للحزب الشيوعي الجزائري ، (منشور موقع باسم بارتيل) ، توضح أن « الجزائر ليست فرنسا » . على أثر ذلك ، عمّت البطالة . وصار كثير من الاطفال والنساء لا يجدون لقمة خبز . وفي الوقت نفسه كان ملوك النبيذ يظهرون استياءهم للحكومة ، حامية الكروم في جنوب فرنسا ، ويهددون بإغلاق الإدارات الرسمية عن طريق إضراب إداري الى أجل غير محدود .

وقد أرسلت الحكومة ، التي وجدت نفسها بين نارين ، وزيرها للاستطلاع . وردّ الرئيس مولليه بشجاعته حكم الوزير ، بالطريقة المشهورة عام ١٩٥٦ . كان واجباً «إذلال» العرب والشيوعيين بمنح الجزائر مرسوم رينييه الذي يشدد قانون المواطنية الجزائرية بزيادة عقوبة التطاول على مقدسات « السيادة الفرنسية » من سنتين الى خمس سنوات . أما رأينا ، عام ١٩٤٥ ، احد المناضلين يحكم بالسجن سنتين لأنه « أهان بالنظر (!) قائمقاماً » ؟

وعام ١٩٤٧ ، أقر عجزة سياسة الاستجداء، بنتيجة اختبارهم الخاص ، أن سياسة« الدبسة والدبوس[١] »، سياسة اللكمات وتحطيم الرؤوس ، هي وحدها تستطيع ان تنتزع من الاستعمار الحق الموعود دائماً المرفوض دائماً .

---

(١) بالعربية في الاصل .

لم تكن تجربة « الباليه - بوربون » عديمة الجدوى. كان كل عمل استعماري، كل خداع، حلقة ضرورية لإكمال سلسلة الثقافة السياسية - الاجتماعية في الشعب الجزائري. وكان لتكرار الوقائع قيمة تربوية أكثر فعالية من الدعاية وحدها.

وقد برهن الرياء الاستعماري - الجمهوري على ما يلي:

١ - ليس العمل البرلماني علاجاً عاماً. ليست له صفة تختص به. إنه كأشكال العمل الجزئي الأخرى: العمل النقابي، أو الاقتصادي، أو الإصلاحي، أو الانتخابي ... الخ. وهو كجزء لا يمكن ان يفيد إلا اذا أقر بفعالية القطاعات الأخرى ناظراً إليها ككل.

٢ - العمل البرلماني منبرٌ - مدرسة، يسهّل الانتقال من الدعاية الى النقد الواقعي البنّاء. إنه تدرُّج لا يُستغنى عنه لتكوين رجال الدولة. فيه يتم التآلف مع أجهزة السلطة وسير الديموقراطية ذات الحظوة في البرلمان البورجوازي.

وقد نعرف ان نكشف القوى الموجهة غير الظاهرة، لكن الحقيقية. فكل بروز للتناقضات الداخلية المحتومة خنق في مهده. وتحولت الأكثرية البرلمانية الى قطيع من الخراف، وكان رئيس الحكومة الفرنسية « يشبه، إزاء الزرائب، ملك المقاطعة «البورج» الصغير الأعزل كلياً تقريباً، إزاء الإقطاعيين الكبار ».

يمكن إذن التدرب على تقدير التأثير الذي تمارسه فئات « الضغط » من خارج البرلمان والتحسس بالفساد الاقتصادي والمالي والأخلاقي والبوليسي ...

أكيد، كنا نعرف تعفّن النظام الاستعماري. «فنجان القهوة» أو « ملح اليد[١] » اصطلاحان جاريان يعبران عن طريقة الحصول على مساعدة الموظف أو المسؤول: الشرطي من أجل إجازة، والحاكم من أجل شهادة ولادة، والضابط للإعفاء من الخدمة العسكرية، والقاضي لربح دعوى في قضية حسنة أو سيئة. كانت الرشوة[٢] عطاء أكثر فائدة في شراء حاكم أو مدير. وربما كانت هذه

---

١ - بالعربية في الاصل.

٢ - بالعربية في الاصل.

الرشوة جوهرة رأتها وأعجبت بها واشتهتها زوجة المدير أو الحاكم ، في أحد الأعياد العربية ...

كان الناس جميعاً يعرفون ان السيد ميرانت ، المدير الدائم « للشؤون الوطنية » كان يبيع البرنس الأحمر ، الشعار الخاص بالحكام الإداريين والقضائيين ، بسعر معروف : مئة ألف فرنك ! وكان الناس لا يفاجأون إذا سمعوا أن ابن رئيس الجمهورية الفرنسية يبيع مباشرة صلبان الليجيون دونور أو إجازات بفتح بيوت لألعاب القمار ...

وما كان يصدم المستعمَر هو أن يجد في باريس العادات والأخلاق ذاتها ، لكن بشكل أكبر وأعلى . فلقد تحول البخشيش[1] القديم على الطريقة التركية ، إلى مؤسسة جماعية ضخمة على الطريقة الأمريكية . « الباليه – بوربون » عالم غريب يصعب فيه «التمييز بين القط والفأر . » النواب ، الوزراء ، الصحافيون ، الأشخاص ذوو « الأوضاع » الجيدة يتشاركون في بورصة الضمائر . وأحياناً ينقلبون إلى عصابة حقيقية في بعض القضايا المتعلقة بصناعة الخمور .

كان « السقي » يتم بسرية شديدة أو خفيفة . وما كان يثير في الماضي فضيحة مثل قضية باناما أو ستافسكي بأصوات من البراءة الغاضبة لم يعد إلا حادثاً مفاجئاً يموت في حينه .

ولم يهمل الاستعمار قط ، استخدام هذا التعفن البرلماني . إنه يعرف أن يضع ، في كل مناسبة « ميزانية حرب » تغذيها ضريبة تؤخذ على كل هيكتوليتر من الخمر أو كل قنطار من القمح. فلقد كان الاستعمار يحمي امتيازاته من كل خطر يهددها ، باللجوء إلى سلاح الثورة والتعفن. لذلك لم ندهش حين كنا نرى الجزائر – المستعمَرة تملي إرادتها على فرنسا – المتروبول .

٣ – ليس العمل البرلماني كيمياء تلد القوانين بسحر الفصاحة عند الديماغوجي أو المهارة التكنية في ديبلوماسية تجار الخمور .

---

٢ – بالعربية في الاصل .

« الاتحاد قوة » ؛ هـذا مبدأ يصح أيضاً حتى في داخـــل جمعية تشريعية أجنبية .

٤ – يعكس العمل البرلماني علائق القوى في البلد ، سواء في الجزائر أو في فرنسا . والضغط الشعبي هو العامل الحاسم .

كل ما يعطى بيد ، يمكن ان يسترد باليد الثانية . واحياناً كانت الحكومـة الفرنسية تجد نفسها عاجزة عن تطبيق قانون وافقت عليه ونشرته في الجريـدة الرسمية .

أ – صنّف نظام الجزائر ، الذي وضعت لأجله خصيصاً صيغة « الولايـــة المتحدة » – صنّف بطريقة غير دستورية في باب هجين بقصد التأمين اصطناعياً، على بقاء الجزائر « فرنسية » .

ب – اعتبر نظام الجزائر ، الذي منح بشكل مُهين ، جـــريئاً وخطراً . لهذا كان تدخل الشركات الاستعمارية في انتخابات الجزائر ، سافراً ومـدروساً مسبقاً لتأمين أكثرية رجعية .

ج – إن نظام الجزائر ، الذي وافق عليه المجلس النيابي الفرنسي ، لم يطبق مطلقاً في مواده التقدمية ، إلا كُرهاً : الحريـــة الدينية الإسلامية ، إصلاح أمـــلاك الوقف ، حق الانتخاب للمرأة المسلمة ، إلغـــاء الكومونات المختلطة والمناطق الصحراوية ، حرية الصحافة باللغة العربية ...

أما بالنسبة لتعليم اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية ، فلم يسمح به إلا في تشرين الأول ١٩٦١ .

لزم إذن أن ننتظر أربعة عشر عاماً ، أمضينا نصفها في الحرب ، لنحـــلم بتطبيق مبدأ أعلنه نظام ١٩٤٧ . كذلك الأمر فيما يتعلق بمشروع (!) يقضي بإحداث مئة وعشرين مركزاً لمعلمين يدّرسون اللغة الفصحى[١] واللغة الدارجة[٢]

---

١ – بالعربية في الاصل .

٢ – بالعربية في الاصل .

في بعض المدارس الابتدائية التي يعمل فيها جهاز تعليمي لا يستغنى عنه .

ونذكّر أن الاستعمار الفرنسي ، خلال هذا الوقت، لم يلغ الصحافة العربية فحسب ، وإنما أغلق أيضاً أكثر من مئة مدرسة بعدة صنوف، كما أغلق معهد بن باديس منبت أساتذة المستقبل .

هذا هو المظهر العملي للجاهلية التي كان تمارسها باستمرار عبقريـــة التمدين الكاذبة لفرنسا الاستعمارية .

وبالمقابل ، فإن العمل الشعبي يقدر ، إذا كان ذا قوة كافية ، ان يفرض على الحكومة حقوقاً مكتسبة حتى قبل ان ينص عليها القانون المكتوب .

مثلاً ، أهملت عام ١٩٣٦ قوانين المواطنية الجزائرية قبل ان تلغى . وعام ١٩٤٣ ، استأنفت النقابات العمالية نشاطها العام قبل استرداد القانون القاضي بذلك ؛ وترك المحكومون بالإعدام من قبل حكومة فيشي ، مخابئهم واستأنفوا حياتهم العادية قبل إبطال الأحكام الغيابية الصادرة بحقهم .

ورفع ، عـــام ١٩٦٠ ، العـــلم الأخضر الأبيض في المدن أو في الأحياء الأرستوقراطية ، قبل ان يسحب علم الأمير عبد القادر من بـين قدمي تمثـــال الجنرال بوجو الذي رفع في ساحة إيسلي ، في قلب جزائرنا الجـــامحة ، العصية على الترويض .

وفي عام ١٩٦١ انتهى مجلس الشيوخ الاتحادي قبل إلغـاء القسم الثاني عشر من دستور الجمهورية الخامسة ، الذي أُقر باستفتاء قبل ثلاث سنوات سابقة .

« لقد تخطى الزمن اليومَ القوانين التنظيمية الصادرة في كانون الاول عـــام ١٩٥٨ ، ذلك أنه منذ زوال الصلاحيات العـــامة تعدلت الأوضاع التي طبقت عليها . ويمكن تشبيهها بقوانين فرانسوا الأول حول صيد الذئاب ، والتي لم تعد لها أية فائدة غير الفائدة التاريخية منذ انقراض الذئاب في فرنسا[1] . » .

١ــ جريدة اللوموند ، ١٢ ـ ٤ ـ ١٩٦١ .

وخلال ثلاث سنوات ، أصبح دستور الجمهورية الخامسة الديغولية ، هرماً .
ومع نيل الدول الأفريقية استقلالها العاجل ، سرعان مـــا أخذ الواقع يسبق الحق ...

وبفضل الثورة الجزائرية ، حطم الواقع التاريخي الرتاج القانوني !

جبهة التحرير الوطني

« أيها الراقدون تحت التراب .

آه ، لو تسمعون ... »

حين انتهت هذه الأغنية المصرية ، قال مذيع راديو طنجة : « استمعتم إلى أغنية للاستاذ عبد الوهاب ، طلبها مستمعونا ، وهي مرفوعة الى الجزائريين . »

لم يكن يبدو أن أحداً في المقاهي ، وسط دخان التبغ وصياح لاعبي الروندا[1] والشيش – بيش[2] يعير انتباهه إلى هذه « التحية الجماعية » غير المعهودة من إذاعة طنجه . ومع ذلك ، فحتى هؤلاء الذين لم يشاهدوا منظر المقبرة في فيلم « دموع الحب » يفهمون معنى التذكير الساخر بلازمة « دموع الحب » ، والذي يخلط على نحو غريب الجزائريين بالموتى الراقدين في مملكة « بلوتون[3] » .

كنا نترقب كل مساء تقريباً الإهداءات التي تنقلها الإذاعة إلى الجزائريين... كان هذا التهكم التمثيلي المحقّر يحولنا الى « جثث – حية » كما في الأسطورة الأفريقية التي تقول إن عبيد جزر الأنتيل « صاروا بشراً آليين » ، إما بالتنويم

١ـــ لعبة ورق اسبانية .

٢ـــ هكذا في الاصل ، ويقصد لعبة طاولة الزهر ، كما تسمى هنا .

٣ـــ اله الموتى وملك الجحيم في الميتولوجيا اليونانية.

المغنطيسي ، أو بالمخدرات . »

ألا يكون الجزائري ، في عين الدعاية الحربية الاستعمارية ، شجاعاً إلا اذا كان جندياً مستأجراً ومخموراً ؟ وهل اذا ترك وشأنه ، دون مساعدة ممن يستغله ، سيكون غير أهل لإيجاد طريق الخلاص والدخول الى عالم الشعوب المتحررة ؟

من المؤكد أن الاستقلال القومي لا يناله إلا من قرر ان يظفر به ويرويه بالدماء ...

« وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق »

ومع هذه الحرية عند الشاعر العربي الشهير ، يتجاوب الخلود عند غوته ، إذ يسأل طالب الجنة هكذا :

« هل أنت من عداد الأبطال ،
أين هي جراحك ؟ »

إن تضحية المجاهد ، كما يرى الشاعر الألماني الكبير ، هي جواز المرور الذي يمنح الحق بالمجد والبقاء .

« ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون[1] » .

الجزائري المتمسك تمسكاً عميقاً بالأخلاق الإسلامية ، يسهل عليه أكثر من سواه ، التحرر من قلق الموت . فمنذ طفولته الاولى ، يتعلم ألا ينام قبل تلاوة قانون إيمانه لكي يلاقي الموت الأبيض باطمئنان . وبعد ذلك يجابه دون خوف ، الموت الأحمر ، دفاعاً عن شرفه وحرمته . وحين يتعلق الأمر بشرف وطنه ، هل سيكون كدودة الارض يعجز عن عمل أي شيء آخر غير الزحف ؟ هل سيكون غير خليق بأن يرتفع الى مستوى الفراشة التي يغنيها غوته نفسه :

« الكائن الحي الذي يريد ان يبحث عن الحياة في اللهيب ؟ »

---

١ — سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

العالم كله يتساءل .

لم يكن أحد يفهم ، من طنجه الى بكين ، نوم الجزائريين السياسي . وكان حجاج المغرب في مكة ، وجبل عرفات ، والمدينة يمطرون بالأسئلة المقلقة من الحجاج الآتين من أطراف الدنيا .

كان يخيل ، في عالم ثائر تخلع فيه الشعوب المستعمرة نير المستعمر الكريه ، أن أسود الأطلس ارتضوا الخيبة ، واختاروا الخضوع ، وتخلوا عن الكفاح من أجل الكرامة .

وكان أسياد الاستعمار ينتصرون ...

« حوحو يشكر روحو[1] » – الإدارة الاستعمارية تثني على نفسها بنفسها. تمتدح مهارتها و « رسالتها التمدينية » التي تحمي الجزائر من الاضطرابات المخربة.

وباستثناء ثورة موكراني العامة ، سنة ١٨٧١ ، والحرب القومية الكبرى التي أعلنها عبد القادر (١٨٣٠ – ١٨٤٨) فإن عمل الاستعمار كان يقتصر على قمع الثورات العديدة ، لكن ذات الصفة المحلية ، التي يسببها البؤس أو الجوع أو الغضب . وكانت ثورات فلاحين وعائلات يؤلفون غالباً جمعيات أخوية دينية .

كان ضباط « المكاتب العربية » يفتخرون أنهم « يحسون » اقتراب الثورة المسلحة. كانوا « يعتنقون » الإسلام ويدخلون في الجمعيات الدينية ، فيمهدون بذلك لدور الكولونيل لورنس ، لكن دون ان يؤيدوا قضية الثوار . وغالباً كانوا يمثلون دور المحرضين ، فيدفعون الى الثورة في مناطقهم وإعلانها قبل الأوان ثم « يفصدونها » كالدمل . والغنيمة هي : النصر ، شريطة الترقية ، الهدوء ...

ألم يصل الفلاحون إلى أن يعتادوا احترام السيادة الفرنسية احتراماً غريزياً ؟ ثم ، ألم يصر الكبش حملاً عاجزاً هلوعاً – كما يقول المثل القبائلي ؟

أما خاب السكان المدنيون أنفسهم ، عام ١٩٥٤ ، وتعبوا وتألموا من

١– بالعربية في الاصل .

ديماغوجية القومية الكلامية ؟ كانت الحياة السياسية تبدو وكأنها تقلصت الى مشاجرات أسبوعية بين « الاخوة الأعداء » . فقد كان رجال الكوماندوس التابعون للحركة المصالية ، يهاجمون بالسكاكين ، الذين يبشرون بعدم الانقياد والخضوع والسلوك بمقتضى الظروف . غير أن أحداً ، على أرصفة المقاهي أو في الشوارع ، لم يكن يتدخل بين الأطراف المتخاصمة أوينصر فئة على أخرى . ولم يحاول أي وسيط ، على الرغم من الإلزام الأخلاقي ، أن يسعى بالصلح ويدعو المتخاصمين الى لعن الشيطان والتغلب على روح الشر .

كان كل وطني يتقرح من هذا المشهد الكئيب الذي لا يفيد منه غير العدو المشترك.ظاهرياً ، كان هذا الصراع العام بينالأحزاب المتخاصمة المتقاتلة لأسباب غير واضحة ، عاراً على الجزائر القومية . إلا أن المراقب غير المتغاضي لم يكن يستطيع الامتناع عن الشك بالموقف المبهم الذي يقفه أنصار « أبو لحية » . ذلك أن الحشاشين الحديثين ، بخلاف القتلة الذين يحركهم « شيخ الجبل » ، كانوا يظهرون شجاعة في اتجاه واحد ، ويختفون بالعمل ذاته ، مع الظهور ، المتأخر دائماً ـ ظهور البوليس الفرنسي العدو ... والمتواطىء .

من كان قادراً أن يفكر ، في وضع مشؤوم كهذا ، بأن يبدأ عملاً مناهضاً للاستعمار على نطاق واسع ، وان يهيىء ثورة أو يشارك في تهيئتها ؟

الجزائر وطن رائع فياض بالنور ، غني بالألوان والثمار الطيبة ، وذو مناخ عذب يطيل فيه الصيف المتطاول العطل الجميلة ، ويترك للخريف السحر المتوسطي وللطبقة الأوروبية سعادة الترف والكسل : نزهات على الشواطىء ذات الرمل الناعم ، قوارب شراعية ، تنس ، رياضة طبيعية ، رقص ، مخيمات في الغابة ، ألعاب فروسية ، وجيدو ... الخ

الجزائر هي وطن للتناقضات ، حقيقي . إنها واحة ساحرة بالنسبة للأجانب[1] الآتين من الخارج ، وسجن تركه الله للأهالي[2] ، سكان البلاد

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

الأصليين ، لكن الذين يعيشون بلا وطن ، مقتلعين من ترابهم القومي[٣] .

وتجد الأرستوقراطية العمالية الأوروبية في النظام الاستعماري حياة ميسورة ـ وذات امتيازات ! هل يمكن أن تنتظر شيئاً أفضل بتغير السلطة في جزائر مستقلة ؟

حتى لاجئو الحرب الاسبانية ، دعاة الحرية المطلقة وأعداء الروح العسكرية ، أضاعوا ذاكرة الانفعال الثوري . لقد نسوا كلياً تضامن الجزائريين المناهضين للفاشية ، الذين ماتوا في «أراغون » ، فيما وراء جبل طارق ، من أجل حرية الآخرين .

يتعلم الجنود في الفرق الأجنبية على خنق حرية الآخرين وحريتهم أيضاً. ثمة نوع من فقدان الذاكرة يمحو الديكتاتورية الفرانكوية ، وكتائبها ، والحرس المدني ، وشقاء المدن ، والجوع في الجبال . وأحياناً يعود هذا كله الى الذاكرة على أثر الالتقاء « بالسياح » ، التجار المتجولين من عصر آخر ، وهم يعرضون ببساطة الأباريق على مواطنين سابقين لهم هجروا الإبريق الوطني من أجل البرّاد .

ليس الاستعمار الفرنسي شراً في ذاته . فالغجري الذي ولد على الارض الجزائرية يصير تلقائياً من الجنس المختار . يجد مسكناً مجانياً في البناية التي يكون هو بوابها الخاص . ويصير شرطياً له الحق أن يوزع ضربات السياط ورفسات الأرجل. ويستطيع هذا الذي نشأ بين أحضان أب يقص الكلاب أن يتابع دراسته في المدارس الصناعية الكبيرة ، وحتى أن يدرس في كلية سان سير ليصبح جنرالاً بخمس نجوم !

ويستطيع المهاجر الأوروبي أن يحتفظ بوضعه كأجنبي ، مؤقتاً أودائماً .

---

١ ـــ «البحر في الجزائر هادىء كبحيرة لبان. . ينحني فوقه المسلمون في منحدر بولفار وجه البحر . أما الاوروبيون فينطلقون ، في موكب من السيارات لا نهاية له ، صباح مساء ، نحو الشواطىء ... » (اللوموند ، ١١ ـ ٩ ـ ٦١) .

وهذه هي الحياة الهانئة ، الحياة الجميلة دون ثورة .

لا يهم إلا شيء واحد ، رجاء واحد : ان تستمر السلطة طويلاً في أيد نافعة ـ أيدي الاستعمار الفرنسي ، الخبير في فن الحيلولة دون مزاحمة المغاربة !

ثم جاءت العاصفة غير المنتظرة في أول نوفمبر ١٩٥٤ ! اليوم الأول في الثورة الجماعية . .

هل هذا سراب أو معجزة ؟ هذا الرعد في سماء عارية ، صافيـة ، لا غيوم فيها ، ترافقه ظـاهرة غريبة من الرجوع إلى الحيـاة بعد المـوت الحقيقـي أو الظاهري .

ها هم الجزائريون « الراقدون تحت التراب[١] » يدللون مرة أخرى أنهـم لم يكونوا قط عبيداً خانعين ، صابرين على إهـانات الاستعمار ، جسر الجثث . ها هم مرة أخرى يخوضون غمـار معركة غـير متـكافئة ويختـارون العنف : الإرهاب ، والهجوم ، والحرائق . . .

هذا عراك سخيف لا يقلق الإدارة الاستعمارية . حملة بوليسية بسيطة تقضي قضاء مبرماً على هؤلاء الخارجين على القانون[٢] . هذا أيضاً ما كان يقوله خبراء الثورة ، قادة الأحزاب ، الرجال الأعلون في المكاتب ، نظريو الصالونات. فمثل هذا العراك لا يمكن أن يكون إلا قتالاً سيئاً دامياً يضرب فيه المستعمر بزنده المحنك الحالمين الذين يتطلعون الى هدف فوق طاقتهم ، المرشحين الذين يرثى لهم ، لشهرة عابرة في الصحافة المثيرة ، وللموت المحتوم . . في جو من لامبالاة الشعب وعدم رضاه .

لكن ، من أين يخرج هؤلاء ـ حمقى الغابات والوهاد ؟ ماذا يريدون ؟ من هي جبهة التحرير الوطني ـ هذه الأحجية الجديدة الطالعة من العدم ؟

لنقرأ هذا المنشور الأول السري الذي أذاعته جبهة التحرير الوطني :

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

« نرى قبل كل شيء أن الحركة القومية ، بعد فترة قصيرة من الكفاح ، قد بلغت مرحلتها النهائية من التحقيق . والواقع أننا نعتبر ، بالنظر الى أن غاية الحركة الثورية هي خلق جميع الظروف المؤاتية للعمل التحريري ، وبالنظر الى مظاهرها الداخلية ـ نعتبر أن الشعب موحد وراء شعار الاستقلال والعمل ...

« واليوم ، وقد خاض الكثيرون ببسالة هذه الطريق ، نتحمل ، نحن البعيدين الى الوراء ، قدر هؤلاء الذين مضوا . وهكذا فإن حركتنا القومية ، التي أقعدتها سنوات الجمود والرتابة ، وأسيء توجيهها ، وحرمت من دعامة الرأي الشعبي الذي لا يستغنى عنه ، وتجاوزتها الأحداث ، ـ تتفسخ شيئاً فشيئاً وفق مشيئة الاستعمار الذي يعتقد أنه حقق بذلك نصره الأكبر في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية . إن الساعة لعصيبة !

«إزاء هذا الوضع الذي قد يتفاقم بحيث لا يعود تلافيه ممكناً، رأى فريق من الشبان المسؤولين والمناضلين الواعين ، الذين يضمون حولهم أكثرية العناصر التي ما تزال سليمة وحازمة ، أن اللحظة حانت لإخراج الحركة القومية من الطريق المسدود ، حيث حوصرت قوى الأشخاص والنفوذ ، وإطلاقها الى جانب الأخوة المراكشيين والتونسيين في الكفاح الثوري الحقيقي .

« نحرص كثيراً ان نؤكد أننا مستقلون تماماً عن الفئتين اللتين تتنازعان السلطة. إننا نضع المصلحة القومية فوق جميع الاعتبارات الدنيئة الضالة المتعلقة بالأشخاص والسلطة ، وفاقاً للمبادىء الثورية ؛ ولهذا فإن عملنا موجّه ، تحديداً ، ضد الاستعمار ، العدو ـ الأعمى الوحيد ، الذي رفض باستمرار ان يمنحنا شيئاً من الحرية بوسائل الكفاح السلمي . »

أسفاه ! ما أكثر الحقائق المتناقضة .

إن قراءة هذه الوثيقة تخلق شعوراً من الراحة والكبرياء والحقد . الزعماء [1] ينتفخون . التخمينات صحت . من السهل إبداء الرأي بطريقة دقيقة في وجهات

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

النظر المتشائمة والقريبة التي تنتظر شعراء الثورة وجبهة التحرير الوطني، الناشئة حديثاً، الغامضة والطرية العود.

إن جبهة التحرير الوطني تشير هي ذاتها الى الغرابة المتناقضة في فكرها وعملها.

١ . اختيار اللحظة أسوأ اختيار :

الثورة « لإخراج الحركة القومية من الطريق المسدود » أُعلِنت بشكلٍ متناقض، حينما كانت هذه الحركة :

– مُقعدة بسنواتٍ من الجمود ؛
– موجهة توجيهاً سيئاً ؛
– محرومة من دعامة الرأي الشعبي ؛
– تخطتها الأحداث ؛
– تتفسخ شيئاً فشيئاً ...

٢ . عزل « الأقلية الفعالة » :

إن جبهة التحرير الوطني، التي نفخها الادعاء بحلولها محل التشكيلات السياسية المؤهلة، لا تتراجع أمام المجازفة، والتهوّر، وعدم الروّية في استقلالها عن « الفئتين اللتين تتنازعان السلطة »، أي عن الحركة القومية الأكثر تأثيراً، على الرغم من انقسامها على نفسها.

إلا أن قادة الأحزاب القومية الثلاثة التي كانت قد اعتادت على توجيه عمل الشعب الجزائري، منفردة أو متعاونة في جبهة واحدة موقتة، لم يكونوا يفكرون بالتخلي عن هذا الحق الذي لا يترك.

٣. انعدام الدعامة الشعبية يساوي « العمل الانتحاري » :

من المؤكد أن المسألة لم تكن مسألة الحكم على الثورة بحد ذاتها، كشكل من العمل، للخلاص من ذل السيطرة الاستعمارية. ولم تكن أيضاً مسألة اختيار بين الطريق البرلماني والعمل المسلح. كانت المسألة محسومة برياء « الباليه بوربون »، والجمعية الوطنية الجزائرية، وعدم تطبيق النظام الممنوح، وتزوير الاقتراع

العام ، وإبدال منتخبين لا يعرفون القراءة والكتابة ، بمنتخبين ذوي شهادات عالية ، وحاسري الرؤوس .

إن الاستعمار ، حين يتعلق الأمر بمصالح في الجزائر ، يشبه كلباً يرفض ان يترك عظمة بسهولة . واستعمال القوة هو وحده يمكنه ان يجبر النخّاس على ان يعترف لعبيده البيض أو السمر بحق التحرر القومي .

حتى الأتباع الذين جاءت بهم انتخابات مصطنعة سيلاقون طريق الوطن المنسي ، ويحاولون ان ينذروا بقية حياتهم لمحو ذنوبهم [1] التي ارتكبوها في خدمة السيد شرّاب الدماء .

كانت الحركة الإصلاحية قد عاشت في مرحلتها القومية .. لكنها قفزت في مرحلتها الاجتماعية الى المرتبة الثانية .

والحق ان ما تلام عليه جبهة التحرير الوطني ، ليس اختيار العنف كوسيلة للكفاح ، بل جهل أفضل الظروف لاستعمال العنف .

وأكثر أيضاً . ما يُؤخذ على جبهة التحرير الوطني ، هو تناقضٌ مع نفسها ، يُقارب الجنون . فهي تبدأ الثورة المسلحة لحظة تقرر انعدام العامل الحاسم في تحقيق النصر : « دعامة الرأي الشعبي الذي لا يُستغنى عنه . »

إن الثورة لأمر مُعضل . لا تطلع من الأرض جاهزة . لا تسقط من السماء كاملة . وهي لا تُصطنع كيفياً . ليست مادةً تُستورد من الخارج . ليست علاجاً يُحضّر في المختبر.. أو وجبة تهيّأ بالاعتماد على كتاب ممتاز في فن الطبخ .

الثورة أولاً وضع ثوري يختمر في اعماق المجتمع وفق شروط لا تتعلق بإرادة الناس والطبقات والأحزاب . لكن لا يتحول بالضرورة كل وضع ثوري إلى ثورة . يجب ، لكي يتفجر في ثورة ، ان تلقحه وتُحييه « طاقة وإرادة طبقة اجتماعية متقدمة وعازمة على قلب الطبقة الاجتماعية المسيطرة . »

أكيد ان تحديد اللحظة الملائمة لا يكفي . ذلك ان الثورة ليست فقط عمل

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

مجموعة من الافراد يستشيرون عرّافاً يكشف المخبأ في « خط الرمل[1] » الذي يرسمه بسبابته فوق رمل موضوع بحذر على منديل صغير ...

فحين يتم اختيار اللحظة بدقة ، لا بد من الشجاعة السياسية التي تنبعث من الثقة بالقوى الذاتية للانتصار على العدو المستعمر ، دون انتظار العون الخارجي، لكن دون إهمال تهيئة التضامن الدولي .

وليس هذا كل شيء . فحين تُعلن الثورة ، لا بد من توكيد امتدادها المستمر ونجاحها النهائي ...

أليست هذه مهمة ضخمة ، فوق متناول « أقزام » اللجنة الثورية للوحدة والعمل ؟ ثم هل من المعقول ، والحركة القومية المناهضة للاستعمار ، منقسمة على نفسها بحيث تبدو قيادة بلا جيش وجنوداً بلا رؤساء، إعلانُ ثورة مسلحة دون وجود حزب قومي قوي التنظيم ؟

هل يمكن تصور هدف أكثر طموحاً، من الاستقلال المطلق، دون مراحل، تعمل لتحقيقه أجرأ الوسائل — الإرهاب ، دون الاعتماد على حزب في مستوى الحزب الدستوري الجديد أو حزب الاستقلال ؟

إن إنكار الأحزاب السياسية القائمة في البلاد ، المجذرة في طبقات الشعب العميقة ، ليس وقاحة فحسب ، بل غباوة .

غير ان رجال السياسة ، الذين كانوا يصدرون مثل هذه الآراء والأحكام ، لم يفهموا الظاهرة التي كانت تحدث أمام أعينهم . لم يعرفوا ان يستخرجوا أسرار الوضع الثوري. وهكذا فسروه بظروف عرضية خالصة ، معتبرين ان الثورة:

— تمرُّد من الأقلية القومية الشوفينية ، المتعصبة ، الجاهلة — بإيحاء من مناضلين قدماء تطاردهم السلطة في مخابئهم السرية، معزولين عن الحياة السياسية والواقع الاجتماعي .

— عصيان بروليتاريا غير منظمة ضد السلطة الاستعمارية ، وهو يمثل على

---

١ - بالعربية في الاصل .

الصعيد السياسي، ما مثله، على الصعيد الاقتصادي، الإضراب المحق «الوحشي» الإضراب الجماعي الفوضوي الذي قام به العمال الزراعيون غير النقابيين، والذين أصبحوا «قطاع طرق»، يتصرفون كأسلافهم، عبيد الرومان «الطائفين حول معاصر الخمور».

- شغبُ فلاحين اغتُصبت أملاكهم، يصل احياناً تعلقهم بأرضهم المغتصبة إلى درجة أنهم يلتقطون حفنة من ترابها ويأكلونها. وهذه حركة تذكّر بتقديس العامل للخبز الذي يلتقطه من الشارع لكي يحول دون ان يتلوث بأي شيء.

- فتنة أثارها الجوع وهي ستجر حتماً الجائعين الأبديين الذين لا ينقذهم من الموت «الطبيعي» تضوراً، إلا أكل البلوط[1] الذي يزاحمون عليه الخنازير في الغابات، أو أكل البو مخلوط[2]، وهو مزيج من النفايات والجاودار والقشارة.

- هياج دبره وحركه مفسدون متسترون يخدمون الاجنبي.

- وماذا أيضاً؟ ... تحريض يتحقق فيه التزاوج المتناقض بين اللصوصية السياسية والكمائن البوليسية. وقد أذاع المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي في ٩ نوفمبر ١٩٥٤، التحذير التالي:

« إن الحزب الشيوعي الفرنسي، الأمين على تعاليم لينين، لا يمكنه ان يُقر اللجوء إلى أعمال فردية قد تلعب لعبة الأشرار المستعمرين، هذا اذا لم يكونوا هم الذين دبروها[3]. »

وهكذا فإن جميع محاولات التفسير العقائدي لم تنتج إلا أقوالاً من التبجح العلمي الكاذب.

---

١ - بالعربية في الاصل.

٢ - بالعربية في الاصل.

٣ - جريدة «الاومانيتي» (١٠ نوفمبر ١٩٥٤).

ألم يكن المنطق الديكارتي غريباً على الذهنية الساذجة لمحركي هذا النوع من العمل الدونكيشوتي في أول نوفمبر ؟

ومع ذلك ...

إن الكارثة التي قُدرت سلفاً ، وأعلنت ، وتُنبّىء بها ، وانتُظرت ... لم تأت . والعمل « الانتحاري » لم يكتمل بعد ثلاثة أسابيع ، ولا بعد ثلاثة أشهر ، ولا حتى ثلاث سنوات .

إن الثورة الجزائرية التي قامت على أساس « أعمال فردية » خيبت جميع التخمينات .

« ... كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين[1] » .

هل ستنقض الثورة الجزائرية التحليل التاريخي المرتكز الى المنهج اللينيني ؟

لا غموض في ذلك . لم تكذّب الثورة المادية التاريخية، وإنما كذبت التحليل السطحي الذى يدعي أنه مستمد منها . النظرية الجزئية تبتعد بنا عن الواقع كما يبتعد بنا عن الوطن ، التعلق بالدولية والعالمية . كان بيروقراطيو « الفرع الاستعماري » قد بددوا نخبة « التجمع الديمقراطي الأفريقي » . ونسوا ، كالمجازين في العلوم السياسية ، ان يكون موجوداً ، بالنسبة للجزائر ، هذا المبدأ الأساسي العالمي :

«إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلابد ان يستجيب القدر ،

ولا بد لليلِ ان ينجلي

ولا بد للقيد ان ينكسر[2] . »

فهذا الشاعر التونسي ، أبو القاسم الشابي ، يؤكد بدوره ، مرة أخرى ، الحقيقة التي نادى بها ماركس . الفكرة التي تجيّش السواعد ، تصير قوة تاريخية

---

١ ـ سورة البقرة ، آية ٢٤٩ .

٢ ـ أبو القاسم الشابي .

تنظم بصورة مسبقة المصير المقبل للحياة الانسانية .

هذا هو المفتاح الذي نكتشف بـه الروح الجمـاعية للشعب الذي « هو في الكون قوة لم تروضها أية قوة . »

هنا أيضاً سر التحول القومي .

الاستقلال كلمة سحرية يمتزج فيها المثال بالواقع . إنه يستقطب جماهـير المضطهدين . يبطل ان يكون عامـلاً ذهنياً ، أو هماً نفسياً ، أو ترفاً للحالمين بالحرية . يُصبح الاساس المشترك للوطن ، والمحرك الثوري الذي ينتزع المترددين من تصبُّرهم ويقذف بهم في غمرة العمل .

البركة في الحركة[1] . وها هي الجماهير الجزائرية ، السجينة ، ظاهرياً ، ضمن أسوار القدر والخرافة ، تصير ليس إرادة وفعالية وحسب ، بل أيضاً سلطـة تحل محل السلطة الاستعمارية الهدامة .

ليس الإسلام إذن « نقصاً وراثياً » متأخراً ولا رادعاً إيديولوجياً ، إنما هو عصب محرك ضروري للثورة . وهكذا يأمر الحديث الشريف:

« أعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . »

وها هو الشعب الجزائري المجهول ، المفترى عليه ، المحتقر ، يـبرهن أنه قادر ان ينهض من أجل خبزه اليومي ، وان يخلق أيضاً ثورته الكبرى[2] .

يا َللشعب الجزائري من خالق كامل للمعجزات !

إن مظهر الأشياء يتغير عند الاحتكاك بالجماهير الغارقة في العذاب . يمكننا ان نرى واقعاً حيّاً، متحركاً ، متبدلاً ، لا تعلم عنه شيئاً بعض الأوساطالسياسية التي يدهشها ألا يستشيرها بحارة أبحروا بلا بطاقات .

الحياة هي التي تصحح خطأ من يخطط في الغرفة ، باحثاً عن الحقيقة كوسيط « جنوني » بعيد عن الواقع ، شأن متذوق الجمال الذي يحاول أن يحرك الثورة بيسر ، ضمن أطر نظرة رآها في الكتب .

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

ذلك أن الأوضح والأصفى هو المناضل المتواضع ، الذي يعيش في صميم الشعب ، والذي هو أستاذ نفسه فلا يفصل الدرس عن العمل، والثوري بتكونه ومهنته ، الذي يستخدم النظرية الملموسة كأداة تحديد لإدراك الوقائع التي لا تخطر على البال . وحتى عندما كانت أوضاع التطور السلمي تشير الى أفضلية العمل « الشرعي البرلماني » ، فإن « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » ، كانت تهيىء دون هوادة قوى الكفاح المسلح ، استعداداً لأوضاع قد تفرض ، عند الاختيار ، اللجوء إلى استعمال العنف .

هل ينبغي ان ندهش إذا تحققنا بوضوح من أن فرق المقاومة هي التي كانت أول من قدر الطريق التي اجتازها الشعب الجزائري بصمت ؟ كان الشعب الجزائري ، في ضجيج العوامل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية ، يكمل عمله التركيبي : الوعي الجماعي للوحدة القومية . كان النضج قدراً مكتوباً في خدمة الإرادة الانسانية . فقد كان السكون الخادع يخبىء في الحقيقة حيوية أوقفت عن نشاطها بفعل إرادي ، انتظاراً للنار الخضراء - إشارة العمل .

ليس في المجتمع الجزائري غير الشوائب والأخطاء والظلال . لكن منذ أن يعود منظر الأشياء الى محوره العادي ، وتنقب العين في شقوق النظام الاستعماري، تدرك التغير المفيد الذي ولده التطور النوعي لعلم النفس الجماهيري.

يمكن أن يتضمن التأويل الكاذب حقيقة خفية . وما يُعتبر شراً قد يصير خيراً . الوهم يصير شجاعة ، والجنون صفاء ، والجهل علماً .

مثلاً ... لا مبالاة الجماهير بالأحزاب التقليدية ؟

هذا ليس تقهقراً في التربية المدنية ، بل حدة في الحساسية النقدية عند المضطهدين الذين نفد صبرهم شوقاً للتحرر . إنه نفي الروح الطائفية القبلية التي تحول دون تحقيق الجبهة الواحدة ضد الاستعمار .

« اتفقوا على ألا يتفقوا[1] » : هذا التعبير يصف مظهراً من مظاهر الحكم

---

١ - بالعربية في الاصل .

السلبي المتشائم . لكنه اكتسب، بفضل جماله ، صورة ومعنى، قيمة ديناميكية في سنوات ١٩٤٦ – ١٩٥٤ . وقد استُعمل ، في اللغة الشعبية ، بمعناه المضاد ، كما يقال : العافية[١] ، والعفو ، والسلام للدلالة ، بشكل مغاير ، على النار[٢] . وهكذا فإن هذا التعبير بدل أن يعبّر عن ندم سلبي ، يوجه النظر نحو إرادة من الفرح والبهجة لتحقيق الوحدة المناهضة للاستعمار خـارج الأحزاب المنهزمة وفوقها .

والنفور من الزعماء ؟ هذا أيضاً ليس جحوداً من الجماهير المتلونة « التي تقتل أبطالها[٣] » ، حارقة ما تعبده ، وإنما هو على العكس نضج روحي . لم يعد الشعب يمجد الديماغوجيين كالأصنام . إنه يحيد بحق عن طواحين الكلام ، البحارة المجهزين ببوصلة ، لكن الذين تنقصهم شجاعة الإقلاع في العاصفة .

والأزمة التي أثارتها « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » ؟

إنها ليست كارثة ، بل تطهير ضروري جداً ، أفاد الثورة إلى حد لا يقدر بقضائه على البلبلة .

والواقع أن المعارضين فقأوا دملاً كان يشل الجناح المتحرك في الحركة القومية . لقد دللوا على شجاعة سياسية وجسدية وأخلاقية، لم يدرك الكثيرون تفانيها النضالي، في ذلك الوقت ، وأهمية إنذارها الذي أملته التجربة الطويلة.. في كفاحهم لإنضاج الفكرة ، وتنظيم حزب جديد ، واحترام الديموقراطية داخلياً، وفي الدرجة الاولى، بين صفوف « حركة انتصار الحريات الديموقراطية» وفي متابعتهم الكفاح في الخارج ، ناقلين الحوار الى الشعب ، جاعلين منه حكماً ، دون أي تراجع أمام الانشقاقات والرياء والديماغوجية ... وخصوصاً ، في حكمهم على عبادة الشخصية ، كاشفين القناع عن البهلوانية السياسية ، وعن

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

٣ ـ بالعربية في الاصل .

خرافة المهدي[1] المنتظر ، رجل العناية الـكاذبة ، الدمية اللاثورية ، « الورقـة الاخيرة » في يد الاستعمار .

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين[2] » .

وانعدام حزب قوي جُرب في الماضي ؟

هذا أيضاً ليس بلية ، بل حظ أتاح للثورة أن تخلق منظمة سليمة ، مرنة ، مكونة جيداً بنظام شديد ، وحيوية راسخة ووطنية نزيهة صادقة . وكان لهذا ، فوق ذلك ، قيمة حـــاسمة في المرحلة الأولية : سلامة الشبكات بسبب جهـل البوليس . لم تستأصل الحركة الثورية . وللمرة الاولى خاب الضغط خيبة كاملة . صارت لوائح البوليس نقداً سياسياً مزيفاً . أو على الأصح ، لم تعد لها أيـة قيمة في البورصة السياسية – الاجتماعية . ولم يلتقط الفخ الاستعماري إلا المـــترددين ، والقوميين المعروفين ، لكن الذين لا يؤذون لحظة اعتقالهم . أمـا أعضاء الجبهة المنذرين ، لكن غير المعروفين ، فـكانوا يعملون في الظل كأشباح كابوس متجسد في الواقع . وقد بدا البوليس أنه بعيد عن كل خبرة في هذه الأمور .

هذا الوضع المـلائم للعمل السري في الجزائر الكبـــيرة استمر حوالي سنة ونصف السنة . هكذا هيأت جبهة التحرير الوطني نشاطها الجوهري والمتنوع ، ليس في قبو ، بل في مكان عام – في مقهى « هادىء » . كان زبائن المقهى خليطاً من المصلين الذين يترددون على الجامع الكبير ، ورياضيي « الطليعة – والحيـاة في الهواء الطلق » ، والنقابيين المستقلين أو الذين ليس لهم أي اتجـاه سياسي ، والصيادين المحترفين أو الهواة ، والمولعين بالموسيقى والمسرح والتصوير . . . والمستائين الذين تركوا الحزبيـــة واستسلموا للأحلام المصطنعة في ظل خبراء التدخـــين بالنارجيلة ، الصامتين السكارى . . .

في هذا الجو الغريب حيث كان يجيء حتى جزائريون من أصل أوروبي ، بحثاً عن الهرب من مرحلة مضطربة ، كان المخبرون البوليسيون ، بلباسهم المـدني أو

---

١ - بالعربية في الاصل .

٢ - سورة الانفال ، آية ٥٨

متسترين ، يؤخذون بلذة الهرب ، هم أيضاً. وطالما أعاروا انتباههم وآذانهم .. لكن ما من « إشارة » كانت تأتيهم عن « الحوادث » . وطالما حاولوا أن يثيروا نقاشاً حول الإرهاب في المدن ، أو حول كائن الجبال ، لكنهم لم يكونوا ينجحون أبداً في إثارة الفضول للخوض في مثل هذه الأحاديث .

كان هذا التحفظ العام ، الحذر ، المتبصر ، يبدو طبيعياً ومطمئناً . وكان هذا بالنسبة « للخراف » مركزاً « للراحة التامة » : مراقبة حيوان مبرقش ، لكن بريء . وبين هذا الخليط كان كثيرون يندبون انعدام النسيم البحري أكثر مما يندبون انعدام الحرية ...

هل كانت الوطنية تصير تافهة ، بشكل مفاجىء ؟ أليس المقهى المغربي ، تحديداً – وتقليداً – مكان الالتقاء ، والراحة ، والجدل من كل نوع ؟

في الحرب العالمية الاولى ، تحول المقهى الى ناد كان أعضاؤه يتكلمون بلغة خاصة اصطلح عليها . كان الزبائن ، كل نهار جمعة على الخصوص ، بعد صلاة الظهر ، يجيئون بلباس رأسهم ، الجميل المذنّب[1] ، يتسقطون الأخبار ، وقد اخترقوا جدار الكذب الاستعماري . كانوا يكشفون عما في الرسائل التي يتلقونها من الأقارب أو الأصدقاء الذين هاجروا الى الشرق عامي ١٩١١ و ١٩١٢ لكي لا يلبسوا اللباس العسكري المدنّس في الخدمة العسكرية المفروضة على الجزائريين – المسلمين .

وكانت الإدارة الاستعمارية قد سمحت بالهجرة الجماعية لهؤلاء الأوائل « المتمنعين عن الخدمة العسكرية » . وقد ذهبوا لينضموا الى مهاجري عام ١٨٧١ ، الثوار الذين غلبوا ولم يستطيعوا « الحياة عبيداً على أرض ورثوها من أجدادهم حرة . » كان الاستعمار سعيداً بالتخلص من عناصر لا يرغب بها وتريد هي الهجرة الجماعية .

وعلى الرغم من انفتاح « صمام الأمان » هذا، فإن الشعور المناهض للاستعمار بقي فاعلاً وحياً . وقد تجلى طوال الحرب (١٩١٤ – ١٩١٨)، ضد جمع

---

١ – بالعربية في الاصل .

« المجندين » الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، كما تجلى بالعصيان المسلح عام ١٩١٦ في معسكره .. أو بالمقاومة الكتابية تمهيداً للتخلي عن الجندية أمام الخطوط الألمانية أو التركية .

وعلى الرغم من حالة الحرب ، فقد استمرت المراسلة باللغة العربية ، لكن بشيء من المخاطرة . إذ أن المراسلات التي كانت تُفلِت من الرقابة الفرنسية أحياناً تحتجزها « الانتليجنس سيرفيس » وتعيدها إلى المكتب الثاني. وهذا ما كان يسبب ، مثلاً ، اعتقال المُرسِل الجزائري ، والمُرسَل اليه المصري . فقد اعتُقل الأول ، عمر راسم[1] ، وبقي في سجن« باربوروس» ، حتى نهاية الحرب .

أكيدٌ ان هذا الحادث الرمزيّ لم يفصل ابداً « أشخاصنا المناهضين للفرنسيين » عن أحلامهم الإسلامية الجامعة . فلقد استمروا ، وهم يتناولون القهوة المزّة[2] ، يُعجبون بمنظر الخليج المتلألىء .. مترقبين في الأفق ظهور الاسطول المحرر ، أسطول « سيدنا » ، امبراطور اسطنبول الأعظم ... تدعمه غواصات القيصر التي ستضرب بقنابلها مدينتي بونه وفيليبفيلّ .

لكنّ الزمن تغيّر . والأجيال الجديدة التي نشأت في النصف الثاني من القرن العشرين اكثر فطنة ورصانةً ، الهموم الخفيفة ثرثارة ، كما يقال ، أما العواطف الكبيرة فصامتة .

لقد تعلّم معاصرونا أن خلاص الوطن الأسير هو ، قبل كل شيء ، مُهمّة

---

١ ــ عمر راسم شخصية فريدة من الشخصيات المثقفة التي تدعو للحرية المطلقة . كان اول صحافي جزائري باللغة العربية ، انشأ جريدة كان يطبعها بطريقة الطباعة الحجرية ، وكان ، وحده ، يحررها ويضع لها رسومها وخطوطها ، كلها . وكان اسمها « ذو الفقار » ، ولهذا الاسم دلالة رمزية موحية . وعلى الرغم من أن الجريدة عطلت بعد عددها الرابع ، فانه لم يتوقف عن مهاجمة الاستعمار ، خصوصاً ، في بعض الجرائد والمجلات الفرنسية الصادرة في باريس . وقد اشتهر بتصوير المنمنمات (المينياتور) ، وبتأريخه للفن الأندلسي . وكان صديقاً شخصياً لأندريه مارتي ، قائد ثورة البحارة الفرنسيين المشهورة في البحر الاسود .

٢ ــ بالعربية في الاصل .

الجزائريين ، هو معركة الجميع على أرض الوطن .

كان كل مُستَعمَرٍ يشعرُ منذ اليوم الأول في العراك المسلح أن قلبه يمتلىء بأملٍ كبير . وكان كل مواطنٍ يدركُ أنه شريكٌ ومعنيٌّ ، منذ الشهور الثلاثة الأولى ، أي منذ التحقق من امتداد الثورة .

كان كل جزائريّ « ثائراً » بالقوة ، وكان التماسك كافياً .. وعلى الرغم من بعض الاعتقالات الأولى ، فانّ البوليس المتجسس لم ينجح في اختراق الحاجز الذي أقامه المناضلون . بقي هذا سبعة عشر شهراً ، وكان يبدو ان جبهة التحرير الوطني تحتقر جهاراً البوليس الذي لم يكن يملك من أمره شيئاً والذي كان عاجزاً عن الحركة شأن من عُصبت عيناه .

ففي ذلك المقهى المغربيّ – في ضجيجه الشامل وغير المكترث ، كانت عمليات كثيرة خفية تُنسجُ كل مساء ، إحدى آلاف الحلقات في الشبكة الجماعية التي كانت تشل الاخطبوط الاستعماري ، قبل ان تقضي عليه القضاء المبرم . وكان النشاط ذا صبغةٍ سياسية – عسكرية : التجنيد ، جمع التبرعات ، شراء المسدسات أو مصادرتها ، تنظيم فرق مسلحة وتمرينها ، إصلاح الاسلحة والتأكد من سلامة القنابل اليدوية ، توزيع المؤن والذخيرة على مراكز الحيّ ، تهريب المدافع الرشاشة والذخيرة والمفجرات ، تأمين الاتصالات بين المدن والجبال ، استقبال الجنود الجرحى ، تدبير الملاجىء والعناية الجراحية اوالطبية والمرضين ، جمع الأدوية ، تنظيم هرب عسكريين بأسلحتهم الكاملة ، سرقة صناديق القنابل والبنادق الرشاشة من الثكنات او مخازن الأسلحة ... تزوير هويات ، مراكز لطبع المناشير ، تأمين الورق ، شراء آلات كاتبة ، توزيع وتعميم منشورات الدعاية ... البحث عن أطباء جزائريين يرتضون القيام بدورهم في الذهاب الى الجبال لمعالجة المجاهدين والعناية بهم ، العمل على زيادة المرضين في جيش التحرير ، والدفاع الحقوقي عن المساجين ، ونجدة العائلات ومساعدة اليتامى .

هذا كله يُظهر – ويبرهن – كيف أن جبهة التحرير الوطني غير الظاهرة ، كانت حاضرةً وموجودة بين الجماهير ، في كل مكان وفي آنٍ واحد .

وكان جيش التحرير الوطني يعرف ايضاً كيف يستمد قواه من الينبوع الذي لا ينضب : الشعب . وكان لا يقبل إلا المناضلين غير العاديين ، الذين يتطوعون وقد اختاروا الموت .

يا للعمى الاستعماري ! إن أذكى زعماء الجيش الفرنسي ، المتفوّق بعدته وعدده ، لم يكن يقدر ابداً ان يتصور ان العريف القديم الذي وُضعت جائزة مالية لقتله ، سيُستقبل في « إيفيان » ، بعد سبع سنوات ، كممثل اقوى جيش ثوريّ في القارة الأفريقية .

كانت جدّة هذا الحالم المجبر على التخفّي اكثر تفاؤلاً . كانت تُعنى به في إحدى الغرف ، في حيّ القصبة ، لكنها لم تكن تتمالك من سؤاله : « كيف ستقضون على حكم فرنسا ؟ » ، وهي تلقي نظرة رثاء الى المسدس المعبأ بخمس رصاصات (مع رصاصتين إضافيتين في جيبه ...)

ابناء الجبل معروفون بأنهم دائماً حيويون ، صبورون ، أشداء ، قادرون على اجتياز المسالك الوعرة دون تعب أو خوف من الدُّوار فوق المهاوي المرعبة . وكان الجبل ، مهد وملجأ الحرية[1] ، ملاذاً دائماً لعصابات الشرَف . وما تزال تغنّي مآثر رزق البشير وعبدون ، اللذين طردا الوحش الشرير من هناك ، أو الثعلب الإنساني – الدركي والحاكم .

كان ذلك عالماً شعرياً صغيراً يُذكّر بالعصابات الكورسيكية أو الصقلية . لكن بلون خاص مختلف باعتبار أن الضغط الاستعماري عندنا أكثر ضراوة . لقد كان أبطالنا في الواقع ، الناطقين باسم شعب مضطهد بكامله . ذلك أنهم كانوا يطيلون أمد الكفاح ضد الاستعمار ، الذي يحمي الامتيازات الأوروبية مانعاً العرب المسلمين من الارتفاع فوق وضعهم المتدنّي .

إلا أن الكفاح الجماعي الذي توقف مؤقتاً ، عاد بشكل أقوى وأفعل . فلقد انتهى زمن البهلوانية الفردية . وتخلى الشعب الجزائري عن الطب الاختباري

---

١ – بالعربية في الاصل .

الفردي ،وصار طبيب نفسه .

وحين يكون « الشعب متحداً وراء شعار الاستقلال والعمل » ، كما جاء في إعلان الأول من نوفمبر ١٩٥٤ ، فإن الخطة الجريئة التي تُنفذ بإيمان مطلق يمكن أن تبلغ مستوى الثورة التي لا تُغلب .

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون ، يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون[١] . »

وسواء كان الأمر بنبوءة إلهية أو بحتمية علمية ، فقد كان للثورة الجزائرية ، كمُنطلق في أسلوب العمل، لجنة تخطيط ضمت اثنين وعشرين شخصاً في الاجتماع التمهيدي الذي عُقد في بناية في ضواحي الجزائر .

غير أننا ينبغي أن نحترس من تفسير هذا الأمر تفسيراً سريعاً سهلاً ، فنعتبره قدراً محتوماً ، مُسبقاً ، أو قانوناً ثابتاً في الطبيعة ، يُشبه الظواهر المستقلة عن الإرادة الإنسانية . أو أن نعتبره،بعكس ذلك ، النتيجة الوحيدة لعمل الأبطال الذين يمتازون بقدرة خارقة ، أو طريقة في العمل معصومة تقدر أن توجّه سير الشعب في أي اتجاه شاءت .

ليست روح الشعب آلة تسيّر كما يُسيّر المحرّك الآلي .

إن نجاح باعثي الثورة الجزائرية ليس نتيجة قرار اتخذ صدفة . ولقد كان من المستحيل أن تمتد الثورة وتستمر لو أن العامل الأساسي – الشعب الجزائري – لم يكن ناضجاً ليبدأ العمل الهرقلي الجبار – ليكافح ويتألم وينتصر .

الميزة التاريخية الكبيرة « للجنة الثورية للوحدة والعمل » هي أنها هيّأت الظروف الأساسية لتكوين جبهة التحرير الوطني – القوة الثورية ، السليمة ، الواحدة ، الفعّالة .

١ – جمعت اللجنة الثورية للوحدة والعمل فرقة المتمرنين على قتال الصّدمة

---

١ – سورة الانفال ، آية ٦٥ .

والمفاجأة ، وكانت قد تبعثرت على أثر حل « المنظمة السرّية » من قبل « حركة انتصار الحرّيات الديموقراطية »، قاضية بذلك على أسِنّة الكفاح ضد الاستعمار. هل كان هذا فعلاً منعكساً للفوضى والذعر ، ناتجاً عن الضغط الذي رافق « مؤامرة ١٩٥٠ » ؟ هذه القضية ضخّمها واستغلها البوليس السياسي . فإن « المؤامرة » التي دبرت « للإطاحة بالحكومة الفرنسية » لم تكن في الأصل إلا حملة تأديبية من المنظمة السرية ضد مناضل سابق في تيبازا وشى بالذين يقدمون العون المؤقت ...

لم يكن أي شيء يقدر أن يبرر إلغاء المنظمة السرية ، الجهاز شبه الحربي ، إلا التراجع أمام الصعوبات ، وقلة الثقة بالقوى الشعبية ... واحتقار الناس ! يؤكد ذلك التمييز وعدم الاكتراث اللذان ظهرا ضد رأسمال إنساني هو أجلّ الأشياء فائدة من أجل الثورة المقبلة .

وليحكم الناس في ذلك . بين فئة المخالفين في « المنظمة السرية » ، الذين نراهم في اللجنة التخطيطية للجنة الثورية للوحدة والعمل ، ننكّس علم الجزائر المستقلة أمام الشهداء الذين يضيئون بأسمائهم الساحرة سجل شهدائنا :

بن بليد مصطفى ؛ بن مهدي العربي ؛ باجي مختار ؛ بن عبد المالك رمضان ؛ شيهاني بشير ؛ دعدوش مراض ؛ ملّا راشد ؛ سوداني بو جمعه ؛ زيروت يوسف .

هكذا اضطر أعضاء المنظمة السرية التي حُلّت بيروقراطياً ، وقد أخذ البوليس يطاردهم ، أن يهجروا بيوتهم وعملَهم ومناطقهم . وقد تكفلت ببعضهم قيادة«حركة انتصار الحريات الديموقراطية»بعد أن اشترطت عليهم عدم تسلمهم مهمات سياسية ، ومنحتهم هويات مزوّرة في مناطق حيث لا يهتدي إليهم البوليس. غير أن الآخرين ، وهم الأكثرية ، أُهملوا بالمعنى الحرفي للكلمة وتُركوا دون مساعدة ولا مورد للعيش ... كسقّاء لم تعد هناك حاجة إليه ، أو كحمار يرتاح دون أن يهتم أحد بإطعامه . « لِيُدبّر راسو[1] » في مخابىء المدن

---

١ ــ بالعربية في الاصل .

الكبرى ، في الأوراس أو بين القبائل ، هذا الفدائي[1] الذي يقدم نفسه فدية لنيل الاستقلال الوطني .

مع هذه اللامبالاة التي أظرتها « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » ، تلاقت جبانة الحزب الشيوعي الجزائري الذي بعثر جزءاً آخر من الذخر الثوري — أعني قدامى المتطوعين في الفرق الدولية في اسبانيا . لم يكن لقيادة الحزب اللاشرعية هدف هجومي . كانت أعمالها تدور في الفراغ . وكان نشاط المناضلين «المختبئين» ينحصر في تعهد المطابع السرية، والاتصالات، والملاجىء ، والأسلحة اليدوية للدفاع الشخصي عن الأبنية المشروعة والمسؤولين ذوي المكانة.

هذا منطقي . فلماذا ، حين لا نؤمن بالثورة المنتصرة ، نبدد المال والوقت على منظمة تلبك وتقلق ؟ لماذا نحصي ، ونمرن ، ونربي قواداً حربيين للمستقبل أو ناسفين بارعين ؟

كان علينا أن ننتظر إلى عام ١٩٥٣ ، لكي نرى المبادهة ، بنت الايمان والشجاعة والعمل ، تتفجر من أسفل، ثم تتغلب على النقص من أعلى ، لكي تخلق طليعة تجد تعبيرها الأصيل خارج الأحزاب التقليدية المتحجرة .

٢. لقد أطلقت « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » الشرارة في اللحظة الملائمة، برفضها الإصغاء الى البطيئين المتمهلين بين كلا الجهتين العدوتين. الأطراف تتلاقى ، فقد تبنى وفدا الجهتين في القاهرة ، موقفاً متوازياً ، لكنه واحد . كان كل من الوفدين يتكلم على حدة ومنفصلاً عن الآخر ، لكن كليهما تكلما بلغة واحدة مشتركة . والحق أن الاتجاه غير الثوري يتفق بشكل متناقض مع الرأي الانتهازي:

أ. من أجل « تأخير العملية — الانتحار » .

ب. لكي لا تبدأ الثورة المسلحة « إلا بعد إعادة توحيد حركة انتصار الحريات الديموقراطية » .

---

١ — بالعربية في الاصل .

كان هذا يعني إضافة حبة ندامة إلى سبحة الظروف الضائعة . وبالعودة إلى البلبلة المحتومة – التسوية الإيديولوجية ، الاتفاق الكاذب « الأسود – الأبيض » ، التنظيم المهلهل ، تنتصر روح الاستسلام التي من شأنها تعقيم الحالة الثورية وإحباط الثورة .

ومن حسن الحظ أن الذكاء والوضوح كانا شديدين وقاطعين .

٣. نبذت « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » ، الماضي بتركها الإيديولوجيا السياسية – الزهدية التي تقول بها النزعة القومية التقليدية . هذا تحول تاريخي طريف . فهذه اللجنة ، وريثة المنظمة السرية وتكملتها ، والتي نشأت في احضان « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » ، لم تعد صورة مصغرة عن اتجاه ما ، أو حزب ، أو نزعة قومية ، بل صارت المعبّرة الأمينة عن وطنية سامية تتوحد جوهرياً مع روح الشعب كله .

ثم إن هناك تغيراً على صعيد آخر ، فإن مناضلي المنظمة السرية ، وهم أدوات العمل في « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » ، لم يكونوا – في معظمهم – إلا جنوداً مشاة ، في حين أن مناضلي « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » ، المركز المحرك في جبهة التحرير الوطني ، هم جميعاً أعضاء في القيادة العليا للجزائر المقاتلة .

هذا التغير الجماعي السريع الشامل يفاجىء حقاً . ويصعب تقدير هذا التبدل الذي جرى خلال سنتين أو ثلاث . شهدنا في الماضي تحول منظمة « نجمة أفريقيا الشمالية » إلى حزب للشعب الجزائري ، ثم إلى « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » . كان هذا نوعاً من التقمص الإسمي للقومية المضطهدة . كان تغيراً في الواجهة لا غير .

التغير الآن أكثر عمقاً . فهناك فرق نوعي يميز الاتجاه القومي التقليدي من الاتجاه القومي المنهجي . هذا الواقع الجديد هو نتيجة التطور الذي لا مثيل له في الوعي الثوري .

وماذا نفعل بقرابة الأصل ؟ هذه القرابة التي تفرق وتعارض بين القومية

التقليدية والقومية المنهجية تذكر بالظاهرة الكيمائية التي تؤدي إلى أن يخرج من الفوسفور الأبيض الذي يُحمّى طيلة ٢٤٠٠ ساعة، الفوسفور الأحمر الذي يختلف عنه لوناً ، وكثافة ، وصلابة ، وبأنه غير قابل للانصهار ، ولا يُسمّم .

العامل الأقوى في هذه البيو ـ كيمياء الاجتماعية هو الشعب نفسه الذي أنضجته خبرته الخاصة .

من هنا لا يجوز أن نعجب لجمود الاتجاه القومي التقليدي الذي شلته القيادة المركزية ، ولبقائه على هامش التطور العام للشعب الجزائري . ونظراً لهذا النقص في تحول « الحزب الوطني الجزائري » و « نجمة أفريقيا الشمالية » ، فقد بقيت فكرة مناهضة الاستعمار بالنسبة لهما محصورة ، وضيقة ، وتسير على الطريقة التقليدية العادية . وعلى العكس ، فإن « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » تفتحت ضمن « جبهة التحرير الوطني » كالفراشة ، واكتمل بذلك تحول الحركة القومية الثورية .

إلا أن هناك فرقاً دقيقاً : فنحن نقول الآن « قومي » بالمعنى الخاص الذي يتصل بالشعب كله ، لا بحزب واحد فحسب ، أو بشكل واحد من النزعة القومية المتعددة الاشكال .

إن « جبهة التحرير الوطني » هي القوة المحركة للثورة الكبرى من أجل استقلال الجزائر التي لا تتجزأ . إنها تقود بنجاح سيلاً بشرياً ، يجتاح ، منذ سبع سنوات ، جميع سدود الاستعمار الحديث وحواجزه . إنها تجمع شعبي من طراز مثالي . لقد نشأت في حمّى العمل التدشيني، وأثبتت في المعركة المستمرة أنها أداة فعالة . إنها دليل جديد حيث كل شيء جديد : الروح ، التنظيم ، العمل ، المنهج ، الأسلوب ، الرجال ... والنساء !

وما تزال صحيحةً المبادىء التي أعلنها في ٢٠ آب ١٩٥٦ المؤتمر التاريخي في الصمام . فلنحاول تحليل ذلك بمزيد من التدقيق .

إن جبهة التحرير الوطني ، وعياً منها لمسؤوليتها الكبيرة عن المصير المقبل للشعب الجزائري ، رفعت عالياً لواء الوحدة القومية والوطنية والثورية .

فالثورة ضد الاستعمار قضية عامة لكل المواطنين دون تمييز سياسي أو عرقي أو لغوي أو ديني .

وقد وفر إعلان الأول من نوفمبر ١٩٥٤ « لجميع المواطنين الجزائريين من مختلف الطبقات الاجتماعية والأحزاب والحركات الجزائرية (إمكانية) الانخراط في كفاح التحرير دون أي اعتبار آخر . »

لا عصبية جزئية سياسية ؛ فجبهة التحرير الوطني ترى أن من الخطأ إرجاع القومية الجزائرية إلى مصدر وحيد فقط . إن الإيديولوجيا القومية الجزائرية للجزائر المقاتلة هي التراث المشترك لجميع المواطنين ، أياً كان الطريق الذي تسلكه تطوراتهم المتجهة للتلاقي في نقطة واحدة . وجبهة التحرير الوطني هي البوتقة التي تلاقت فيها وانصهرت جميع الاتجاهات الوطنية التي لا تقبل التساهل ولا تلين ؛ – والتي تتمثل في حزبين سابقين ، من مختلف الاتجاهات الدينية والقومية والشيوعية ، وفي مثقفين وعمال وتقدميين ، ودعاة للقومية العربية أو للقومية البربرية ، سابقين ايضاً .

ولا « يسارية » اجتماعية . فجبهة التحرير الوطني تعرف ألا تطلب من فترة زمنية إلا ما تستطيع أن تعطيه . ولهذا ، فإن للثورة الجزائرية ، من وجهة النظر المباشرة للمطالبة بالاستقلال ، صفة قومية أساسية . كل شيء يجب أن يكون مرتبطاً بسحق العدو الوحيد المشترك : الاستعمار الفرنسي . ولتحقيق هذا الهدف ، دعونا جميع الجزائريين الذين يهمهم زوال النظام الاستعماري ، أياً كانت أوضاعهم الاجتماعية .

الجزائر المستقلة ، الجمهورية الحديثة ، الديموقراطية القومية – أهداف مشتركة للعمال وأصحاب العمل ، للمثقفين والتجار ، للعمال الزراعيين وللمهن الحرة ، للطلاب والفلاحين .

ما لا بد منه ، اجتماعياً ، هو الإصلاح الزراعي . سيكون في آن واحد إصلاحاً وطنياً ، وسياسياً ، واقتصادياً ، وديموقراطياً . وهو سينسف الأساس الاقتصادي للنظام الاستعماري ، وعقلية النظام شبه الإقطاعي . وهو في تعزيزه

الاستقلال القومي والديموقراطيـــة ، سيسهل الخلاص من التخلف الاقتصادي والوصول إلى اقتصاد حديث ، تأخذ فيه الصناعة أخيراً مكانتها ، في انسجام مع التخطيط للمغرب الكبير المتحد .

لا تعصبية ولا عرقية ، أيضـــاً . فإن جبهة التحرير الوطـني حريصة على التوازن القومي الذي لا يستغنى عنه . فمن أجـــل تعزيز الثورة ضد الاستعمار وتأمين انتصارها ومستقبلها ، لا يجوز للأغلبية العددية « المسلمة » أن تقضي على جزائرية الأقلية الأوروبية .

«من قوانين التاريخ أن شعباً يعي وحدته، يتطلع أولاً لاسترداد تاريخـــه ، لإحصاء المـآثر الإبداعية ، والكشوف ، والتفوقات التي حققها أفراده[1] . »

لا شيء أكثر طبعية من إعادة اكتشاف مآثر الشعب الجزائري النـاطقة . إلا أن جبهة التحرير الوطني ، في تعظيمها لمجد الماضي المغربي الذي يقوي الحماسة الثورية عند المجاهدين ، لم تستسلم قط للخوف الجنوني من كل ما هو غير عربي — مسلم .

وعلى الرغم من الهجوم العرقي الأعمى ضد العرب ، فإننا كبحنـا تحريضات الشوفينية الدفينة المترسبة ، ووقفنا ضد ردود فعلها عند العرب لطـفنـا حقد التجار المسلمين ضد غير المسلمين بتحويله إلى مقاطعة التجار الاستعماريين بالجملة ، أمثال دورو—دوسيرينيي (تجارة الطحين — السميد) أو بورجو (الأقمشة) ...

لقد كافحنا ، حتى في صفوف جيش التحرير الوطني ، الشعور الديني المتعصب أو المرائي ، الذي تنهى عنه حكمة الأخلاق الإسلامية .

هذه السياسة الواضحة ، البعيدة النظر ، أتاحت لجبهة التحرير الوطني أن تصحح الأخطاء الملازمة لعدم الاستعداد وللارتجـــال ، وأن تخفف أو تصحح الأخطاء ، التي كان تجنبها ممكناً ، وأن تحبط مؤامرات العدو .

والنتيجة هي الحكَم الأفضل .

لم يتوقف جزائريو « غرداية » مطلقاً عن مضاعفة البراهـــين على الوحدة

---

١ ـ أندريه لاتريل : « الإيديولوجيا والديبلوماسية » ، اللوموند ١١ — ٧ — ٦١ .

القومية التي لا تنفصم – وحدة الروح ، والأرض ، والوطنيـــة . وقد جهد الاستعمار الفرنسي دائماً أن يستغل خرافة البربريـــة ، التي اخترعها ، ويفصل جزائريي هذه المنطقة عن وطنهم الأصلي . وقد حاولت فرنسا ، قبل الثورة ، أن تحول هجرتهـم من الشمال الذي كانوا يؤثرونـه ، إلى الجنوب . كان أيضاً مشروع استعمار النيجر يخبىء الترحيل الجمـاعي للجزائريين من أصل قبائـلي ، والذين نبذوا أوروبا . وقد جرت ، بواسطة الوعود البترولية وإلغاء النظـــام العسكري في مناطق الجنوب ، محاولة لتغيير نظام الجزائر الذي أقر عام ١٩٤٧ ، بتجزئة الجزائر وجعل الصحراء وسكانها « فرنسيين » ...

وعام ١٩٥٥ ، كان سوستيل ، الحاكم المختص بالإتنولوجيـا المكسيكيـة ، من السذاجة بحيث عرض على التجار الجزائريين الأسلحة « للدفـاع عن أنفسهم ضد العرب » ...

إن أياً من التقديرات الاستعمارية المبنية على نظرية « الخصوصية المتصلبـــة والعصبية الدينية » ، لم يكتب له غير الخطأ والفشل . لقد شاركت غردايـــة الصحراوية ، على الرغم من الفروقات الفولكلورية التي تحجب الوحدة الوطنية الجزائرية عن أعين المراقبين السطحيين ، مشاركة فعـــالة في الثورة الكبرى . قدمت إلى جبهة التحرير الوطني ما طلبته من مناضليها ، ولها ، الآن ، حصتها بين المعذبين ، والأسرى ، والذين قتلهم البـــلاستيك . ثم إن إمداد الجنود والفدائيين كان مستمراً هناك بواسطة قوافل الجمال. هذا كله يكشف عن بطلان الإغراءات الاستعمارية لفصل غرداية عن الجزائر[1] .

أما مشاركة الجزائريـــين من أصل أوروبي في الثورة فقد انطبعت بوحشية الضغط الاستعماري . إن لِمثل الخوري السابق في تلمسان قيمـــة الرمز . فقد سجن ، ثم طرد من الجزائر – لكنه أخذ يتابع في أمريـــكا الجنوبية رسالة

١ – كان من المعتقد أن سكان غرداية قلما يؤيدون جبهـــة التحرير الوطني . إلا أن حوادث كثيرة برهنت ، منذ بضعة أشهر ، أن الحركة القومية قد امتدت وتأصلت في هـذه المنطقة . » اللوموند ، ٢٣ – ٧ – ١٩٦١ .

جديدة : الدفاع الوطني والأخوي عن الثورة الجزائرية .

ثم هناك احترام جبهة التحرير الوطني للأديان الأخرى غير المسلمة . وهذا موقف أصيل ، وليس وليد المناسبة . فإن التراث الإسلامي لم يمارس قط عرقية منظمة ، قائمة على وحدة الإيمان القرآني .

أليس احترام دين الآخرين فضيلة أولى ؟ إننا لم نتخلّ في أي ظرف مطلقاً عن هذا المبدأ الذي هو ، جوهرياً ، مبدأ إسلامي . وعلى الرغم من أن الاستعمار كان يستغل المسألة الدينية بشكل قوي واسع ، فإننا لم نخدع ولم نسقط في حبائله .

القسم الثاني

تفنيد العقيدة دون الماركسيّة

حِزبٌ "عمالي" أو جَامِعَة وَطنيّة ؟

قاتلك الله يا إبليس ، أيها الشيطان الذي يشجع المنكر ويهدم الإيمان . إننا بحاجة الى الحماية الإلهية لتحفظنا من الشيطان الرجـيم الذي يوسوس في صدورنا ليضلنا عن الطريق المستقيم .

لن يكون نقاشنا حقوداً ولا أكاديمياً . سنحاول ألا نتشبه بعلماء الـلاهوت الذين يقيمون نوعين من الدين ، كما يلاحظ ماركس في كتابه « شقـاء الفلسفة » : « كل دين ليس دينهم هو اختراع الناس ، بينما دينهم الخاص هو فيض من الله » .

إلا أن علينا أن نتسلح بالصبر وضبط النفس لتحمُّل المساخر التي يقدمهـا لنا تلموديو الحزب الشيوعي الجزائري ، كحقائق منزلة .

هل يتوجب على الذين يعيشون في داخل الثورة الجزائريـة أن يتحملوا دلال هؤلاء الذين يعيشون على هامشها؟ هكذا يفعل لاعبو الشطرنج مع المتفرج الثقيل الثرثار ؛ أو السائق اليقظ الذي يزعجه المسافر بادعائه معرفـــة الطريقة الفضلى لقيادة السيارة .

هذا هو المثل الذي يقدمه « غيارا » الكـوبي ، الثوري المنتصر المتكـبر ، متظاهراً بلامبالاة جافية : « إنني لا أهتم إطلاقاً لما يمكن الشيوعي الفرنسي ان يحدثنا به ، ما دام الشيوعيون الفرنسيون لا يقدرون حتى على إيقـــاف الحرب

الجزائرية[1] . »

إن صمتنا المحتقِر إزاء الرأي الذي يفصح عنه شيوعي جزائري يمكن أن يبرَّر بوجهة النظر هذه نفسها . خصوصاً حينما تأكـله المرارة في رؤيته — من بعيد — أن التاريخ يتكون في معزل عنه ..

إن مشكلتنا ، مع ذلك ، مختلفة . ذلك أن أساليب الحزب الشيوعي الجزائري — الشبح قد أثنت عليها « الكومونيست » — المجلة الرسمية للجنـة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي . وبهذا عملت سلطة مجلة موسكو العقائدية على إظهار المقالة النقديـة بمظهر شبه علمي ، وأتاحت للـكاتب الزهو المصطنع البروموثيوسي .

يمكن جزائريون كثيرون — خصوصاً بين الشبان — أن ينقادوا للتطرف فلا يميزوا بين عقيدةٍ آسرة قوامها الفلسفة ومنهج العمل من أجل عالم إنساني شامل ، وسفاسف درويش ينتقد غيره .

سنساعدهم إذن ليعتادوا على صيانة حريتهم في الرأي ، رافضين أن نتلقم سلبياً آراء مسبقة تخدر الحساسية النقدية ، تخدير البنج . وهـذا ليس وقتـاً ضائعاً . إننا ، بدحضنا تلك التبسيطات المفرطة ، نكتشف المواضيع الرئيسية ونقدم للجهد الشخصي فائدة مزدوجة : التطهر والتكون من جديد .

رأينا أن الوطنية الجزائرية تطهرت من الطائفية والتعصبية . هذه صفة لا يستغنى عنها ، وقاعدة انطلاق راسخة لتـأمين التقدم المستمر للثورة القومية التحريرية .

لكن هذا لا يكفي . فالمبدأ الثوري المعروف يذكّر بصواب أن التنظيم يتحكم في كل شيء ، منذ أن يُرسم الاتجاه السياسي رسماً صحيحاً .

هذا الاقتران الضروري بين السلاح الإيـديولوجي والسلاح العملي ، حققته الثورة الجزائرية بوساطة جبهة التحرير الوطني ، نموذج المنظمة القومية الثورية.

---

١ — جريدة الاكسبريس — باريس ، ١٨ – ٥ – ١٩٦١ .

هذه هي الحقيقة الصادقة .

إن جبهة التحرير الوطني ، التي تكونت في نار الثورة ، أعطت ـ باعتمادها على تجربة غنية خصبة ـ للجزائر المقاتلة مركزها السياسي ـ الحربي الذي جاء على صورة اللهيب المتأجج نفسه ، اللهيب المتجانس ، المتوافق .

ومن السهل أن نبرر عام ١٩٦١ ، التنظيم الذي تبنته جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٤ ، بقوته وحسب ؛ وهي قوة أثبتتها التجربة .

لكننا مضطرون ، باعتباره دائماً موضع نظر ، أن ندافع عن مبدئه ذاته : الانضواء الفردي إلى وحدة العمل في الأساس .

هذا غريب . والحق أنه وقعت علينا ، نحن أعضاء الجبهة ، مهمة الدفاع عن أسلوب صار عند الثوريين في العالم كله حقيقة بديهية .

إذا كانت الجبهة الواحدة هي العمل وتنظيم عمل الجماهير ، فإن وحدة العمل في الأساس هي في آن معاً ضمانة الترابط ، والوسيلة الأكثر صلاحاً لقيادة الشعب نحو انتصار أهدافه .

هذا واضح .

إن حقيقة الجبهة الواحدة تعني ـ وتستوجب ـ وضع الجهد الأساسي في الأساس .

هذه بداهة ينبغي التدليل عليها ... بالشفاء من الباطل والعبث .

لنبدأ بالبداية .

ولنكشف فيما يتعلق بمنظمة « نجمة أفريقيا الشمالية » خطأ تاريخيا عند مؤرخ ماركسي ـ لينيني .

سنرى كيف أن تفصيلاً بسيطاً في الظاهر يمكن أن يغير الواقع ، وكيف أن خطأ تنظيمياً يمكن أن يفسد الاتجاه السياسي ذاته ...

وتلك هي الفأرة التي يمكن أن تلد جبلاً .

يشكر السيد « إيف لاكوست » لمشاركته حديثاً في فضح التاريخ «الرسمي» للمغرب . وهو ، في دراسة أخرى حول تطور الجزائر السياسي ، يؤكد بذكاء

أقل ، أن « العنصر الأول ، وهذا واقع ذو دلالة ، في الحركة القومية الجزائرية، كان حزباً عمالياً هو « نجمة أفريقيا الشمالية » ، الذي أسسه عام ١٩٢٦ الحاج (علي) عبد القادر ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي[1] ... »

هذا خطأ مزدوج وكبير جداً !

وهذا جهل لا يُغفر لأنه يتصل في آن معاً بالتنظيم وبالعقيدة .

لنصحح . إن منظمة « نجمة أفريقيا الشمالية » المنظمة ـ الأم للحركة القومية المغربية ، كانت في أصلها تجمعاً جماهيرياً مناهضاً للاستعمار ، وذا اتجاه ثوري . وكانت ، بتكوينها واتجاهها ، الصورة الاولى ، النظرية والعملية ، لجبهةالتحرير الوطني . والأعضاء القدامى في الحركة القومية ذات الاتجاه الثوري ، يرون أن جبهة التحرير الوطني هي التفتح شبه المثالي لمنظمة « النجمة » .

لنحدد . لم يكن ممكناً ، ولا جائزاً ، أن تكون « نجمة افريقيا الشمالية » حزباً – وعلى الأخص ، حزباً « عمالياً » . ذلك أن الشيوعية الدولية كانت تمانع في تأسيس حزبين أو عدة أحزاب « عمالية » في بلد واحد . من غير المعقول إذن ، أن نتصور الحزب الشيوعي الفرنسي يبادر على مسؤوليته ، بتكليف جزائري عضو في لجنته المركزية، بتأسيس حزب « عمالي » للأفريقيين الشماليين ... كان يصير واجباً ، لوجود هجرة أجنبية كبيرة ، أن تؤسس أيضاً أحزاب « عمالية » للبولونيين والإيطاليين . والواقع أنه حينما كثر المنضوون الأجانب الذين لا يفهمون الفرنسية، فكرت المنظمة الداخلية، المرنة الأسلوب ، بإنشاء « فرق حسب اللغة » . وهذا ما كان موجوداً في الحزب الشيوعي الفرنسي ، والمنظمات الشيوعية الأخرى . وقد تسمح باستثناء واحد في الحزب الشيوعي الإسباني بعد انتصار فرانكو .. ولم يكن يخطر على البال ، أن هذا الشذوذ « الموقت » يمكن أن يدوم خمسة وعشرين عاماً .

إذن ، لماذا أنشئت في باريس منظمة « أفريقية شمالية » ما دامت المنظمات

---

١ ـ أفريقيا الشمالية ، وثائق إدسكو رقم ٦١ ـــ ١٩٥٧ شامبيري (سافوا) .

الشيوعية القائمة هناك ، مفتوحة للجميع ? كان ذلك ضروريـــاً لجمع المهاجرين المغاربة في فرنسا ، الذين لم يكونوا يتحسسون إلا بقضية التخلص من الاستعمار.

وما كان ضروريـــاً في فرنسا ، كان ضروريـــاً أيضاً في الجزائر وتونس ومراكش . كان ينبغي حشد جميع المضطهدين المصممين على الكفـاح من أجـل الاستقلال القومي للمغرب ، دون تمييز في الطبقة أو في المراتب الاجتماعية .

كان ذلك صحيحاً من الناحية العلمية . وكان ينبغي ، بالنسبة لكل من بلدان أفريقيا الشمالية ، الانتباه الى الأمور التالية :

١. كان الضغط السياسي والاقتصادي والثقـافي والديني الذي ينيخ بكلكله على الشعب كله ، يلهب الشعور القومي ضد السيطرة الأجنبية ويعطيه الأولوية على الشعور الطبقي ؛

٢. كان التخلف الاقتصادي في المستعمرة ، المحرومة من الصناعة ، يظهر في طبقة عمالية قليلة العدد ، متنوعة وفي تمايزٍ اجتماعي غير واضح المعالم ؛

٣. إن البورجوازية القومية والأنتليجنسيا ذات الثقافة العربية أو الفرنسية ، تهتم اهتماماً حقيقياً بزوال النير الاستعماري ؛

٤. ينبغي تقدير الصفة التقدمية في القوى الاجتماعية أو الفردية ، بالنسبة إلى وضعها إزاء الاستعمار وردة الفعل الاستعمارية – الإقطاعية .

والحق أن حركة الأمير خالد المناهضة للاستعمار أو حرب التحرير الوطني ، التي قادها الأمير عبد الكريم ، هما في صميمهما حركتان تقدميتـــان ، على الرغم من الطابع البورجوازي عند الأول ، والمظهر الإقطاعي عند الثاني .

كان هذا الوضع ينطبق أيضاً ، في وقتنا الحالي ، على سلطـــان مراكش ، الذي طالب الحكومة الفرنسية بتوسيع الحق النقابي ليشمل عمال المحمية . وكان بذلك ، على الرغم من اتجاهه التيوقراطي ، أكثر قربـــاً إلى الديموقراطية من « فنسان أوريول » الرئيس الاشتراكي الذي رفض أن يعطي الحريات النقـابية للعمال المراكشيين ودافع عن مصالح الرأسماليين الكبار ، فرنسيين وأجانب .

يتضح مما تقدم أن الأداة الفضلى لتمهيد طريق الاستقلال القومي ، لا يمكن

أن تكون حزباً « عمالياً » ، إنما يجب أن تكون جبهة قومية شاملة ، تضم العامل ورب العمل ، الطالب والفلاح .

كان مفروضاً ، بالنسبة « لنجمة أفريقيا الشمالية » أن تقوم في المغرب بدور الوحدة القومية والوطنية والشعبية . لكنها ، لسوء حظ الشعوب المغربية ، لم تحقق آمال الذين يتطلعون إلى وسيلة فعالة للتحرر الوطني . بل لقد تقلصت في حزب عمالي ، وكأنها تقتفي أثر تروتسكي الذي كان يأخذ على الشيوعية الدولية « بحثها خارج البروليتاريا عن قوى ثورية جاهزة . » والحقيقة أن تصلب الكومنترن العقائدي لم يتضح بدقة إلا عام ١٩٣٠ بالشعار القائل « طبقة ضد طبقة . »

ثم إن « نجمة أفريقيا الشمالية » تقلصت ، وهذا طبيعي ، الى منظمة جزائرية ، تعكس إلزامياً السيطرة القومية لأعضائها . الأمر الذي لم يكن طبيعياً أيضاً هو حين كانت ، وهي المنظمة المناهضة للاستعمار ، تفلت من رقابة موجهيها ، – عقائديي موسكو وباريس . ولكي نسهل فهم هذه القضايا نرى أن من الضروري أن نعود بالذاكرة الى التاريخ .

أسس «نجمة أفريقيا الشمالية»عام ١٩٢٤ في باريس عدد من الجزائريين، على رأسهم أحمد بلفول وعبد القادر حاج علي ، وعلي الجزائري وهو مناضل تونسي.

وقد أُعلن تأسيس الحركة بعد نجاح المؤتمر الذي عقده الأمير خالد في باريس ، وأطلق علانية ، للمرة الأولى ، صرخة المضطهدين المغاربة . والحق أن العمل الذي بُدىء للتحرر القومي أفاد كثيراً من سطوة حفيد الأمير عبد القادر ، وأفاد أيضاً من موافقته الشخصية ومساعدته غير المشروطة . وكان الأمير خالد موافقاً على مخطط الشيوعية الدولية ، الذي كان يهدف إلى أن ينشىء في وقت واحد الجبهة المناهضة للاستعمار في المستعمرات الفرنسية كلها . وأحمد بلفول هو نفسه الذي انتدب ليكون واسطة الاتصال بين الأمير خالد وسلطان الأطرش زعيم الثورة الدرزية ضد فرنسا . وأحمد بلفول هو نفسه أيضاً الذي أقنع ، بعد سنتين من تأسيس « نجمة أفريقيا الشمالية » مصالي الحاج

ودعاه ليخلف عام ١٩٢٧ الحاج علي رئيسها الشيوعي .

ويذكرنا السيد « إيف لاكوست »أن الزعيم الجديد « وجّه « النجمة » باتجاه مفاهيم قابلة للنقاش ، تقوم جوهرياً على أسس دينية ، وتنزع نزعة قومية وعمالية لا تخلو من بعض التضليل الديماغوجي ، وهكذا أولت اهتمامها الكبير « للعمل المباشر » وأهملت المظهر العقائدي[1] . »

الإيضاح مختصر . نعرف أنه موجه إلى معلمين يطلبون العلم . لكن المؤرخ يبرع حين يدافع ضد التاريخ « الرسمي » . لهذا يفاجئنا هنا ، إذ يخلق فينا الشعور بأنه يريد أن يموه المشاكل الحقيقية .

لنتجنب العتاب واللوم !

إنه لحكم متهور أن نحل أحجية هذا « الانحطاط » بمجرد تغيير قيادة « النجمة » . حتى لو أن هذه القيادة انحرفت نحو المحبة الكاذبة « للعمالية » — هذه القيادة الإقطاعية الديماغوجية التي تستخدم تعابير القرآن للقضاء على الشيوعية .

إن تحليلاً أكثر عمقاً يستدعي تقديراً أسلم ، وأكثر كمالاً وتوافقاً مع الحقيقة . لا يقول لنا دور بطل ، حتى ولو كان زائفاً ، كيف أن الحزب الشيوعي لم يعرف أن يحتفظ بسيطرته على « نجمة أفريقيا الشمالية » .

لا تكفي إرادة فرد لتغيير جبهة واحدة يقاس فيها النفوذ بمقياس الأهمية العددية وأهمية القوى والطاقات السياسية الكامنة في التيارات الإيديولوجية المواجهة .

ألن يكون من الأصح أن نبحث من جديد كيف أن مناضلين شيوعيين لم ينجحوا في القيام برسالتهم الثورية : تنمية الوعي لدى أعضاء « النجمة » ؟

وإذ ننظر إلى المشكلة من هذه الزاوية ، يتجه البحث نحو تقاسم المسؤوليات الناتجة من الشروط المادية والبسيكولوجية والسياسية والتاريخية في الحركة

---

١ — افريقيا الشمالية — المصدر السابق ص ٦٥ .

الاشتراكية الفرنسية .

إذا كان السيد « إيف لاكوست » عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي ، فسوف يتضايق من النظر في وثائق « القسم الاستعماري » ، أكثر الأقسام تعرضاً لضربات العدو ... سيكتشف إلى جانب المعارك الممتازة التي خاضتها « لجنة العمل ضد الحرب المراكشية » ، وسائل الاستعمار الفرنسي للدفاع الذاتي : الضغط البوليسي، الانحراف السياسي، العمل « الجزئي » ، الفساد الإيديولوجي أو الأخلاقي ، العصبية العرقية ...

سيعرف أن « جوبير » ، أول مدير لراديو الجزائر ، قد حصل على هذا المركز كمكافأة لبعض الخدمات التي قدمها لمصلحة الاستعمار . ويعرف أن آخرين سيكشف عنهم القناع ، ويطردون .

إن الدس والافتراء لم يوفرا بيار سيمار ، صديق الأمير عبد الكريم ، وعدو الاستعمار قولاً وعملاً . كانت الدعاية التي يوحي بها البوليس ، تصوره شخصاً مريباً « وربمابوليسياً » ، حينما كان الاختيار قد وقع عليه لتسلم مركز السكرتير العام ، أعلى منصب في الحزب الشيوعي الفرنسي ، خلفاً للسكرتير الذي أقصي لموقفه الاستعماري ـ العرقي .

كيف نعجب لرؤيتنا أشخاصاً بارزين ، ذوي شجاعة سياسية وشخصية لا تنكر ، ينسحبون من العمل ؟.. مثل حاج علي عبد القادر ، رفيق « هوشي منه » ، رئيس الاتحاد الدولي المناهض للاستعمار الذي أُسس في باريس قبل « نجمة أفريقيا الشمالية » ، أو محمود بن ليكهال الذي سجن لأنه انتصر للعمال الألمان المضربين في « الروهر » المحتل ، ضد إطلاق الرصاص عليهم من قبل الجيش الفرنسي .

الإيديولوجيا ، حتى ولو كانت متفوقة ، لا تقدر في الظروف المضطربة أن تحتفظ بحيويتها صحيحة ، سليمة . خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار ، الغباء والجهل الإنسانيين . كانت هذه هي حالة التكتيك في الجبهة الواحدة ، الذي طبق بطريقة آلية وتعصبية .

لندلل بمثال محسوس على الخطأ في تفسير الدور القيادي للطبقة العمالية . لا يجهل أحد اليوم كيف أن الحزب الشيوعي يمارس نفوذه في المنظمات الجماهيرية بوساطة مندوبين في النقابات العمالية ، واتحاد النساء ، ونقابات الفلاحين، واتحاد المستأجرين ، وأنصار السلام ، وجمعيات الطلاب والكتاب والمقاومين ... الخ. لكن المنهج لم يكن قد جُرب سابقاً . كان الحزب الشيوعي الفرنسي يريد ان يقلد تقليداً أعمى النظام الاشتراكي القوي الذي أقامه الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، ويقيمه بدوره ، في نظام رأسمالي داخل الحزب وخارجه ... هكذا رأينا - في الجزائر - مندوباً باريسياً يأتي خصيصاً ليطلب من الأجهزة النقابية اللاحزبية ان تعترف - شخصياً وجماعياً - للحزب الشيوعي بحق التفكير عوضاً عنها وإعطائها الاوامر والتعليمات من أجل تهيئة الثورة .

كانت هذه طريقة بارعة لتعزيز وحدة الحزب الشيوعي الفرنسي بتخليصه من نفوذ الفئات البورجوازية - الصغيرة ، من مثقفين وفوضويين - إصلاحيين ، وماسونيين . غير أنه كان من السذاجة البحث عن الانتصار بهذه المركزية الفريدة ، الديمقراطية الشكل ، لكن المقصية ، عملياً ، غير الشيوعيين كلهم . كان الفشل إذن أكيداً . فلم يقبل المناضلون النقابيون ، الميالون للحزب الشيوعي وغيرهم ، كالمناضلين القوميين ، عمالاً وطلاباً ، أن يمثلوا دور الدمى المتحركة في نوع من سراديب النظام الوثني ، يعطي فيه الحزب الشيوعي الفرنسي لنفسه تلقائياً ، حق التفوق ومعرفة كل شيء .

هذا الانشقاق لم يكتمل ، في الجزائر ، إلا مؤخراً . ولم ينشأ لمنظمة « نجمة أفريقيا الشمالية » فرع في الجزائر إلا عام ١٩٣٤ .

في عام ١٩٣٠ تأسس ، بإيحاء ومبادرة شيوعيّين ، الحزب الوطني الثوري . كان مفروضاً أن يكون منظمة جماهيرية كبيرة ضد الاستعمار ، تضم جميع أنصار الاستقلال الجزائري . إلا أن الظروف لم تكن مشجعة كظروف « نجمة أفريقيا الشمالية » التي أفادت في فرنسا من بعض الحريات الديمقراطية . وقد اضطر عندنا الحزب الوطني الثوري ، بعامل الضغط الوحشي ، إلى أن يمارس

نشاطه سراً . وكان يتعاون ، بسبب الصعوبات التي تعرقل نشاطه العلني وتحد من انتشاره ، مع الحزب الشيوعي واللجنة العامة لاتحاد النقابات ، في سبيل تنشيط التنظيم الوطني وتوجيهه . وكان سكرتير الفرع الجزائري للحزب الشيوعي ، أبرز العقائديين ، وهو في ثقافته السياسية خريج موسكو .

وكان يسهل هذا التعاون المنسجم بين الشيوعيين والقوميين ، عقيدة مشتركة إذ أن الحزب الشيوعي كان آنذاك يقول « بتعريب » التنظيم ، وبالاستقلال القومي .

واشتهر عام ١٩٣٠ بالاستنكار المشترك للاحتفالات السياسية التي أقيمت لمناسبة مرور مئة عام على احتلال الجزائر . وفي العام نفسه عقد سراً في الجزائر مؤتمر العمال العرب . واشتُهر عام ١٩٣٤ ، على الرغم من ممانعة البوليس ، بنجاح المظاهرة التي نظمت من أجل حرية العلماء بالوعظ الديني في الجوامع ...

وفي السنة نفسها عرض الحزب الوطني الثوري انضمامه إلى منظمة « نجمة أفريقيا الشمالية » في فرنسا . وفي هذه الفترة حدث الانشقاق القومي – الشيوعي . إن في منشأ الأزمة عناصر تشبه عناصر أزمة فرنسا ، لكن مع الفرق ، وهو أنها متواقتة مع التمرد الخفي الذي قام به الجزائريون الشيوعيون ضد وصاية باريس . وهناك فرق آخر : لم يعد القوميون هم الذين ينفصلون عن الشيوعيين ، بل صار الشيوعيون هم الذين ينشقون عن حزبهم ، لكي يبقوا في منظمة « النجمة » . ولم يعد الاتحاد الجزائري ذخراً احتياطياً لتكوين مناضلين شيوعيين في المستقبل . بل ، على العكس ، فإن ظاهرة التفاعل النفسي – السياسي حدثت للمرة الاولى في اتجاه معاكس بإيمان أعضاء الحزب الشيوعي إيماناً جماعياً « بالعقيدة القومية » .

هذه حيوية غريبة في الكثافة الإيديولوجية . وسوف نجدها فيما بعد مشفوعة بتجربة الكهّان – العمال الذين لم يستطيعوا مقاومة العدوى الهدامة في صفوف الفقراء الملحدين . ولقد تحققنا من ذلك ثانية ، وعلى نحو صريح، بالفشل المزدوج الذي ُمنيَ بـه ضباط الاستخبارات . لقد َفشلوا كلياً في مقاومتهم وطنية

الجزائريين . وخـاب مسعاهم باستسلامهم لعدوى جنون المتطرفين الذين كانوا مكلفين بتفشيل الدعاية الديغولية .

ولكي يتخلص الإنسان من خطر الإيمان بعقيدة هؤلاء الذين يحاول أن يهديهم الى عقيدته ، عليه ان يجد الوجه الصحيح للحقيقة ... أو يتجنب البلبلة .

إن القيادة البيروقراطية للحزب للشيوعي الجزائري لا تقبل وحدة القاعدة التي جعلت من جبهة التحرير الوطني وحدة قومية لا تنفصم . ورغم المبـادىء الثورية التي تنادي بها الجبهة الواحدة ، ورغم التجربة والوضوح ، فإنها تفضل التآلف على الانصهار . شأن « الفـأرة التي تجهد في إعطاء النصائح لصاحب المنزل ... »

« وهكذا ، فإن مشاركة حزبنا، من حيث هو منظمة ، في الكفاح القومي ، أعظم نوعياً وبما لا يُقاس ، من المشاركة التي كان يمكن أن يقوم بها مجموع رفقائنا لو ان الحزب كان منحلاً ...

« ومن هنا قررنا ألا يكون رفقاؤنا المنخرطون في القتـال المسلح مرتبطين بالحزب ارتباطاً تنظيمياً . ودعونا الشغيلة الجزائريين لتحقيق الوحـدة النقابية ضمن الاتحاد العام للعمال الجزائريين ...

« ونحن نرى أن مثل هذه التدابير ليست ضرورية في حقل الكفاح السياسي بل إنها لا تُبرر ... وفي أية حـال وبدءاً من اللحظة التي تظهر فيهـا الجبهة مخالفتها للارتباط المزدوج ، فإن وحدة العمل السياسي في جميع المستويات بـين منظمات الجبهة وحزبنا تبدو لنا أكثر الصيغ فعالية[1] ... »

لنُشرْ أولاً إلى ان هذا النص قد ورد في مقالة مخصصة لمهاجمة « التعصبية » عند « الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين » — (Ugema) المتهم بأنـه لم يحذف الحرف « M » من اسمه .

---

١ ـ معلومات جزائرية ، عدد ٣ ، ايار ١٩٦١ ، تقرير الفرع الخارجي للحزب الشيوعي الجزائري .

ونعترف بأن أحداً لم يكن حتى تلك اللحظة ، قد رأى أن الأمر على هـذه الدرجة من الأهمية . أكيد أن إخواننـــا الطلبة كانوا أحسنوا لو أنهم اقتدوا باتحاد النساء الجزائريات ،

« الذي غيّر تسميته التي كان يعرف بها قبل الحرب (جمعية النساء المسلمات الجزائريات) للتدليل على أهمية التقدم الذي حققه الشعب الجزائري . »

لكن الجوهري هو الروح لا الحرف . وعلى كل فـــإن ملاحظة صحيحة في الأصل ، لا تبرر بحد ذاتها الرغبة في إخضاع الواقع الشامل المتنوع المظاهر إلى نظرية الحزب الشيوعي الجزائري .

و سنوضح رأينا فيما نحن نفنّد أقوال منتقدينا .

يعطينا هذا النص فكرة عن الادّعاء الكلامي المتضمن في المقالة التي نشرتها « الكومونيست » المجلة الرسمية الناطقة باسم اللجنة المركزيـة للحزب الشيوعي السوفياتي .

أول ما نلاحظه هو أن الحزب الشيوعي الجزائري – أو بالأحرى ما تبقى من قيادته البيروقراطية – لا يريد ان يُقر بأخطائه التي لم يعرف أن يتوقعها أو يصححها منذ سبع سنوات . ودليل عجزه عن القيام بدور في الثورة الجزائرية يتجلى في السخط ، والتغطرس ، والتصلب .

لنتبع المتبجج « حتى باب الدار[1] » .

يقال إن الحزب الشيوعي الجزائري لم يحل نفسه ، لأنه شارك « مشاركـة أعظم نوعياً وبما لا يُقاس. » ونحن نرد على هذه الشعوذة المجردة ، بأدلة حسية .

ولنأخذ ، بالنسبة للقتال المسلح ، مدينة الجزائر مثلاً . كان ذلك في حزيران ١٩٥٦ ، صبيحة حكم ماتّيو المشهور . وبعد فشل المحاولة التي قامت لإنشاء فرقة مستقلة لقتال الصدمـــة ، سلّم الحزب الشيوعي الجزائري « مناضلي التحرير » الذين كانوا عنده ، إلى جبهة التحرير الوطني ، وكانوا ثلاثة عشر فدائياً[2] بينهم

١ – بالعربية في الاصل .

٢ – بالعربية في الاصل .

امرأتان . وقد وقّعت « دانيال مينّ » ، وحدهــــا ، اعتراف التحاقها بجبهة التحرير الوطني وولائها لها .

يتيح لنا حساب بسيط – تقني – أن نقدّر هــذه المشاركة التي « لا مثيــل لها » والتي قام بها الحزب السيوعي الجزائري . وطبيعي أننــا نقصر كلامنا هنا على المنظمة بحد ذاتها . فنحن لا نقصد التعرض إلى شجــاعة وعظمة ووطنية الجزائريين الشيوعيــين الذين عرفوا أن يموتوا بشرف من أجل استقلال الوطن المشترك .

ولنتحدث بلغة الأرقام . تعرف قيادة الحزب الشيوعي الجـزائري – أو لا تعرف – أن هناك قاعدة ذهبية لتحديد عدد أعضاء الحزب ، المتطوعــين أو المجندين في الفرق المسلحة . النسبة الخاصة به هي عشرة بالمئة من المجموع الـكامل لأعضاء منظمة أساسية . وهــذه هي النسبة التي فرضها ـ وحددها ـ الحزب الشيوعي الفرنسي فيما يتعلق بعدد الأعضــاء المخصصين لفرق الكومــاندوس من الجنود المتطوعين أو الأنصار

إن ثلاثة عشر مقاتلاً لمنطقة مدينة الجزائر كلها لشيء هزيل لا يجــدي في تأكيد قوة الحزب الشيوعي الجزائري . هذا يعني أن الأعضاء العاملين لم يكن يتجاوز المئة والثلاثين في العاصمة « العمالية » ...

ثلاثة عشر مقاتلاً لمنطقة مدينة الجزائر ، ومئة وخمسون أو مئتان لمنطقة الجزائر ـ الصحراء كلها[١] . هذا هزيل نوعاً بالنسبة لثورة قائمة على أرض الوطن ذاته ، حيث كان الحزب الشيوعي الجزائري نفسه ، سابقاً ، قادراً أن يجند ألفي متطوع جزائري للنضال في الفرق الدولية .

هذا خزي أليم !

الرجال الذين خصصوا للجزائر أقل بعشر مرات من الرجــال الذين أرسلوا إلى اسبانيا !

---

١ ــ لا نتحدث عن المجاهدين الذين مزقوا بطاقاتهم الشيوعية قبل الانضمام (الرسمي) عـام ١٩٥٦ .

وأقل مئة مرة من مناضلي جبهة التحرير في منطقة مدينة الجزائر ، المستقلة . ذلك أنه كان تحت تصرف الجبهة قوة مسلحة تقدر بحوالي ألف وأربعمئة فدائي بسجلاتهم وأسلحتهم . لم يكن التجنيد مشكلة قط . كان دائماً مشروطاً ـ ـ ومحدداً ـ بنقص الأسلحة أو توافرها .

إن ثلاثة عشر مناضلاً فقط لمدينة الجزائر ، لأمر هزيل وغير كاف لإلزام جبهة التحرير الوطني أن تعامل ، معاملة الندّ للندّ ، الحزب الشيوعي الجزائري الذي كانت لديه أسلحة يحتفظ بها . لماذا لم يجنّد الشبان والمتحمسين ويتركهم يصقلون المدافع الرشاشة الجديدة ؟ لكن لم يكن هناك من حظ للحزب الشيوعي الجزائري ... كان سيصادف حتماً عناصر من جبهة التحرير الوطني ، نظمت سابقاً ، إما سياسياً أو عسكرياً . هكذا أخذ اثني عشر رُشيْشاً جديداً من نوع « ستّن » مناضلون تابعون لجبهة التحرير لم يألفوا هذا الأسلوب في التفريط المشهور في فرنسا باسم « الدجاج المنتوف » ... ونعرف ، من ناحية أخرى ، أن رشيشات ثانية ايضاً من المستودع نفسه تُركت في الشوارع أو الأزقة المظلمة ، في احياء مختلفة من الجزائر ... وإنها لهدايا كريمة يقدمها مجهولون الى البوليس العدوّ .

للعمال الأشرار وسائل شريرة دائماً .

عفواً ! ألم يدع الحزب الشيوعي الجزائري « الشغيلة الجزائريين لتحقيق الوحدة النقابية داخل الاتحاد العام للعمال الجزائريين ... » ؟

واضح ان هذه هي الكلمة الدقيقة . هل كان الحزب الشيوعي الجزائري يستطيع أن يفعل شيئاً آخر غير ان « يدعو » ـ في الساعة الحادية عشرة ـ الى تعزيز « الاتحاد العام للعمال الجزائريين » الذي تأسس بمعزل عنه .. وعلى الرغم منه . خصوصاً ، أن هذا الاتحاد كان يضم الأغلبية الساحقة من الطبقة العمالية القومية ، وكان الحزب الشيوعي الجزائري قد فقد حظوته بين العمال إجمالاً على أثر الانشقاقات العمالية التي حدثت آنذاك . وماذا تبقى له وقد انفصل عن الجماهير ، وعُزل عن العمال ، والفلاحين ، والطلاب ، والنساء ،

والتجـار ؟

صار رأساً مريضاً على هيكل يابس ! بلى ، لكن ألم يكن يعطي احيانـاً إشارة على أنه حي ؟ أكيد أن مظهره كان يدل على حيوية متواترة بفضل قنينة الأوكسيجين : « مكتب النشر » ، الموجود في أوروبا الذي يطبع المنـاشير والكرّاسات ويوزعها من ثم ... بوساطة البريد .

إذن هذا الحزب الشيوعي الجزائري الوهمي هو الذي يطالب جبهة التحرير الوطني ، التي لم تقر الارتباط المزدوج ،

« بوحدة العمل على جميع المستويات بين منظمات الجبهة وحزبنا . »

إن القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري تُسفّه الوقائع . وهي تظهر بمظهر من يجهل المادة الثالثة من قوانينها هي ، والتي لا تقر « الارتبـاط المزدوج » السياسي ، حتى بالنسبة للماسونيين . وهي تنسى الشهامـة الوطنية لجبهة التحرير الوطني في محوهـا جميع النواحي السلبية المـاضية عند جميع الأحزاب . إنهـا تذكّر بوقاحـة البرغوث الذي يزاحم الفيـل السير نحو سفينة نوح :

« بين الحيوانات السائرة بخطوات صغيرة
استدار فيل ، بحنق ،
نحو البرغوث وقال له : « لماذا الزحام ،
سيكون هناك مكان للجميع[1] . »

والقيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري تُسفّه التجربـة . يبدو أنها تجهل القانون الأساسي في الجبهة الواحدة الثورية :

وحدة القاعدة ، دائماً ؛
وحدة القاعدة والرأس ، أحياناً ؛
وحدة الرأس ، أبداً !

---

١ ـــ هوغ ديلورم .

في المـاضي ، كان الحزب الشيوعي الجزائري والحزب الشيوعي الفرنسي ، إذ يُعلنان ثقتهما بالشعب ، أبطال وحدة القاعدة دائمـاً . ولقد بشّرا بمبدأ الانضمام الفردي بالنسبة للجبهة الشعبية والمنظمة الإسلامية ، وفيما بعد ، بالنسبة لفرنسا المناضلة .

أما من حيث فعالية الجبهات المختلفة ، فيكفي لمعرفة ذلك والاقتناع به ألا تكون ذاكرتنا ضعيفة .

مثل بغيض : هو مثـال ١٩٥١ – الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريـة واحترامها .

هذا الاتحاد كان ، ظاهرياً ، كاملاً . كان يضم الأحزاب المناهضة للاستعمار . إلا أنه كان ضعيفاً واهياً ، لأنه كان اتفاقـاً ووحدة من الرأس . كانت لجان المدينة تتشكل من ممثلي كل حزب . وكان الشعب بعيداً عنها ...

ومنذ الاجتماعات الأولى للجنة التنسيق ، شلّ الضعف التنظيمي العمل ... ولم تكن « الجبهة » إلا تحالفاً عاجزاً بين الزعماء[1] ، الذين هم سجناء انقساماتهم الإيديولوجية ، والمنهجية . والواقع أن وقتاً كثيراً ضاع في المناقشات البيزنطية ، وفي تعليق الجلسات ... لكي يُتاح « للمفوضين » الحائرين أن يستعلموا هاتفياً عن التوجيهات الضرورية ليعرفوا كيف يناقشون المقترحـات أو يعلنون موقفهم منها ! والفشل محتوم في حالات كهذه !

هل نهدّىء حماسة الأحداث في الحزب الشيوعي الجزائري ، فنذكّر بأن أفضل مثل على الجبهة الواحدة هي جبهة « فيات – منه » ؟

ولنتجنب الغموض . فهذه العبارة لا تتألف من اسم بلد أو حزب . إنهـا اختصار لعبارة « جبهة استقلال الفييتنام » .

إن « فيات – منه » هي جبهة واحدة القـاعدة . وتكوينها العمودي شبيه بتكوين جبهة التحرير الوطني . إنه تكوين منظمة جماهيرية يتم الانضواء إليها

١ – بالعربية في الاصل .

فردياً كما كان الأمر بالنسبة لمنظمة « نجمة أفريقيا الشمالية . »

جميع الأحزاب المناهضة للاستعمار انصهرت في بوتقة الوطنية القومية الثورية . كان هناك ، إلى جانب الشيوعيين والاشتراكيين والنقابيين والطلاب والفلاحين ، قوميون ؛ — وقوميون متطرفون أنضجتهم التجربة الأليمة في الثورات التي أعلنت في عزلة ، وغرقت في الدماء ، كثورة نيباي الرهيبة الدامية ، عام ١٩٣٠ .

والقيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي تُسفِّه المستقبل . إنها تتشبّث يائسة بالمذهبية الضيقة التي تمليها المصلحة الأنانية . ولم تكن قادرة أن تفيد من التعاليم العقائدية او التجارب العملية .

لم يتأخر الحزب الشيوعي في الهند الصينية — في سبيل المصلحة العليا للثورة القومية ضد الاستعمار — عن الذوبان داخل « الفيات منه » ، جبهة استقلال الفييتنام . وكان عدد أعضائه يبلغ الخمسة آلاف .

وبعد الانتصار الخالد في ديان — بيان — فو — صبيحة الاستقلال القومي ، أعاد الحزب الشيوعي الفييتنامي تأسيسه . وهو الآن يعد مئتي ألف مناضل .

إن جبهة التحرير الوطني تقود منذ سبع سنوات ثورة قومية ضد الاستعمار . وانتصارنا حقيقة لا ريب فيها . واتحادنا يقين كامل . وقد لعبت في هذا كله الطبقة العمالية دوراً حاسماً . لقد أنعشت ، ونمّت ومتّنت معركة شعب بكامله في سبيل الحرية والكرامة . وهي ستتابع كفاحها في سبيل العدالة الاجتماعية والأخوّة الحقيقية .

ولماذا لا تكون جديرة ، في المستقبل ، بأن تقود الشعب الجزائري السيّد في رسالته الاشتراكية ؟

العامل السياسي والعامل العسكري

في كانون الأول ١٩٦٠ ، صبيحة الذكرى السادسة للثورة الجزائرية الجبارة التي لا تغلب ، قامت مظاهرات ضخمة في المدن غير منتظرة ، كانت بداية مرحلة جديدة . هجوم الجماهير السياسي المعاكس .

أدهشت الجزائر البيضاء العالم بحيويتها التي لا تكل . إن مدينة سيدي عبد الرحمن ، القديس العالم وشفيع الجزائر ، الذي عذبه حتى الموت طوال سنوات ثلاث مجرم الحرب روبير لاكوست ، فاجأت جلاّديها بدُفعتها الجديدة ، وبروحها الثورية الباقية كما كانت دون أدنى تغيير !

وبعد الصين الشعبية ، اعترف الاتحاد السوفياتي ، بالحكومة الجزائرية الموقتة ، على الرغم من أن سياسته كانت حتى ذلك الوقت حذرة إزاء فرنسا .

وأثناء ذلك عقد في موسكو المؤتمر العالمي الذي اشترك فيه واحد وثمانون حزباً شيوعياً وعمالياً . في هذه الفترة الملائمة ، بشكل خاص ، أذاع الراديو الفرنسي خبر نشر مقالة طويلة في المجلة السوفياتية الكبيرة ، موقعة باسم السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجزائري .

كنا ننتظر دراسة رصينة ، حية ، ممتعة .

لكن الجبل كان يتمخض ويلد فأراً ... اغتنمته الصحافة الباريسية وأبرزته ضد جبهة التحرير الوطني .

ونشير ، قبل الدخول في مناقشة المقالة ، إلى الأمور التالية :

١. أفادت المقالة من نشر صاحبته الدعاية . إلا أنها قدمت لنا في قطع صغيرة لا تغني من جوع ، فبقينا جائعين . وقد نشرتها جريدة « الأومانيتي » كجريدة « اللوموند » في مكانين متساويي القيمة ، وفي شكل خلاصات مشروحة .

٢. نشرت المقاطع الأطول والأكثر في مجلة « الوحدة من أجل الاشتراكية » (باريس كانون الثاني ١٩٦١) ، وقد استأنفنا البحث فيها كما رأيناها في بيان المعارضة الشيوعية .

لا تعترضوا بسرعة ! إن بيان القوى المناهضة لتوريز تظهر تعاطفها الكامل مع « الرفيق الجزائري المقيم في بلد اشتراكي . » وهو ، فوق ذلك ، ينتقد جريدة « الأومانيتي » التي ...

« ... يبدو أنها لم تدرك أهمية الوثيقة التي نشرتها « الكومونيست » بدليل أنها لم تر أن من المفيد نقلها ونشرها بنص الكامل . »

٣. لم نقدر أن نرى المقالة بنصها الكامل ، لا في الفرنسية ولا في العربية ـ البربرية ... وليست هذه خطيئة السيد « فاجون » مدير « الأومانيتي » ، ولا خطيئة روسو أو فولتير. ذلك أن مكتب الشؤون الخارجية في الحزب الشيوعي الجزائري ، الذي يفرط عادة في طباعته الأنيقة لكتابات قواده ، لم ير من جهته أيضاً ، فائدة في نشر « وثيقة » كهذه ، على هؤلاء الذين لا حظ لهم بمعرفة اللغة الروسية .

لماذا هذه السرية وهذا الحذر ؟ لنتجنب الفرضيات القائمة على الرمل . ولنتأمل بالأحرى ، في الأجزاء التي بين أيدينا ، محاولين أن نكوّن فكرة عن الأجزاء التي بقيت دون ترجمة .

يقوم منهجنا على التحليل الجزئي المترابط ، دون ادعاء الاختصاص الفلسفي والتقني عند العالم الباليو نتولوجي الذي يعيد ، انطلاقاً من عظام متحجرة ، تركيب هيكل – وصفات ! – مخلوق منقرض. سنجهد مع ذلك أن نوجد التركيب التأليفي بين المفهوم النظري والتطبيق العملي .

يقول السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجزائري :

« إن الناحية المادية في تعزيز الجيش الجزائري ليست كل شيء . وهي ليست حتى الأكثر أهمية ، بالنسبة للجيش الثوري . الأكثر أهمية ، هو الناحية السياسية ، ذلك أن الجيش الذي يتصف بوعي سياسي رفيع ، يمكنه ، أن يحل بنفسه المشاكل التي يواجهها ، ومن بينها مشكلة التسلح . إن معارضة العامل العسكري بالعامل السياسي ، كما يحدث غالباً ، لا يمكن أن تؤول إلا إلى إضعاف الطاقة الحربية في جيش التحرير الوطني . »

هذه ، نظرياً ، حقيقة أولية . إدعاء تعليمها – بعد ست سنوات – إلى قواد سياسيين - عسكريين لثورة عنيفة ، لكن لا شائبة فيها ، هو كسر باب مفتوح . هذا « الدماغ الكبير » للحزب الشيوعي الجزائري المترسب ، لم ينتبه إلى أن نصائحه لم تعد إلا « طرفة » نسج فوقها العنكبوت ، من زمن طويل ، بيته المليء بالغبار .

تعرف جبهة التحرير الوطني ، طريق بكين ، وبلغراد ، وهافانا ... إنها لإهانة طوعية أن يعتقد أننا نجهل مبدأ يقره العالم كله ، ويقره حتى هؤلاء الذين الذين يجهلون حتى وجود كارل فون كلوزفيتش ،أو نكتة كليمنصو عن الجنرالات ، أو صورة السمكة في ماء « ماو » .

والتسلح ، عملياً ، لم يعد مشكلة . وبتعبير أدق ، لم يعد صعوبة تضايق وتعذب. إن جيش التحرير الوطني يأخذ سلاحه ،اليوم ، حيث هو أو في الخارج ، من مصادر مختلفة؛ وهو كذلك يأخذ الأسلحة قسراً من جيش الاحتلال بالذات.

هذه هي الحقيقة الواضحة .

حين يكون الإنسان مؤمناً بأن الخير الأسمى هو الحرية وليس الحياة ، لا يعود المثل الأعلى له أن يحيا ويهرم كالكلب ، بل أن يجابه الموت كالأسد .

ولكي تكون لديه الشجاعة لأن يحلم باسترداد استقلال الوطن وانتزاعه ببنادق الصيد ، ضد الرشاشات والدبابات والطائرات ، لا بد أن يكون مليئاً بالتفاؤل الذي لا يتزعزع .

إن حرب العصابات قديمة ويمارسها الجبليون قبل أن يوضع عنها كتاب مدرسي للجنود المشاة. ومن السهل إنشاء فرق مناضلة صمم أعضاؤها على قتل جنود العدو البغيض، دون أن يُقتلوا. التعادل الكلاسيكي بين القوى «حيادي». ما هي أهمية عدد الكتائب التي تجردها السلطة الاستعمارية، إذا كان المناضلون هم الأكثر قوة حيث العدو هو، بشكل مفاجىء، الأكثر ضعفاً.

غير أن البسالة تحتاج فقط، لكي تصمد سبع سنوات، وتنتصر، إلى أن تقودها سياسة بصيرة.

من المؤسف أن هناك ما يغرينا للرد على المجلة العقائدية للحزب الشيوعي السوفياتي، بأسلوب جريدة « الكانار أنشيني ».

ذلك أن جبهة التحرير الوطني لم تنتظر السنة السابعة من الثورة الجزائرية الكبرى، لكي تفرق بين نقاط القوة ونقاط الضعف في حرب طويلة الأمد.

ونحن لم نتلهف لتوجيهات الساعة الحادية عشرة للحزب الشيوعي الجزائري المنهزم، لنعرف أن حرب الاستقلال هي، بطبيعتها، حرب ثورية.

إن قوتنا هي، قبل كل شيء، سياسية – بمثلنا الأعلى النبيل المقدس، بتماسكنا القومي، ببطولة شبابنا، بروح التضحية عند شعب بكامله، يسند جيشه الذي لا تطاله قوة.

أما ضعفنا في البداية، فيما يتعلق بالتسلح، والدعاية الداخلية والخارجية، والتنظيم، فهذا مما يحدث في أوائل كل حرب ثورية. وهذه الصعوبات الثانوية تزول شيئاً فشيئاً بفضل التجربة السياسية والحربية.

ومن ناحية ثانية، ألم تتجاوز الثورة الجزائرية هذه المرحلة بالاعتراف الديبلوماسي بالحكومة الجزائرية الموقتة ؟

هذا واضح حتى لمن يجهل نظرية المراحل التي يقول بها « ماو »: المرحلة الدفاعية، ومرحلة المقاومة المتعادلة، ومرحلة الهجوم المعاكس.

أكيد أن الرد على تجريد بتجريد آخر لا يكفي لدحر الخصم. يقول لينين: « المبدأ الديالكتيكي الأساسي هو أنه لا وجود لحقيقة تجريدية. الحقيقة هي

دائماً حسية . »

وعندنا من الوقائع الشيء الكثير . يكفي أن نأخذ منها ما ورد في الشهادات الجماعية التي لا تحصى ، والتي وردت على لسان ضباط فرنسيين . فلقد كُتب الكثير عن هذه الحرب الجزائرية التي لم تأبه « لأصول اللعبة » في أسلوب القادة العسكريين الذين كانوا يحلمون في الجزائر بربح الحرب التي خسروها في ديان بيان – فو . ولكي نكون موضوعيين – أعني بعيدين عن كل عداء للشيوعية قائم على الانفعال – سنبدأ بتفنيد يعالج الداء بمثل خواصه من الدواء ، معتمدين بين أعداد خاصة كثيرة عدداً خاصاً من مجلة شيوعية هي مجلة « النقد الجديد » .

نقرأ في افتتاحية هذا العدد ما يلي :

« إن مساعدينا العسكريين أنفسهم يميلون ، اليوم ، إلى القول بأن جيش التحرير الوطني الجزائري إن كان ، بالفعل ، منذ سنتين ، مجبراً على الدفاع ، فهو قد قاد هذا الدفاع بشكل أنقذ ، من جهة ، الجوهري في قواه العسكرية وفي سلاحه ، ومن جهة ثانية ، عزز كثيراً طاقته السياسية التي هي عنصر أساسي فيما يتصل بتناسب القوى في حرب من هذا النوع[1] . »

وفي العدد نفسه يلخص ضابط اشترك في « مؤتمر الدراسات » الذي عقد في حزيران ١٩٥٩ ، في « بون » آراء خمسمئة وسبعين ضابطاً عاملاً ، فيقول :

« إن الجيش الفرنسي في الجزائر هو أكبر جيش عمل في أية مستعمرة . فلماذا لم يستطع ، وهو المجهز بأحدث الأسلحة والأعتدة ، ومن بينها الطيران ، أن يقضي على ١٠ آلاف أو ١٥٠٠٠ ألف فلاح ، الذين أرهبوا السكان ، حسب التعبير المفضل عند القيادة العليا ؟

« لو كان الأمر حقيقة هكذا ، لكانت جبهة التحرير الوطني عزلت عن شعبها ولما دامت الحرب ثلاثة أشهر . »

---

١ ـ مجلة (النقد الجديد) ، عدد خاص : (الجيش ... الجزائر) ، باريس ، كانون الثاني ١٩٦١ .

ونقرأ أيضاً في العدد نفسه :

« إننا سنبين ، استناداً إلى أسس مُحِّصت ببالغ الدقة خلال مئات الشهادات المعاشة في الجزائر ، حقيقة الجهاز السياسي والعسكري لجبهة التحرير الوطني .

« جبهة التحرير الوطني هي المظهر السياسي والقومي للجزائر المكافحة لنيل استقلالها . ولهذا فهي تتمتع بتأييد الشعب .

« وهي باعتمادها على الشعب تنظم جهازها السري على الأرض الجزائرية كلها ، وتقود عملياً البلاد باسم الحكومة الجزائرية الموقتة

« إن توكيد القضاء عليها في إحدى القرى مثلاً لا يمكن أن يكون حقيقياً إلا إذا كان سكان هذه القرية جميعاً (لا الرجال وحسب) قد أبعدوا عنها ، إما بالاعتقال أو « بالتصفية » .

« هذا النوع من المنظمات ، الكامل الاستعداد لمجابهة الضغط ، يتوجب عليه ، مبدئياً ، أن يكون محكماً بحيث أن أعضاءه الذين يُعتقلون لا يشغلهم إطلاقاً التفكير بمن سيخلفهم . وهذه هي الحال بشكل عام ، بالنسبة لهذا النوع الذي « قضي » على بعض منظماته عشرين مرة ، وأعيد تنظيمها بعد كل مرة . هذا يعني أن القضاء على جهاز جبهة التحرير الوطني في الجزائر يتطلب اعتقال تسعة ملايين جزائري أو القضاء عليهم . »

البرهان قاطع . فهذه النتيجة الرائعة لا يمكن أن تصدر إلا عن سياسة متوازنة .

هل يعني هذا أن جبهة التحرير الوطني هي فوق الخطأ ؟ كلا ، ببداهة . إن ادعاء العصمة تجديف على النفس . ومحاولة نسيان الصعوبات ، والتدابير الخاطئة ، والأوهام ، والآراء التي لا أساس لها ، والخصومات الداخلية — محاولة" تدل على الغباء ، وعدم القابلية للنمو ، وعدم الجدارة . وتدل أيضاً على نظرة وهمية للواقع المتحرك المتغير ، دون التخلص من الخطر المحتوم : التحطم أمام جدار القصور والعجز .

الحساسية السياسية ، الشجاعة الخالصة ، التواضع الخلاق — هذه كلها صفات

نجدها عند مناضلي « مؤتمر الصمام » الجنود -- المقاتلين الذين يمارسون النقد الذاتي . فقد أشار بيان المؤتمر إلى أن :

« ... عملنا السياسي كان معرقلاً في البداية للأسباب التالية :

١. النقص في عدد الأجهزة والوسائل التجهيزية والمالية ؛

٢. ضرورة العمل الطويل القاسي من أجل الوضوح السياسي ؛

٣. الإلزام الستراتيجي بربط كل شيء بجبهة العراك المسلح ؛

هذا الضعف الطبيعي والمحتوم في البداية ، تم الآن تلافيه . وبعد المرحلة التي كان يُكتفى فيها وحسب ، بإطلاق شعارات المقاومة ضد الاستعمار ، شهدنا بعد ذلك الظهور الواقعي « لجبهة التحرير الوطني » على صعيد الكفاح السياسي[1] . »

وهكذا ، فإن جبهة التحرير الوطني قد أعادت معظم الأمور إلى نصابها بتلافيها للنقص والأخطاء ، في مثابرتها التي لا تُهادِن ، على الكفاح المسلح .

نشر بيان مؤتمر الصّمام في نوفمبر ١٩٥٦. لنقف قليلاً عند هذا التاريخ. يمكن كلٌّ منا أن يتساءل لماذا وكيف ، في نهاية ١٩٦٠ ! — يدلك سرّته[2] الناطق الرسمي باسم الحزب الشيوعي الجزائري، مُكرّراً عالكاً التعارض — المفترض — بين « العامل العسكري والعامل السياسي » ؟

ربما يكون التشوش مفهوماً وجائزاً ، قبل الاطلاع على نتائج المؤتمر التاريخي . لكنّ إعلانه — بعد أربع سنوات ! — في مجلة معروفة على صعيد دولي ، يدل على جهل فاحش ، ونية سيئة تماماً أو غباوة تامة .

ذلك أن بيان المؤتمر في ٢٠ آب ١٩٥٦ يشترط ، بعد ان ذكر أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، في الفقرة الثالثة :

« العلاقة بين جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني :

---

١ — جريدة « المجاهد » - عدد خاص ، منشورات « المقاومة الجزائرية » ، الطبعة الثانية ، ص ١٤ .

٢ — بالعربية في الاصل .

« أوّلية الشأن السياسي على الشأن العسكري . »

ووردت في الفقرة الخامسة المكرسة لجيش التحرير الوطني هـــذه التوصية السياسية التي تحدد مهمات المفوضين السياسيين :

« أ – تنظيم الشعب وتثقيفه ؛

« ب – الدعاية والاستعلام ؛

« ج – الحرب البسيكولوجية (الصلات مع الشعب ، الأقلية الأوروبية ، أسرى الحرب .)

« يقدم المفوضون السياسيون آراءهم في جميع مناهج العمل العسكري الذي يقوم به جيش التحرير الوطني . »

وزيادة في الإيضاح ، من أجـل مدير مجلة « الكومونيست » ، نُشير إلى أن الوثيقة الرسمية التي أوصت « بأوليــة الشأن السياسي على الشأن العسكري » ، نُشرت في عدد « المجاهد » الخاص ، في نوفمبر ١٩٥٦ .

ماذا يبقى من الناطق العقائدي باسم الحزب الشيوعي الجزائري ، من مزاجه البيروقراطي الذي يتحدث عن العقيدة مُتغتِنعاً كالعنزة ، واعظاً بلهجة قاسية جبهة التحرير الوطني ، من على منبر موسوعي تحول إلى عصاً ؟ ببغاوية متطفلة ، وإعادة آلية لبعض الألفاظ والتعابير ...

لنحاول ان نفهم بشكل أفضل ماذا تم عندنا .

قلنا إن الثورة الجزائرية لم تسلك طريقاً مثاليـــاً رُسم كسكة الحـديد . ولهذا فإن جبهة التحرير الوطني اضطرت غالباً ان ترتجل أساليب تكيّفها وفق الحالة الراهنة التي تواجهها .

كان كل تطبيق أعمى لنظرية شاملة دون اعتبار للواقع الجزائري والأوضاع الاجتماعية المختلفة ، سيؤدي بالثورة المسلحة إلى مقبرة الثورات .

أكيد أن عدم تقدير أولية بعض العوامل حق قدرهـا ، أو معنى السير في اتجاه دون آخر ، قد يؤثر في تطور الأحداث ، العام ، ويعقّد حل التناقضات المترابطة ، بعضها بالبعض الآخر .

ومع ذلك ، فإن ما لا يحتمل وقوعه ليس طوباوياً دائماً . إن عكس تسلسل منهجي يفتح أحياناً آفاق الاكتشاف ، غير المنهجي ، لكن النابع من الحياة ذاتها .

المثل الأكثر وضوحاً في هذا الصدد هو الثورة الصينية الكبيرة . فقد بدأت في المدن كحركة عمالية خالصة مثل الثورة السوفياتية الكبيرة. وكانت النتيجة فشلاً رهيباً ، وأخذ تشانغ كاي تشيك يقذف بالشيوعيين في مراجل القاطرات ... كان الصينيون يقدرون أن يصبروا كالبلشفيك الذين ثأروا لفشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ثأراً عظيماً مزدوجاً عام ١٩١٧ . لكنّ الصينيين بدل ان يستعدوا للثورة من جديد على الطريقة الروسية ، اختاروا طريقة جديدة ، ليست موازية ، بل معاكسة ! مثل كريستوف كولومب .

كانت ثورة صينية خاصة . من كان يظن ان ماو سيُغني آراء ماركس في تدليله على أن الثورة يمكن ان تنتصر أيضاً انطلاقاً من الأرياف لتحرر ، من ثم ، المدن ؟

ولئن كانت أصالة المنهج الصيني لم تعد تشكل فضيحة عقلية للديكارتية الماركسية ، فإن السير المتعرّج للثورة الجزائرية لا يجوز أن يصدم تأملات الثوري المفكر .

الثورة الجزائرية اصطدمت هي أيضاً ، مع مراعاة الفروق ، بالأشكال التي دُرج عليها وصارت ُتفترض لنجاح عمل يهدف إلى قلب نظام دولة ما .

وتكمن أصالة الثورة الجزائرية في الأوضاع الخاصة بإعلانها في أول نوفمبر ١٩٥٤ . ولا ضير في عودتنا إليها من خلال هذا النص الموجه إلى الأجهزة :

« كان أمام لجنة الـ ٢٢ حلّان : التنظيم ثم البدء بالثورة ، أو البدء بالثورة ثم التنظيم . « ... وكنا مجبرين على اختيار الحل الثاني ، أي إطلاق الطلقات النارية الأولى ، لكي نخلق جواً نفسياً ملائماً لتنظيم الثورة على المستوى القومي . وقررت لجنة الـ ٢٢ أيضاً عقد اجتماع بعد مرور ثلاثة أشهر على إعلان الثورة ، لدراسة الحالة ، والصعوبات الناشئة ، ذلك أن المناضلين الأول لم تكن عندهم ،

عملياً ، أية خبرة اختصاص في مجال الحرب الثورية التي لم يكونوا يعرفونها إلا عن طريق الكتب ، مما لم يكن ، ببداهة ، كافياً .

« لكن هذا الاجتماع لم يعقد، بسبب ظروف حالت دون انتقال المسؤولين. والواقع أن الأحداث ، بعد أول نوفمبر ، أجبرت المسؤولين على التفرق . ثم صار من المستحيل أن يجتمعوا خلال فترة طويلة ، لأن الشعب لم يكن بعد قد نظم لإقامة الاتصالات .

« والسبب في ذلك هو أن المسؤولين كانوا يظنون أن الشعب لم ينضج ولم يتهيأ بعد للثورة . وكان مفاجأة لهم ، إذن ، انضواء جماهير الشعب كله إلى الكفاح . »[1]

يا للحزن المسكت !

العمل أولاً ، والتفكير ثانياً .

كيف توجه ظاهرة لا تعرف بدقة ، طبيعتها وخصائصها ؟

نفهم الاضطراب النفسي الذي يتولد من الارتكاس الذهني الخالص . ها هي ثورة بدأت قبل أن تنظم . ويبدو أن اختيار توقيتها تم بفعل كالسحر ؛ فكأنما يبدو للبعض أن هنالك سحراً فك القوى الخفية من عقالها ، ولم يعد قادراً على السيطرة عليها .

وكان الكثيرون يتلذذون حالمين بتوقف مفاجىء كنظّارة ملعب يترقبون بفرح رؤية مروض النمر فريسة بين فكيه .

لكن تتابع الحوادث خيب جميع التكهنات المبنية على التحليل العقلي أو الاختباري؛ وبدا أنه من الأصح العودة إلى النظرة القائمة على حساب الاحتمالات. لكن أليس من الأفضل العودة إلى التاريخ الذي صنعه الأبطال وحدهم ؟ يعرف الجميع أن السر في تحقيق المآثر الأسطورية التي تتحدث عنها « ألف ليلة وليلة » يكمن في الطلسم : وهو خاتم ذهبي يكفي تحريكه لتحقق أية أمنية .

---

١ ــ بيان داخلي ، عدد ٤ ، حزيران ١٩٦١ (وزارة الداخلية في حكومة الجزائر المؤقتة ، تونس)

وملحمتنا تتصف بالواقع والخيال معاً . أما الملاك القوي الذي كان يحرس جبهة التحرير الوطني ، في حمّى الثورة الجزائرية ، ويدفعها في طريق النصر – فهو الشعب الجزائري العظيم .

أكيد أن هناك من لا يقتنع بهذا التفسير . وسيظهر مفكرون ينكرون أن تكون الثورة قد بدأت في العقول قبل أن تتجلى في المجازفة الكبيرة . هذا لا يمنع أن تكون وطنيتنا ، بطلنا الجماعي ، انطلقت وراء الحرية والعدالة والإخاء بروح التفاني والتضحية ، التي انطلق بها بطلنا الأسطوري الذي اقتحم غمار المجاهل في جبال الواق واق لكي يأتي بغرائب السحر : السيف الذي يقطع الريح ، والعصفور الناطق بالحقيقة ، والتفاحة التي تطرد الموت برائحتها .

يعرف كل شخص اليوم ، ألا مزاح في الثورة . والواجب المطلق على كل ثوري منطقي ، منذ ان تُعلن ، هو ان يخوضها ، دون تأوه أو تردد .

هكذا تصبح الثورة قضية جماعية لمناهضي الاستعمار كلهم. وهي إن صادفت عائقاً ، لا تستطيع ان تتغلب عليه إلا بمعجزة أو بموت فاجع . إن الواجب المطلق على كل ثوري منطقي هو ان يقذف بنفسه في غمارها لكي يسير بها نحو النجاح الاستثنائي او لكي يحصر الكارثة .

ولهذا كانت المهمة الاولى لجبهة التحرير الوطني ، هي ضمان المستقبل بملء الفراغ السياسي الذي يفصل الطليعة العسكرية للحركة القومية ، عن الجماهير الشعبية .

ولم تكن أولية العامل العسكري الظاهرية على العامل السياسي مشكلة رئيسية إطلاقاً ، وإنما كانت عملية تكتيكية موقتة ، ومحددة بأوضاع نفسية – سياسية في الواقع التاريخي آنذاك .

ولنحدد طبيعة هذا الجو ، لكي نتخلص من ضباب الغموض .

لا ننس أولاً الأهمية النوعية في شرارة الأول من نوفمبر ١٩٥٤ . فلقد زعزعت الهجمات المسلحة الأولى ، تحت العلم الجزائري ، الجغرافية السياسية في الجزائر . وجرفت الثورة السبات الذي ولّده جمود الأحزاب الفاشلة .

وأنضجت الوعي الجماعي ؛ لكن الوضع الثوري كان سيظل وضعاً ثورياً ، لولا بسالة الثوار الأول الذين حولوه إلى ثورة فعلية .

ولا ننس ، كـــذلك ، النمو السريـع في الشعور القومي الذي انفصل عن النزعة الإصلاحية الميتة . كان ثمة شعور جديد ينمو واضعاً في الذروة الحب الذي لا شريك له – حب جيش التحرير .

« الله ينصر المجاهدين[1] » ، هذه كانت الدعوة العامة التي تختتم بها بشكل دائم الصلوات اليومية الخمس .

وانتشرت اغنيات جديدة في تمجيد جنود جيش التحرير ، اطلقها وعممهـا الفتيان والفتيات ، وكانت تنشد في كل مكان وحسب إيقاعاتها ومعانيها :

« سيروا يداً بيد ،

« واقضوا على العدو المشؤوم . »

كان الشعب المترابط كأصابع اليد الخمس ، يترك الكلام للأسلحة التي تبذر الموت بين العدو ... وكان يغني مجـــد العلم الأخضر والأبيض ، رمز الوحـــدة القومية . كان يغني مجد الجيش الجزائري ، « البيتي بوسيه » **Le Petit Poucet** الذي يستطيع ان ينتصر على العملاق – الغول الفرنسي .

« لقد صممنا على المضي في الثورة

« وسوف ننتصر على فرنسا » .

أليس في هذا النموذج من شعرنا الشعبي الجماهيري ما يعبر عن وحدة الأمرين: السياسي والعسكري ؟

إن أدبنا الشفوي هو لغـــة الواقع التاريخي حيث الأسطورة أصـــدق من التاريخ . أكيد أنه يمكن اكتشاف أخطـاء في إنضاج عقيدتنا ، ويمكن ان يُدهش الكثيرون لحماقة بعض الوسائل في عملنا .

إننا نقبل الخطأ بنية صادقة . ثم قد يحدث من الخصومات الداخلية ما يخفى

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

على البعض .

مثلاً ، كيف تم إحباط المؤامرة السياسية البوليسية المتضمنة في مناورة « الحركة الوطنية الجزائرية » بادّعائها ، بوقاحة ، إنشاء واحتكار جيش التحرير الوطني ؟

كانت تسود في تلك الفترة بلبلة كبيرة في جزء مهم من الرأي العام . فلم يكن التمييز دقيقاً بين جبهة التحرير الوطني و « الحركة الوطنية الجزائرية » ، وكانت كلتاهما تدّعي ان جيش التحرير الوطني يخصها .

وقد تجنب الشعب الجزائري بجذر ، كي لا يخطىء ، التشكيلات السياسية التي لا هوية لها. ولهذا اتجه عفوياً نحو القوة الوطنية الأكثر يقيناً ، دون غيرها: جيش التحرير .

وقامت منافسة حادة على الفوز بثقة الرأي العام ، فتبارى الفريقان في إثبات علاقته التنظيمية مع الجنود المجاهدين .

وفي سبيل هذه الغاية كانت الحركة غير العاملة تنظم زيارات دعائية لمناضلين مزيفين ، سلحهم الجيش الفرنسي . وكان المندوبون ـ المحققون يجيئون خصوصاً من فرنسا . وكان يستقبلهم في الجزائر عميل مصالي الحاج خليفة بن عمار الذي صار فيما بعد رئيس « الجبهة الجزائرية للعمل الديموقراطي » التي وصفتها الصحافة الباريسية بأنها مصنع للأكاذيب ملحق بحكومة السيد ميشال دوبريه[١] .

ما العمل ؟

هل كان ينبغي ، بحجة الصفاء الميتافيزيقي المبدئي ، التمسك ، قبل كل شيء ، بالحكمة التقليدية اللاتينية القائلة بأن على العسكري الخضوع لسلطة المدني ؟

---

١ ــ في تقرير موجه الى رئيس الفرقة العسكرية التابعة للحاكم سوستيل ، إشارة الى أن عمار بن خليفة كان عميلاً للسيد أوروليك ، مدير الأمن العام ، منذ ١٩٤٣ . وقد كتب هذه الوثيقة التي وقعت بين يدي جبهة التحرير الوطني أحد موظفي وزارة الداخلية الفرنسية ، وكانت تحقيقاً عن فرق المقاومة الجزائرية عام ١٩٥٥ .

إن إعلاناً في غير وقته لأوّلية جبهة التحرير الوطني على جيش التحرير الوطني كان يعني تعريضه للتصدع ، والتورط في حبائل « الحركة الوطنية الجزائرية » وجعل انصار الجهاد المسلح يتراجعون ويتفرقون .

إن جبهة التحرير الوطني اعتبرت ، على العكس ، ان المحبة النبيلة العظيمة التي يكنها الشعب الجزائري لجيشه ، هي بمثابة الخميرة السياسية التي تشجع على الامتداد والنمو وعلى تماسك الثورة التي لا تتجزأ .

وقد تمت عملية القضاء على البلبلة في ثلاث مراحل .

١. كشف القناع في فرنسا عن الغش المزدوج الذي تقوم به « الحركة الوطنية الجزائرية ». فقد دعي المهاجرون الجزائريون لإرسال تبرعاتهم الى القرى، وعلى الخصوص في المناطق القبائلية ، حيث كان يمكن الاتصال المباشر بجيش التحرير الوطني . كان إذن جامعو التبرعات من « الحركة الوطنية الجزائرية » الذين لم يقدروا ان يأخذوا إيصالاً من جيش التحرير الوطني سارقين ، كذابين، مخربين ، وخونة .

هذا الأسلوب ولـّد متاعب موقتة في العمل السياسي ، لكن الوضوح الذي ترتب على ذلك، بفضل امانة الشعب لجيش التحرير الوطني، وبفضل الاحتراس الكامل إزاء « الحركة الوطنية » التي كانت اكثرية حتى ذلك الوقت ، سهل عمل التنظيم ، والتجهيز ، والقتال المسلح ، وأتاح لجبهة التحرير الوطني ان تتسلم صلاحيات تمثيل الجزائر في الخارج .

٢. تصفية فرق المقاومة الخائنة ، حيث هي . فقد طوق جيش التحرير الوطني الجنود المزيفين في معسكرهم وصادر بنادقهم الفرنسية . ولم ينقطع عن إحباط الحيل الحربية والمؤامرات السياسية – العسكرية من كل نوع : عملية « العصفور الأزرق » ، وقضية « الجنرال » بيلونيس ، وقضية « الكولونيل » كوبوس وغيرها ...

٣. الإجهاز على التعلق المبهم « بالحركة الوطنية الجزائرية » . فقد أخذ أشهر القواد العسكريين يوقعون تصريحات عامة مؤكدين أنهم مناضلون تابعون

لجبهة التحرير الوطني ، وواصفين الحركة المصالية بأنها تعمل لمصلحة العدو المستعمر .

الحق أن العامل السياسي لم يهمل مطلقاً، حتى عندما كان عمل جبهة التحرير الوطني يبدو غير منطقي لمحك الحزب الشيوعي الجزائري القليل المعلومات عن المعركة الحقيقية .

وقد اتضح كل شيء تماماً ، فيما بعد ، بفضل العمل السياسي الواسع الدقيق . ونُظم كل شيء . وأصبحت جبهة التحرير الوطني تعرف نهائياً هكذا : « جبهة التحرير الوطني ، الناطق الأصيل الرسمي باسم الشعب الجزائري . »

ومع ذلك ، فالكمال ليس من هذا العالم .

إلا أن جبهة التحرير الوطني راجحة في « ميزان الحسنات[1] . »

إن حكماً ذا قيمة ، لكي يكون صحيحاً وعادلاً ، لا بد ان يأخذ بعين الاعتبار التحدي الأولي حيث تقابلت ، منذ سبع سنوات ، خمسمئة بارودة صيد ، مع مئة ألف قطعة سلاح من أحدث طراز ، أي قطعة واحدة مقابل مئتين !

لقد هزم جيش التحرير الوطني أقوى جيش حديث خاض حرباً استعمارية : مليون جندي ! وقد قدم السيد فرانسوا بيلو ، وزير الدفاع الوطني السابق ، في مؤتمر « أكس – أن – بروفانس » (٢٩ – ١٢ – ١٩٦٠) لوحة مقارنة مدهشة :

« جندي أو بوليس مقابل عشرة مواطنين ؛ رجل مسلح مقابل ثلاثة أو أربعة فتيان. وبحسب هذه النسبة ، كان لا بد إذن لاحتلال فرنسا من أربعة ملايين جندي ألماني ، وحشد ستة ملايين فرنسي في المعسكرات . »

المقارنة مستحيلة في مجالات أخرى . هكذا ، في عام ١٩٤٠ ، ظهر طيران العدو الهتلري أنه « عادل » بقصر مهاجمته على الأهداف العسكرية . وكان

---

١ – بالعربية في الاصل .

تهديم المدن العمالية غالباً من عمل طيران الحلفـــاء ، الأخرق . كان الطيران الفرنسي ، القزم أمام الطيران الالماني ، يصول في الجزائر دون منافس ، فوق أية حركة على الارض، سواء أكانت حركة إنسان او حيوان ... وإلى جهنم القرى التي تُنسف وتُهدّم .

وفي هذا الصراع غير المتكافىء حدثت مآثر خـارقة . يعرف الناس جميعاً بسالة المقاومة الشعبية في أسبانيا وروسيا وفرنسا : صراع الإنسان ضد الدبابة . وقد حرق الملازم الجزائري محمد دبابتين نازيتين في أثناء تحرير باريس .

وفي الجزائر كانت المعركة معركة الجندي ضد الطائرة .

« في عام ١٩٥٧ كان المعدل الشهري للطائرات المصابة خمسين طـائرة . وفي « كانون الثاني ١٩٥٨ بلغ العدد خمساً وثمانين ، وارتفع الى مئة وست عشرة « في شباط[١] . »

هذه الأرقام عن الطائرات التي خُرّبت — وهي أرقام بقيت سرّيـــة — تعطي فكرة عن عدم التناسب الهائل بين القوة المادية الاستعمارية والمقاومـــة الوطنية . ذلك أن الجيش الفرنسي كان يدعم دائماً عمله ،

« بوسائل خيالية . خصوصاً « تغطيات » الطيران : طـائرة او أكثر لكل مجاهد[٢] . »

إن الثورة الجزائرية قصة غريبة ساحرة لا تكاد تُصدّق :

جندي فرنسي مقابل ثلاثة أو أربعة جزائريين بالغين ؛

طائرة فرنسية لكل مجاهد ..

وسبع سنوات من الحرب الضارية مع مليون قتيل وأكثر من مليوني معتقل وراء القضبان .

وثورة دون كلل أو هوادة . بل كانت قوّتنـــا العسكرية تتكامل وتزيد

---

١ — بيار كلوسترمان في كتابه « Appuie-feu sur l'oued Haillal »، منشورات غلاماريون ، باريس ١٩٦٠ ، ص ١٨١ .

٢ — مجلة « النقد الجديد » ، (أشير إليها سابقاً) .

باستمرار . إن كمية المعدات الحديثة ترافق الذكاء التقني لجنود مدفعيتنا ، وأخصائيينا ، وطيارينا المقبلين الذين درسوا في الخارج .

لقد دللت جبهة التحرير الوطني بأنها قادرة أن تقرن على نحو بارع الفكر بالعمل ، وتوفق بين الأمر العسكري والامر السياسي ، وتقود إلى النجاح ثورة مركّبة بتجنيبها ، في آن واحد ، اللامبالاة الرومنطيقية والتحجر العقائدي .

هل هذا من عمل الصدفة وحدها ؟ كلا . إن كل شيء في حساسية الشعب السليمة لا يقر ، كما يبدو ، الحركة العفوية ، غير العقلية . وهو على العكس يجد تعبيراً عنه في الحقيقة العلمية الشاملة : « لا حركة ثورية دون نظرية ثورية[1] . »

أتبجح ، وانتشاء ، بالنصر ؟ إننا بعيدون عن مثل هذه التوافه . مع أنها قد تكون ، بالنسبة لنا ، مسموحة وحتى مشروعة . إلا ان حكمة الشعب الصارمة ، التي رضعناها مع حليب الأمومة ، تحول دون ذلك . إنها توجهنا صوب التواضع ، هامسين : « الصغير ، وحده ، يتغطرس ويأخذه التصلف . »

نترك الاستنتاج ، بطيبة خاطر ، لأحد الأجانب . إن كلامه قوي قوة القضية التي يتكلم عليها. حتى ولو ظهر للببغاء المهاجر أنه تحيّز مفرط في تقدير جبهة التحرير الوطني :

« إن الثورة الجزائرية هي الحركة الوحيدة ، الثورية بالفعل ، في القارة الأفريقية ... ويشكل جيش جبهة التحرير الوطني أداة لا مثيل لها في أفريقيا .

« ... في الجزائر التي نالت استقلالها ، انطلاقاً من الصفر ، بعد قتال لا يُصدّق تقريباً ، ولا يفوقه إلا ملحمة « السير الطويل » الصيني من حيث أنه رهان تاريخي ومجازفة ثورية . »

---

١ ــ بالعربية في الأصل .

الأقليّة الأوروبيّة

كرّس أبو العلاء حياته لدعوة الإنسان إلى قليل من التواضع والاعتدال . ويذكرنا طه حسين في كتاب صدر حديثاً كيف كان هذا الفيلسوف المشهور يقسو على الإنسان، هذا الكائن ذي القدمين ، الذي يعطي لنفسه مزيداً من الاهمية :

« النحل لا تنتج العسل له (الانسان) ، ولا تفكر فيه حين تنتج العسل ، وإنما تنتجه لنفسها ، ولأنها لا تجد من إنتاجه بدأ[1] . »

عندنا في الجزائر مثل يقول : « ابن آدم أسود الرأس » ، وفوق ذلك يثقّل عليه قبحُ الخطايا السبع ... وأولها ، على وجه التحديد ، الكبرياء .

هذا ما يمكن ان يميز غطرسة ذلك الذي يخالفنا من بعيد . إنه يدجل على تاريخ ثورتنا ، كما لو أن هاجسنا لتحقيق النصر كان يحول دون تغيير التاريخ وكتابته .

لكل شيء وقته .

إن المجاهد الطاهر القلب يثابر على جني ثورته العسلية ليقطر رحيقها : الحرية . فمنذ سبع سنوات يجابه ، باستمرار وبلا كلل ، زنبور الاستعمار الذي هيجه ، واحداً إثر الآخر ، « نظامان » وأربع قادة وسبع حكومات في

---

١ ــ طه حسين ، خصام ونقد ، بيروت ١٩٥٥ ، ص ٦٠ .

فرنسا . » وكان المجاهد ، شأن النحلة ، لا يأبه « للمشركين[1] » الذين يزعمون أنهم يقررون مصير النحل أو مصير هؤلاء الذين يحررون « بر الجزائر[2] . »

إن العاصفة التي تطهر الارض الجزائرية كلها ، ومن ضمنها الصحراء ، هي في طريق الاكتمال . لقد صبر شعبنا على البؤس والشدائد فيما كان يحاول غالباً أن يحطم « الاضطهاد القومي[3] » . وفي هذه المرة صار الهيجان الشعبي ثورة تسير بنا إلى ضياء الانعتاق والتحرر .

لم يهرق عبثاً دم الشهداء الكريم . وقد اعترف لدولتنا الحرة المقبلة ، بالاستقلال والسيادة ، في الداخل والخارج ... وما أبعد ذلك عن الفكرة المضحكة التي كان يقترح تطبيقها «غي موليه» والتي تجعل منا عبيداً «احراراً» في وطن أسير .

كانت خرافة الدمج الاستعماري المموّه ، تتنكر بوحشية لجوهر الجغرافية الطبيعية والإنسانية والسياسية والتاريخية، لكن هذه الخرافة – خرافة إعطاء الاغتصاب صفة شرعية ، ماتت وأصبحت جيفة .

سيصير حراً تراب وطننا .

سيصير أحراراً مواطنونا دون تميز في الجنس .

وستنعتق رقابُنا من نير العبودية .

الحمد لله ! هلّلويا !

هذه هي صرخة الفرح الداخلي الشديد ؛ هذا هو نشيد البهجة الدفينة ، الذي يستقبل به مواطنون كثيرون، أياً كان دينهم، الفجر الجديد الذي سيضع عندنا حداً للظلم المجرم ، العرقي والجنسي .

أليس لنا الحق أن نفخر بالحدث الجزائري الذي يُجمع العالم كله على تقدير

---

١ – بالعربية في الأصل .

٢ – بالعربية في الأصل .

٣ – بالعربية في الاصل .

أهميته، من حيث هو بحد ذاته، ومن حيث القيمة التجديدية التي ينطوي عليها؟

سنعزز عالم باندونغ، العالم الجديد الذي تكوّنه الشعوب المتحررة من جحيم الاستعمار، وافضل ايضاً. إننا نتخطى مرحلة جديدة من مراحل إنهاء الاستعمار.

تلك هي النهاية لعِرق اسياد الغرب الأوروبي.

وتلك هي نهاية أوليغارشيا[1] الحق الإلهي لغير المسلمين. اننا نقضي على آخر سلطان لأسياد العبيد البيض. إننا نفضح «الرسالة التمدينية» التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي. الديموقراطية الاستعمارية ظالمة هي ايضاً كالديموقراطية الارستوقراطية القديمة في أثينا. إنها تمارس عدم المساواة، سياسياً، بادعائها الكاذب أنها تحقق المساواة الاخلاقية أو شبه الحقوقية. إنها تمنح الفرنسيين الجدد هيمنةً سياسية — اقتصادية تتعدى بكثير اهميتهم العددية: يخضع لكل مواطن اوروبي واحد، اثنا عشر جزائرياً مسلماً.

وها هو هذا الوطن الذي يحضن سكاناً من أصل أوروبي، كثيرين وموزعين في انحائه كلها، يستقل ويعود للمرة الأولى الى التقيد بالواقع العدديّ الحق. يعني لن يساوي منالآن فصاعداً مواطنٌ مسيحيّ مئة «مواطن» غير مسيحي، وإنما سيُنظر الى أي جزائري باعتباره جزائرياً وحسب، أياً كان أصله ودينه ولغته الأم.

صحيحٌ أن هذههي المرة الأولى التينرى فيها مستعمرة «يسكنها اوروبيون» تتحرر من السيطرة الاجنبية وتمنح السلطة السياسية لأكثرية السكان الاصليين.

هكذا تصير الديمقراطية، وقد وضعت في موضعها، حكمَ الاكثرية الشعبية.

يرى البعض ممن يحنّون الى عدم المساواة الانسانية ان في هذا الأمر قلباً لنظام العالم. فمن العار، كما يرون، السماح بأن يحكم سكاناً أوروبيين رجالُ دولة لم تصقلها، بعد، المدنية الغربية. هل كان ممكناً أن نتصوّر، مثلاً، كندا

---

١ — Oligarchie، حكم الاقلية.

الدولة المستقلة تحكمهـــا قبائل الاسكيمو والهنود الحمر ؟ وهل يمكن في عصرنا هذا ، عصر الفضاء ، ان نفترض ان أفريقيا الجنوبية متروكة لحكم غير البيض — لقبائل البانتو والزولو والهنود ؟

هذا بالنسبة لنا أمر طبيعي . وهو ينطبق ايضاً على النزعـــة الإنسانية في الإسلام . لقد بُديء عصرٌ جديدٌ في المجتمع القديم ؛ فلأول مرة — وكانت هذه ثورة في ذلك الحين — يُوصي القرآن الدولة وكل مؤمن بـ « عَتْقِ الرّقاب » . كان فرضاً دائماً (لم يكن موجوداً في اليهودية ولا المسيحية) ، عتقُ العبيـد وتسريح أسرى الحرب بين السكان او المقاتلين ، المسلمين وغير المسلمين أيضاً .

لا عِرقيّة ولا امتياز للأبيض على الزنجيّ . هـذا هو سر الانتشار التلقائي لدين يقوم على الإخاء حقاً .

« إن المساواة في عتق الاحرار بالولادة أتاحت ، في داخل الإسلام ، نشوء سلالات ملكيةٍ أعتقت حديثاً من العبودية ، كالمماليك في مصر ، والغُلامان في الهند . »[1]

كان التعايش السلمي بين الافراد حقيقةً واقعة . ولم يكن الخليفة عمر يتردد في استقبال من يشكون من المسيحيين ، في جامع الكعبة ، حتى لحظة إلقائـه خطبة الجمعة .

لا نقصد من هذه الاشارات الى التاريخ القديم إلا ان نساعد في فهم تاريخنا الحديث الفاجع ، وتاريخنا المقبل القائم على السلام والإخـاء . إنهم لا يعرفون الجزائريين . إنهم يجهلون مشاعرهم الحقيقية . لقد اكتفوا بازدرائنا واستغلالنا . واستمروا في ازدرائنا وتهديمنا حتى بعد أن أدرك الاستعمار ، منذ سبع سنوات ، ان استغلالنا لم يعد ممكناً .

لا نريد ان نرسم لوحة مثالية عن التقارب الذي كان قائمـــاً باستمرار بين المسلمين وغير المسلمين ؛ فإن نظرةً واعية تكفي لتبيُّنِ هـذا النسيج البشريّ

---

١ — ملاحظة لحميد الله حول العتق في القرآن وردت في ترجمته له .

الرائع في الوطن الجزائري ، والذي يُضيف الى هذا الوطن مزيداً من الأصالة والقوة. غير ان هذا كان في الواقع حلماً لا يمكن تحقيقه عملياً في نظامٍ استعماري ، عرقي ، وغير إنساني ؛ وكان يعبّر عنه ، بشكل خاص ، القانون الجزائري المحلي ، القائم على عدم المساواة – سياسياً ، واقتصادياً ، وثقافياً ، ودينياً ، وتقنياً .

كم كانت شقيّة المرأة الجزائرية ، من أصلٍ أوروبي أو غير المسلمة ، التي تجرؤ على الزواج من جزائري مُستعمَر ، حتى لو كان هذا الجزائري طبيباً أو موظفاً او بورجوازياً ؛ فإن هذا الزواج يُعتبر زواجاً من الأدنى ولا يمكن قبوله . وحين كانت تثور امرأة ما ضد هذه العقلية ، يقاطعها وسطها الذي تعيش فيه وحيّها .

وقد قامت مرة الجريدة الاسبوعية الفرنسية « فرانس – اوبسيرفاتور »[1] بتحقيق حول وضع الجزائريين المقيمين في فرنسا وكيفية معاملتهم ، ورد فيه هذا الاعتراف لأحد الجزائريين المنفيين :

« بالنسبة للنساء ، كان لا يزال هناك أملٌ في الماضي . لكن لم يعد هناك أمل في الوقت الحاضر . إنهن يخفن ، هنّ ايضاً . المرأة الفرنسية التي ترافق جزائرياً تُساء معاملتها هي ايضاً . فلا أمل لنا ان تحبنا امرأة فرنسية . »

وفي الوقت نفسه تحدثت الصحافة الباريسية عن العرقية في الصهيونية المعادية للعرب . فقد ذكرت أن دولة إسرائيل انتزعت من أم يهودية طفلها وزجت بأبيه المسلم في السجن . إن كلا من الزوجين لا يريد ان يرتد عن دينه . وهكذا نرى التعصب ملكاً في دولة حديثة !

« الزواج المختلط ممنوع في إسرائيل . والأطفال الذين يولدون من أب يهودي وأم مسيحية (ترفض اعتناق اليهودية) ليسوا يهوداً ولا شرعيين حسب النص القانوني اليهودي[2] . »

---

١ – تاريخ ٩/١١/١٩٦١ .

٢ – فرانس – أوبسيرفاتور ، تاريخ ٩ – ١١ – ٦١ .

« ضربني وبكى وسبقني واشتكى[1] . » – يمكن ان ينطبق هذا المثل العربي على المراءاة عند عملاء الرأسمال الضخم ، من صحفيين او مفكرين ، كما أنه يمكن ان يصور مكيافيلية الدول الاستعمارية .

فباسم الشفقة الانسانية كان الأخطبوط الواغل يلقي على ضحاياه أذرعه اللاقطة .

لكن تغلبت اخيراً الأخلاق الدولية على القباحة . فلقد نص على حماية الأقليات والكفاح ضد المقاييس العرقية المفرّقة ، في إعلان حقوق الانسان . وكانت جذور ذلك موجودة ، قبلاً في جمعية الأمم . إلا أنه كانت للحماية الدولية للأقليات القومية المضطهدة صفة اخلاقية غير عالمية وغير شاملة ... وكانت تفعل في اتجاه واحد ، إذ لم تكن تنبغي الإساءة الى انانية الدول الاستعمارية الكبرى ومصالحها .

كانت مبادىء الرئيس ويلسن ، بعد الحرب العالمية الاولى ، مفيدة للأوروبيين غير المسلمين فقط . وقد منحت الأقليات الالمانية أو البلقانية أنظمة وأوضاعاً خاصة او مستقلة. غير ان المناطق التي كانت موضوعة تحت الانتداب او الوصاية (سورية ، لبنان ، الكاميرون ، توغو ، الخ) بقيت دون أي أسلوب في الحكم يؤدي الى الاستقلال الإداري او القومي .

وفي عام ١٩٣٥ ، أرادت الفاشية الايطالية ، بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا ، ان تكون « حامية الاسلام » . كذلك حولت فرنسا العلمانية واللا اكليركية « حماية الأقليات المسيحية » الى أداة لتوسيع مجالها الحيوي ضد المسلمين .

وقد رفضت فرنسا ، من اجل « تمدين » المغاربة ، ان تطبق شريعة حقوق الانسان . وكانت الرغبة بتقديم الخير للجزائريين من الشهامة بحيث ان الجنسية العربية – المسلمة أدخلت بالقوة ضمن الـ ٤٠ مليوناً في الجمهورية الفرنسية التي

---

١ – بالعربية في الاصل .

« لا تتجزأ » ، وبحيث حذف الشعب الجزائري من افريقيا ومن الانسانية .

كانت الحكومة الفرنسية – يمينية او يسارية – تعتبر نفسها دائماً الامينة على الحق الالهي للضمير العالمي . كانت خبيرة في فن إثارة الرأي الدولي ، حينما تكون حقوق الانسان – حتى في حالة خاصة – غير معترف بها في نقطة من العالم لا يرفرف عليها علم الرفق الملائكي ، العلم الفرنسي .

في عهد نظام بيتان الاستعماري ، عام ١٩٤١ – اعتقل تسعة وعشرون جزائرياً في زيرلده لم يراعوا قانون البلدية الذي يمنع « على الوطنيين والكلاب » (كذا) الذهاب الى الشاطىء ووضعوا في زنزانة ضيقة لا نوافذ لها ، فماتوا اختناقاً .

وبعد خمس سنوات ، في زيرلده ايضاً ، في معسكر « الراحة » المشهور التابع للفرقة الاجنبية ، حلت محل التمييز العنصري ، المطاردة « التمدينية » بواسطة الكلاب ، حيث كان فتيان جزائريون يُطرحون، فريسة إنسانية ، بين انياب الكلاب البوليسية .

من غير اللائق ان نذكّر بأكوام الجثث في معسكرات الجيش الفرنسي السوداء عام ١٩٥٦ ، أو في افران الكلس في هيليوبوليس عام ١٩٤٥ .

ومن غير اللائق ان نذكّر بهتك أعراض النساء ، والتعذيب الوحشي اللذين تعرضت لهما نساء كجميلة ، في حين كانت لجنة حماية الحقوق والحريات الفردية تُستخدم ، لعجزها ، كضمان للتعذيب – الجريمة الرسمية .

كيف يُشك بإنسانية المدنية الاستعمارية ، وملاك الخير يفيض حباً حتى على آلام الحيوانات التي يهبها الله العقل ؟ وهذا البلد الاوروبي هل يمكنه ان يتقبل النصائح من أي كان ، وهو الذي أدرج في القانون الداخلي ، قانون « غرامون » المشهور ، القاضي بمنح الحيوان حقوقه ؟

كيف نجرؤ ان نذكّر بالوثيقة العالمية لحقوق الانسان مراعاة للجزائريين ، الاشخاص المحتقَرين الذين وهبهم الله النطق ، لكن لا روح لهم ؟

لحسن الحظ ان عبقرية الاستعمار التمدينية، تعرف ان تنقل الصيت الفرنسي

الى العالم الافضل . فإن فرنسا هي ايضاً في طليعة المدنية الكلبية ، مع الرقة المفرطة خصوصاً – رقة الشخص الذي لا يرضى ان يرتاح في القيلولة الا ببيجاما من النيلون . »

وقد تجسدت الرحمة الاستعمارية – الحيوانية في أعمال مكرسة لفصيلة الحمر . فبفضل « جمعية حماية الحيوانات » ، أُنشئت مستشفيات لمعالجة الحيوانات في أسواق الجمعة في « الميزون – كارّي » ، وأيام الاثنين في بوفارق . وما كان يلفت النظر بشكل خاص هو تدشينها ذو الطابع الدولي ، حيث تقام حفلة رسمية برئاسة سيدة عجوز تأتي خصيصاً من لندن . وإنها المناسبة رائعة للاحتفال بأخوة الانسان المتمدن لأشقائه الذين هم دونه ... كل ذلك دون نسيان التصريح والإعلان بواسطة الصحافة والصورة الفوتوغرافية والسينما والاذاعة أن من الضروري الإبقاء على السيطرة الاستعمارية – التمدينية ، لتعليم الفلاحين « الجفاة المتخلفين » كيف يسوقون حماراً حروناً او ينقلون دجاجتين حسب اوامر القانون للفرنسي ، التي تمنع بطريقة علمية الإيلام والإيذاء .

وليسكت المراقب الذي لا شفقة عنده والذي يبقى متمسكاً بخرافة « المتوحش الطيب » ، مدعياً معارضة السمو الاخلاقي للإنسانية البدائية بالحب البريء للحيوانية الخالصة من يبوسة القلب .

تلك هي الفلسفة العمياء لقاتل العرب .

« اللسان يمدح والقلب يذبح[1] » ؛ – أليس هذا المثل تحديداً صحيحاً للمدنية الخارقة التي تُعنى بالقطط الشاردة ، وتُعذّب وتهتك عُذرية الفتيات الجزائريات ؟

إننا لا نخلط بين الاستعمار والشعب الفرنسي ، كما خلط المدعي العام في قضية إيخمان بين النازية والألمان :

---

١ ـ بالعربية في الأصل .

« لم يكن باستطاعة هتلر ، إطلاقاً ، أن يصل الى الحكم ، ويقبض عليه ويجر معه الشعب الألماني ، لو لم يكن هذا الشعب نفسه مستعداً للمغامرة[1] . »

ولكننا ننتقد الاستعماريين الفرنسيين ، من أمثال سوستيل ، المثقف ذي الضمير المطاط . إنه يذرف دموع التماسيح على مصير اليهود الذين يطالبون مزهوّين بحقوقهم السياسية والوطنية في وطن جزائري مستقل . غير أنه يسد أذنيه دون شكاوى اليهود الشرقيين ضحايا التمييز « العنصري » الذي يسري كالوباء في دولة إسرائيل التي يسيطر عليها اليهود الأوروبيون الذين لم يعودوا يذكرون العرقية الفاشية .

« أكيد أنهم لا يُضيّقون عليهم . وإنما يجعلونهم يشعرون أنهم في اسفل الهرم اليهودي[2] . »

هذا الرئيس السابق « للتجمّع البرلماني الفرنسي – الإسرائيلي » ينتقد ، مؤخراً ، الرقابة ، ومصادرة الصحف ذات النزعة العرقية ، والحبس الانفرادي في المعسكرات . إنه يكتشف التعذيب فجأة ... فهذا الحِرْباء ، الديموقراطي – الفاشي لا يرى التعذيب ولا يُحس به إلا حين يهدد أنصاره الذين كانوا حتى ذلك الوقت يتمتعون بالحرية المطلقة وعدم العقاب . لا يُريد سوستيل ان يُعاقَب أصدقاؤه الذين يغتالون رهبان الجزائر ورئيس أساقفتها . وقد صمت الوزير السابق صمت المتواطىء حين كانت الضحايا جرائد مناهضة للفاشية ، وكان المعتقلون مسلمين ألم يوافق ، وهو حاكم عام ووزير في الجمهوريتين الرابعة والخامسة ، على التعذيب ، والقتل الجماعي ، ومصادرة الجرائد ، وحل بعض المنظمات العمالية ، وحل الجمعية العامة للتجار الجزائريين ؟

وهذا البرلماني السابق الذي جعل من نفسه بكل احترام المبادىء والدستور والأخلاق في الجزائر الفرنسية ، وعدم معاقبة العسكريين – الفاشيين ، لماذا لم

---

١ – جريدة الفيغارو ، تاريخ ١٨ / ٤ / ١٩٦١ .

٢ – المصدر السابق نفسه .

يرفع صوته احتجاجاً على عدم إقرار الوثيقة الأوروبية لحقوق الإنسان الموقعة في ٤ نوفمبر ١٩٥٠ ، قبل أربع سنوات من اندلاع الثورة الجزائرية ؟

وقد أجرى بعض النواب مناقشة عامة في ٢ ديسمبر ١٩٦٠ لمطالبة الحكومة بوضع مشروع قانون لهذه الغاية . ووعدت الحكومة بتقديمه للبرلمان في وقت قريب ...

وبعد سنة كتبت جريدة « اللوموند » (١٦ – ١٢ – ١٩٦١) تقول بأن الوثيقة هي قيد الإقرار منذ أحد عشر عاماً ! وكان السيد تيرّنوار ، الوزير بالوكالة ، عن السيد كوف دي ميرفيلّ الغائب ، يجيب ، إذا سُئل :

« إن هنالك صعوبة كبيرة تحول دون ذلك ما دامت فرنسا تواجه في الجزائر حالة استثنائية . »

ها هي أخير وثيقة رسمية . كيف تقدر الحكومة ان تثور ضد « ازدراء الإنسان » ، حين يمكن ان نتلقى من ستراسبورغ نفسها الوثيقة المرهقة التالية ، التي وجهتها سكرتارية المجلس الأوروبي الى مندوب السجناء الجزائريين (الحي الخاص في فريـن Fresnes) لمناسبة أزمة الجوع العامة :

هـ ١٩٩٦٤ ستراسبورغ في ٩ نوفمبر ١٩٦١

سيدي ،

جواباً على رسالتك المؤرخة في ٢ نوفمبر ١٩٦١ ، أتشرف بإعلامكم أنه ليس من اختصاص اللجنة الأوروبية لحقوق الإنسان معالجة قضيتكم .

فلكي تستطيع هذه اللجنة ان تدرس عريضة قدمها شخص معين ، او منظمة غير حكومية او فئة ذات وضع خاص ، ينبغي ان تكون الدولة التي تعنيها هذه العريضة :

أ – أقرت وثيقة حماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية ؛

ب – أعلنت بالإضافة الى ذلك عن قبولها بصلاحية اللجنة فيما يتعلق بالعرائض الفردية (المادة ٢٥ من الوثيقة) ، وهو قبول يرتدي طابعاً اختيارياً خالصاً .

غير أن الدولة التي تشكون منها ، فرنسا ، لا تُتمم حالياً أيـاً من هذه الشروط . وحين تتممها لن أتأخر في إعلامكم .

تفضلوا بقبول ، الخ . . .

التوقيـع : آ. ب. ماك نيلتي

سكرتير اللجنة الأوروبية لحقوق الإنسان .

لكن كيف تتحدث فرنسا ، دون ان تفقد حياءها ، عن احترام حقوق الإنسان حين يكون التعذيب نظاماً تفخر بـه باريس ، في مركز فانسين ، والكهوف ومراكز الشرطة ؟ حين تقبل الأرض الفرنسية « الوديعة الكريمة » كأمر واقع ، العقاب الاعتباطي دون قـانون ، والشنق والإغراق للأفريقيين الشماليين الذين ارتكبوا ، في باريس المنتفخة بالغطرسة ، « جريمـة التنزه بعد الساعة العشرين ، المحرم على ذي الرأس الأسود . »

إن فرنسا الديموقراطية ، مهد الكرامة الإنسانية ، تسربلت بالعـار من جراء الاستعمار – قبر حقوق الإنسان !

أمام الجزائريين ، كالكونغوليين ، طريق طويلة قبـل ان يصبحوا أناساً متمدنين . . .

لكن ، إذا تأملنا في عار الإرهاب التفتيشي الذي يفتك بنـا منذ مئة وثلاثين عـاماً ، - ألا نرى ان من المسموح او المشروع لكل مستعمَر « ان يأكل لحم المستعمِر الفاتك المجرم و « يشرب دمه » ؟

هذا امر كريه ولا شك .

يعرف الجميع أن الإنسان المضطهد يتحرك ، غريزياً ، بانفعال قوي ويحاول أن ينتقم . من السهل إذن أن نعرف لماذا لم تسيطر على الشعب الجزائري حمّى الفتك الجماعي بالعدو ، وهو الذي أذله هذا العدو ذاته ، واحتقره ، وعذبه ، وفتك به ؟

أولاً ، لأن الشعب الجزائري ، بمجموعـه ، وطنية صافية ، ورباطة جأش هي وليدة اليقين بالنصر .

وثانياً ، لأن السلطة الثورية التي تتمتع بهـا جبهة التحرير الوطني تخنق في المهد الغريزةالمترسبة عند مجموع الأفراد الميالـين إلى الرد بشر أدهى ، من الشر الذي أصابهم .

وها هي الوقائع التي تظهر الحقيقة الخالصة .

إن سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري ، صاحب مقالة «الكومونيست»، لا يكترث لهذا الأمر . إنـــه لا يتساءل عن السبب الذي جعل الجزائريـــين البؤساء ، الجائعين ، المضطهدين ، المعذبـــين ، المشوهين ، يستمرون في حرب ثورية ضد الاستعمار طوال سبع سنوات، دون أن تنحط عن مستواها وتتحول إلى حرب عرقية أو حرب قائمة على كره الأجنبي . إنه يوجه إلى جبهة التحرير الوطني هذه النصيحة الرفيعة الحكمة :

« لا يجوز أن يهمل العمل السياسي بـين صفوف الأقلية الأوروبية . ينبغي إنقاذ هذه الأقلية من تأثير المستعمرين المشؤوم ؛ ولا يجوز الاكتفاء بتصريحات مبدئية عامة . »

وماذا أيضاً ؟

إن سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري لا ينبح على القمر . وما دام ينصح جبهة التحرير الوطني « ألا تكتفي بالتصريحات المبدئية العامة » ، فهل سيقدم مخططاً ملموساً عن هذا « العمل السياسي » موضحاً كيفية القيام بـه ، نظرياً وعملياً ، لإنقاذ الأقلية الأوروبية من تأثير المتطرفين ؟

من السهل على الإنسان أن يعطي النصائح وهو بعيد عن وطنه . لكن ربما فشل فشلاً ذريعاً من يرتجل نفسه داخل وطنه « شيخاً مدبراً »[1] يوحي بالاتجاه الذي ينبغي سلوكه في أرض لا يبدو عليها أي أثر لأية طريق .

وإذن ماذا يتوجب علينا أن نفعل؟ إن تلك المقالة في مجلة الحزب الشيوعي السوفياتي لا تقول لنا شيئاً .

---

١ – بالعربية في الاصل .

لتدبر الأمر جبهة التحرير الوطني !

وعلينا أن نقتنع بنصيحة غير مباشرة هي صورة نموذجية للنصائح المبتذلة:

« ليست هناك ما تخشاه الأقلية الأوروبية ، في الجزائر المستقلة التي ستوفر المساواة الكاملة في الحقوق لهؤلاء الذين يقبلون أن يكونوا مواطنين جزائريين ، والتي ستمنح لهؤلاء الذين يؤثرون الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية ، نظاماً مطابقاً للنظام الذي سيمنح لا ٤٠٠,٠٠٠ جزائري الساكنين في فرنسا . »

هكذا حلت المشكلة الصعبة المعقدة، – مشكلة تعايش الجزائريين من أصل أوروبي ، تعايشاً أخوياً مع مواطنيهم العرب المسلمين الأكثر عدداً !

ويقف الشيوعيون الفرنسيون عند هذه « الفقرة البالغة الأهمية » ، مثنين عليها بإعجاب . ولعلهم يجدون فيها دليلاً على الشعور العميق « بالعالمية البروليتارية » .

إننا أقل تسامحاً . ليس لأننا قوميون « من البورجوازيين الصغار » ، أو شوفينيون ، بل لأن هذا الرأي التافه يستخف بعقيدة تستوجب الاحترام .

وبدل أن نحذو حذو منتقدنا في ردنا عليه ، سنحاول أن نفهم مخططاته التي يضعها بعيداً عن ساحة المعركة ويعلن بها نفسه خبيراً في فن الوصول إلى الحكم بواسطة الثورة في الجزائر وأفريقيا الجنوبية وأنغولا وكينيا . .

إننا لا نمزح . نعتقد أننا ندرك أن الاساسي في حرب قومية تحريرية ، ليس الدور الذي يقوم به المناهضون للاستعمار ، المناضلون العرب – البربر ، البانتو – الزولو ، والانغوليون ، والماو ماو . . .

وهكذا، فحين يُطلب إلينا « تخليص الأقلية الاوروبية من تأثير المستعمرين المشؤوم » ، أين نرى الضوء الماركسي الذي يسمح لنا بقلع الزؤان دون ان نقلع القمح في الوقت نفسه ؟

أولاً : ماذا ينبغي أن نرمي في كيس المستعمرين ؟

– الإقطاعيين ؛ الكبار والمتوسطين والصغار ، والمزارعين ذوي الأيدي البيض في شارع ميشليه ، والمساهمين الكبار ، وزارعي البقول الصغار ، الخ .

– البورجوازية الاستعمارية ، رجـال البنوك ، وأصحاب المناجم ، واصحاب السفن ، وأسياد الصحافة .

– الجيش ، البوليس ، رجـال الحكم والقضاء ، حراس السجون .. والأطباء ، والأطباء المتدرجين ، والطلاب ؟

ثانياً : كيف نحدد الأقلية الأوروبية ؟

يسمح لنـا هـذا العنوان الشامل أن نتجنب الكلام على الفروق الطبقية ، والإيديولوجية الاستعمارية ، والشوفينية ، والعِرقية . وسنعود إليها فيما بعد لكي نفهم « اليسارية » بالنسبة للبورجوازية القومية ، الحليفة الطبيعية والحقيقية للطبقة العمالية القومية في الكفاح المشترك ضد العـدو المشترك – ألا وهو الاستعمار الفرنسي والبيض الصغار أكثر دعائمه تعصباً .

ويكشف التبسيط المبتذل عن الأمية العقائدية والتناسي المزيف في محاولة التستر على إفلاس بيروقراطية الحزب الشيوعي الجزائري ... وتبختر نفوذه ، الذي يدل على قصوره وعجزه .

فيمَ البحث عن جذور نبتة طبية غير مفيدة ؟ ولمـاذا إضاعة الوقت في الكشف عن اسباب خيانة « البروليتاريا الأوروبية » ، وبحث العمل المناهض للثورة ، الذي قام به عمال سابقون صاروا في الطرف الآخر ، قتَلَة في « منظمة المقاومة من اجل فرنسة الجزائر » ، ومجرمين في «منظمة الجيش السرية» ، كعمال المصانع ، مثلاً ، والترامو ايات الجزائرية ، ومرآب يوسف في مدينة الجزائر ؟

كيف أدّى الخنوع في ضمير الدولية العمالية إلى المطالبـة بجعل « الجزائر فرنسية » ، ممـا يذكر بمطالبة الفاشية الإيطالية ، إتْنِياً وجغرافياً ، بنيس وسافوا وتونس ، ومطالبة فرانكو بوهران ؟

يمكن هذه الأسئلة المقلقة بحد ذاتهـا أن تثير أسئلة أخرى تمزق الآذان وتقضي على عبادة كليشيهات اللينينية الصدِئة .

إذ لو أننا نريد تعليل صدوف الناخبين عن الحزب الشيوعي الجزائري ، لكننا نسلط النور على السلوك المعكوس سياسياً وغير السوي ، الذي كانت تسلكه

عناصر مناهضة للشيوعية اجتماعياً ، ومناهضة الماركسية إيديولوجياً .

هل ينبغي ان نبارك بعض الأوساط المسيحية من البورجوازيين ، ووكلاء المزارع ، والمثقفين ، والكهنة ؟!

فلقد انتفض الرجال والنساء والطلبة والفتيات ضد تيار الارتباط بالماضي الاستعماري . وتحملوا مخاطر الحقد الغبي والضغط ، متعاونين دون تحفظ مع الوثبة الثورية الجزائرية ، ومجيء وطن متعدد الأجناس ، كريم ومستقل .

لا يخاف البعض من أن يذهلوا أمام هذه الأخوة التي ازدهرت حتى في جبالنا التي هدّمت وانتهكت حرماتها . وهذه « أوديت فيستر » تنقل شهادة عيان عن منطقة المقلة ، عشية السنة السابعة لثورتنا المحررة :

« منذ عدة أيام ، فوق الجبل المطل على المركز ، في فيوعان ، لعلع الرصاص طوال ساعات أمام مغارة التجأت إليها جماعة من الثوار . ومع ذلك فالناس هنا يعملون أينما توجهت والابتسامة على وجوههم . ثم إن بشاشة الآباء البيض تلاقي طريقها إلى قلوب الجميع .

« وللمناسبة دهشنا من كون المدرسة باقية خارج حزام الأسلاك الشائكة ، الذي يسوّر القرية . وما استطاع أحد ان يجيبنا .[1] »

من الممكن فهم هذا الحذر عند « جورنال داجيه » (جريدة الجزائر) . غير ان الجميع يعرفون أن الآباء البيض ، شأن إرسالية راهبات سيدة افريقيا ، لم يرفضوا مغادرة أديرتهم وحسب ، وإنما رفضوا ايضاً حماية الجيش الفرنسي .

وكانت الراهبات البيض شاهدات صامتات ، لكن يحرجهن الانحطاط العسكري الهستيري ، الجسدي والأخلاقي . فلطالما وقفن بسبب وجودهن بين النسوة والفتيات اللائي جُمعن على عجل ، وحلن دون اعمال النهب والاغتصاب والتدابير الانتقامية ضد القرى الخالية من الرجال ... فجميع الرجال الأحياء كانوا منخرطين في جيش التحرير الجزائري .

---

١ ـ الصناعة في القبائل ، « جريدة الجزائر » ، أول نوفمبر ١٩٦٠ .

ولقد اسرع الكهنة لنجدتنا في كل مكان ، واضافونا ، واعتنوا بنا[1] . ونبذت الكنيسة الكاثوليكية الماضي الاستعماري . ورفضت التقارب الخطر بين الصليب والحراب . ويمكن ان نتصور بأية وحشية – وبأية نية شريرة – كان البوليس الحربي يقتحم الأديرة كلها ويفتشها بحثاً عن فلاحين لا وجود لهم ، او لكي ينبش مناشير جبهة التحرير الوطني من بين اوراق الكتب الخاصة بالقدّاسات !

إن هؤلاء المسيحيين ، علمانيين ورجال دين ، بحرصهم على حسن الجوار والتعايش المتسامح او بتحالفهم معنا في مناهضة الاستعمار ، لم يكونوا خالين من الميل إلى الصفة الأساسية في الثورة الجزائرية . فهذه الصداقة التي كانت قائمة قليلاً او كثيراً ، حسب الحالة ، لكن المخلصة دائماً ، هي بالطبيعة ، تكريس لحسن النية لدى الطرفين . إنها دليل التضامن الصادق ، اللائق ، البصير ، النبيل .

ومـا دام الناطق بلسان الحزب الشيوعي الجزائري يتهوّر – في آخر ١٩٦٠ ! – فيأخذ على جبهة التحرير الوطني إهمالها « العمل السياسي في اوساط الأقلية الأوروبية » ، فاننا سنحاول ان نبرهن له على ما يناقض ذلك .

من حقنا أن نفاجأ ، لأن هذا البيروقراطي الدائر حول موسكو لم يصله تقرير سري عن الدوافع المختلفة التي هي الأساس في إنشاء الاتحاد الأول للأحرار في الجزائر عام ١٩٥٦ ! ذلك ان اعضاء الحزب الشيوعي الجزائري شاهدوا في الاجتماع التأسيسي الرسمي الذي عقد سرياً في احد مكاتب « حلقة التقدم » ، مندوبين عن « لجنة الهدنة المدنية » ، اتضح اتصال بعضهم بجبهة التحرير الوطني على اثر اعتقال فدائي بوغت مع احد رجال الكوماندوس وكان مكلفاً بالاقتصاص من – أكياري – المجرم رئيس إحدى العصابات المتطرفة.

---

[1] ـ قبلت إحدى الراهبات أن تضع رسالة في البريد من مرسيليا وإحدى العواصم الاوروبية . وكانت رسالة بنسختين ، وجهها إلى السيد جورج ميناي رئيس نقابات الولايات المتحدة ، الاتحاد العام للعمال الجزائريين الذي أحبط تدابير الرقابة العسكرية في الجزائر .

كيف ساعدت جبهة التحرير الوطني في ذلك ؟ بجعل المناخ سليماً وصالحاً ؟
كانت البلبلة بأعظم اشكالها تسود الجزائر في اواسط عام ١٩٥٥ ، خصوصاً المستوطنين الأوروبيين الذين لا يعرفون لهم اي اتجاه . وكانت الهوة بين الجماعات تتسع وتعمق . وسرعان ما اصبح عدم الثقة خوفاً ، وكرهاً عنصرياً ، ورعباً .

وكان شعارنا الأول هو الاتصال الشخصي بالجزائريين الذين هم من اصل اوروبي . وفي حين كان بعضنا قد انقطع عن استقبالهم في الأعياد ، وحفلات الخطوبة والزواج والختان ، فقد كانت عواطف وصلات جديدة تنشأ وتنشىء معها صداقات امينة تدهش اوساطنا المألوفة . وعلى الرغم من عدم تفهم جيراننا الذين كانت ردود فعلهم العلنية ، تفسد المناخ السياسي ، فإن بيوتاً كانت مفتوحة للفنانين ، رسامين وممثلين ، وللسينمائيين والصحافيين ... وكانت تتضاعف بشكل خاص ولائم « المغربية » من المساء حتى منتصف الليل في حي القصبة الذي أشيع انه غير مضياف ، وعدائي ، ويكره الفرنسيين . وكان المدعوون يأتون وينصرفون معاً ، في حين كان الحرس يراقب الطريق في توزيع منتظم حتى موقف السيارات .

كان مناضلون يتمرنون على التوفيق بين العمل غير الشرعي والنشاط الشرعي بمشاركتهم مثلاً ، في إنشاء جمعية « أصدقاء المسرح باللغة العربية » . ولقد تحدث البعض سابقاً أو سيتحدثون عن الدور الذي قامت به هذه الجماعة في ازدهار الفن المسرحي ، ونشأة الممثلين الجزائريين ، والأخوة الفنية .

ولا شيء أكثر طبيعية بالنسبة للمهتمين بالشؤون الجمالية الذين يؤثرون هاجسهم بالفنون الجميلة على هاجسهم بالمصير الفاجع الذي يعيشه الوطن الممزق. لكن لنحترس ، مع ذلك ، تجنباً للشطط ؛ فلا نعمم ، مثلاً ، ونسمي « الخضرة حشيشاً »[1] ، خالطين بين البقول الخضراء والهشيم . فلم يكن

(١) بالعربية في الاصل .

أصدقاء المسرح العربي كلهم من بقايا الرومان أو عهود الانحطاط يطالبون قبل كل شيء «بالخبز وألعاب السيرك» . وكان لأصدقائنا الأوروبيين ، على الرغم من أنهم لم يكونوا ينتسبون لأي حزب، دورهم في سياسة الوطن الجزائري وثقافته. وكان بعضهم من أصدقاء ألبير كامو ومراسليه .

فقد كان البير كامو ، مواطننا الذائع الصيت ، عازماً — وقد أدمت قلبه مجازر السكان المدنيين ، أن يجيء الى الجزائر وينادي بهدنة «مدنية »، احتراماً للأطفال والنساء والشيوخ .

هل كان ممكناً تشكيل لجنة تنظيمية ، من خارج الاحزاب ، تتولى تهيئة الاجتماع ؟

ولقد كان تنافسنا — على الصعيد الشخصي — عفوياً ، صادقاً ، بلا إبهام ولا مساومة . وكانت الفكرة النبيلة التي قال بها مواطننا الذي فاز فيما بعد بجائزة نوبل للأدب تلتقي مع العاطفة التي عبر لنا عنها الشيخ العربي التيبازي ، وقد هزته الفظائع التي ارتكبتها في تيبازا وغيرها الفرقة الاجنبية بحق النساء والاطفال. وأدى استنكار الجرائم الاستعمارية التي اقترفت ضد النساء والأبرياء الى مصادرة « البصائر » المجلة الاسبوعية الصادرة باللغا العربية وإيقافها، ثم الى اعتقال رئيس جمعية العلماء ، وتعذيبه واختفائه .

هذا الالتقاء النفسي بين الجزائريين الكبيرين ، المختلفين ، منشأ ولغةوثقافة ووسطاً اجتماعياً ، وايماناً ، ومثلاً أعلى ، هو اكثر من مجرد رمز . كانت هذه صرخة الأمل والألم نفسها يطلقها ابنان حول أم واحدة هي الجزائر الشهيدة...

لم تكن الصرخة الاولى ، صرخة الشيخ ، إلا حشرجة غير مسموعة .

أما الصرخة الثانية ، صرخة كامو ، فسنعمل على ان تصير مسموعة .

لقد ارتفعت داخل جبهة التحرير الوطني ، كما ارتفعت سابقاً في اوساط العلماء ، أصوات تعارض البادرة التلقائية التي قام بها محرر « الاكسبرس » اللامع لماذا ، على الاقل ، كان بعض مناضلي جبهة التحرير الوطني، « يضيعون وقتهم » في اعتناق مثالية بعيدة المنال ؟

ولم تكن للرأي الذي يرجح بعد المناقشة المثمرة بساطة الموعظة الساذجة التي تحث الذئب على احترام النعاج والحملان . فما من شخص في جبهة التحرير الوطني كان يتصف بهذه الثقة الساذجة . فقد كان واضحاً بالنسبه لنا جميعاً ألا شيء يؤثر في ضراوة الوحش الاستعماري الفرنسي إلا موقف منقذ واحد : ان يُدق عنقه . وكانت هذه مهمة الثوريين . لكن كان هنالك الآخرون ... فبالاضافة الى الاستعماريين — الفاشيين ، واللامبالين ، والانانيين ، والعنصريين ، كان هناك جمهور الضائعين ، والجاهلين ، والمترددين ، والحياديين ، والمتصدقين ، والانسانيين الساخطين على انسانية سفاكة ، الخ .

كان حظ الهدنة المدنية بنسبة واحد الى ألف .

وكانت جبهة التحرير الوطني تجيز لمناضليها الجزائريين ان يعملوا لها كجنود مجهولين تماماً . فليست المهمة اللينة المرنة ، عقيمة عقماً كلياً .

بل كنا نرى فيها تقدماً محسوساً ونتائج مباشرة .

أولاً ، كنا نجمع جزائريين من ذوي النية الحسنة ، دون تمييز عنصري او ديني ، من اجل هدف نبيل سام . فنكسر الطوق العنصري مدللين على أن الجزائريين المسلمين لا يكرهون ، على الرغم من الحرب ضد الاستعمار ، مواطنيهم من غير المسلمين .

ثانياً ، كنا نخلّص الديموقراطيين الاوروبيين من فوضاهم وجمودهم وعزلتهم المقصودة . وقد أُنشئت حول اسم لامع حركة جديدة ، لا مطامع لها ، وليس لها أفكار مسبقة تزعمية او انتخابية . وكانت لجنة تنظيم الاجتماع الذي دعا إليه كامو ولجنة الهدنة المدنية التي انبثقت عنها نموذجين لجبهة موحدة كبيرة متفرعة كانت حتى ذلك الوقت صعبة التحقيق .

ثالثاً ، قدمنا البراهين على امكان قمع المتطرفين والانتصار على عدائيتهم الفاشية .

غير ان ذلك لم يرق للمتطرفين . وأخذوا يتباهون ، واثقين من رضا السلطات وتواطوء البوليس ، بأنهم سيمنعون البير كامو من توجيه ندائه الداعي

لاحترام الاطفال والنساء والعجّز ... وقد طبعوا دعوات مزورة تمكنهم من الدخول الى قاعة الاحتفالات في الفندق الجديـد « اوتيل دي فيل » وتشويش الجو على هذا العادل الذي كان يحاول انقاذ حيـاة الابرياء . واستدعى الحـاكم آنذاك ألبير كامو ، وألح على خطر المتطرفـين ، ونصح بإلغاء الاجتماع الذي « تتضايق » الادارة الفرنسية من جراء منعه ...

ان الكلام على جواب اللجنة البديه الهادىء ووصف الحركة التي رافقته لإحباط مؤامرات العنف لدى المتطرفين ، يقتضيان قلم استاذ بارع هو ، مثلاً ، عمانويل روبلس ، العضو المناضل في لجنة الهدنة .

كنا في « حلقة التقدم » ، عشية الاجتماع .

وقد قررنا فوراً ان نغير مكان الاجتماع ، ونعقده في « نادي طارق » الذي يسهل الدفاع عنه اكثر من هناك : فقد كان له مدخل واحد بدل مداخل عديدة هنالك ، وكان في منطقة صديقة ، بينما المنطقة هناك ، كانت مشبوهة ، وكان الوسط هنا مسلماً مشجعاً ، وكان هناك ارستوقراطياً معادياً .

واتخذنا احتياطات استثنائية . البعض تطوع للسهر طوال الليل في النادي . وأخذ آخرون يطبعون على الستانسل دعوات رتبت بطريقة دقيقة تمكن من اكتشاف أي تلاعب او تزوير فيها ، بدل البطاقات القديمة التي ألغيت جميعاً ، الصحيح منها والمزور ، واحتلت فرق الحراسـة منذ الصبـاح صالة النادي الكبيرة وغرفه ومكاتبه ومدخله وجميع تفرعاته وما يتصل به ...

كان الحرس خارج النادي يحرك المشاعر بعدد أفراده الكثيرين ، وبالشبان (من طلاب ورياضيين) وبالنظام والقوة والوداعة .

وكان قد وضع قرب المدخل مكتب للاستقبال والرقابـة بإشراف رؤساء الفرق ، وكان يعرف كيف يتفحص بدقـة مثالية المدعوّين ، المعروفين وغير المعروفين ، حيث يُسمح بالدخول للأشخاص الذين سُجلت اسماؤهم في لائحة المدعوين الخاصة ، حتى الذين لم يمكن الاتصال بهم في آخر لحظة .

قبل ان تبدأ المحاضرة بكثير كانت القاعة الواسعة قد غصت بالحضور من

مستوى نادر جداً ، يمثلون مشهداً لا نظير له ، هو مشهد الأخوة العنصرية بكامل معناها . وكان بين الشخصيات الاسلامية فرحات عباس ، واحمد فرنسيس ، وتوفيق المدني ، وثلاثتهم اصبحوا في ما بعد قادة ؛ الأول اصبح رئيساً للحكومة الجزائرية الموقتة ، واصبح الآخران وزيرين فيها .

وما إن هبط الليل حتى اخذت تتصاعد من « ساحة الحكومة » الهتافات بشعارات مثل « كامو الى المشنقة ! »

ولم يكن من الممكن للواقف في شرفة النادي ، ان يرى بوضوح ما يجري في الظلام في ساحة « الحصان » ، التي اطلق العرب عليها هذا الاسم بسبب تمثال لجنرال من النبلاء كان بين الهاربين من معركة واترلو . وكان هذا القائد يمتطي في التمثال جواداً . وتملص ألبير كامو من المجاملات والاعجاب الذي كانت الشخصيات والمعجبات يحيطونه به دون توقف ، وأراد ان يختبر بنفسه قيمة الأمن ومدى فاعليته . وكان على من يريد مغادرة صالون الغرفة الأخيرة ، واجتياز الممر العريض ، ونزول الطابقين ، ان يشق لنفسه طريقاً وسط الباطون البشري تماماً كما تشق الباخرة الجليد المتجمد . في الخارج كانت قوات الامن مرابطة ، ومن حين الى حين تنضم إليها قوات جديدة ، بالإضافة الى ثلاثة آلاف حارس . وخلف القناطر ، وفي البعيد ، وفي قلب جدار بشري من الجماهير العربية الغفيرة والصامتة التي قدّر عددها بخمسة عشر الف شخص ، كان ثمة لطخة صارخة ، لطخة تحرك ذراعيها بعنف : إنها المناوئون للتظاهرة وقد حوصروا وسجنوا وُعزلوا في طريق مستدير لكنه بلا مخرج .

لم نكن مغالين ولا خياليين حين كنا حتى البارحة نؤكد ان في وسعنا ترويض العنصريين . لكن من كان بإمكانه ان يتصور ان باستطاعة « لجنة الهدنة المدنية » ان تجمع الشبان بسهولة وفي الوقت ذاته ان تعبّىء ، بشكل سري ، ومن اجل المحافظة على السلامة العامة ، جيشاً من عمال الميناء وعابري السبيل وسكان هذه القصبة القريبة ، السريعة الانفعال ، والمندفعة بسخاء ؟

كان النادي قد تحول الى قلعة منيعة .

وفي هـذا اليوم ، ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٦ ، ، كان ألبير كامو يعود إلى اكتشاف شعب الجزائر المتيقظ ، بعدما كان قد أبعده عنه منفاه الذهبي في باريس محاطاً بمجده الادبي . وكان محتده البسيط وتربيته السياسية يسهلان له العودة إلى الواقع وهو يحتفظ بقدميه ثابتتين على الارض . وعندما أظهر كامو عناية بالغة بقضايا التنظيم والتكنيك والتكتيك ، عدنا نرى فيه بعض كامو القديم ، كامو قبل عشرين سنة ، الذي يعرف أن يقدر حق قدرها الجهود البسيكولوجية والمحركات التي تستهدف تحريك الجماهير وتنظيمها وتوجيهها ، خاصة اذا كانت جماهير غفيرة كهذه. لم يعد كامو ذلك الجدلي عدو الاستعمار الذي يدبج المقالات للصحف العربية متقمصاً شخصية عربي اذله احتقار كرامته ، ولا ذلك الشيوعي ، العقائدي الذي لا يهادن والذي يرفض نهج « الجبهة الشعبية » لانه لا يريد مقاومة الفاشستية إلى جانب الحزب الراديكالي المؤلف من بورجوازيين استعماريين .

لم نكن قد اتينا على ذكر جبهة التحرير الوطني غير انه ما لبث ان تبين لألبير كامو ان وراء اللجنة التي نظمت الاجتماع قوة خفية عظيمة التأثير. وقال لي على انفراد : « رائع هذا ... لكن أرجو الا يكون اصدقاؤك مسلحين .. »

لا ريب أن معنى هذه العبارة كان اوسع مما تتضمنه من حرص كامو على تحاشي كل استفزاز ممكن . واتى جوابنا أشبه بالاعتراف :

« بإمكانك ان تكون مطمئناً . اصدقاؤنا ليسوا مسلحين ... حتى وإن كانوا ينتمون الى فرق مسلحة ، فإنهم اليوم مقاتلون في معركة سياسية . »

كان ألبير كامو يدرك انه مدين لجبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر . بالطبع ، هو لم يلتمس شيئاً . لا مباشرة ولا مداورة .

« اللي يعمل الخير ما يشاور » ... بفضل هذا الكرم التقليدي المستمد من الضيافة العربية ، قدمت جبهة التحرير الوطني مشاركتها بشكل عفوي ، وصامت ، وفعّال . ذلك بأن جبهة التحرير ، بالإضافة الى مشاركتها على الصعيد الشخصي وبصفة شخصية ، قد شاركت – بالفعل والخفاء – في إحباط

التظاهرة المناوئة والمتطرفة . إن القلعة المستحدثة التي يأخذ فيها الرجل الجامد كالحجر ، محل حجارة الحواجز ، عنصر لم يكن وارداً في مخطط العمل الحافل الذي وضعته لجنة تنظيم الهدنة المدنية ، وقد كان ذلك يشكل دائماً لغزاً لزملائنا . وفي ذلك الحين فسرناه على انه حركة شعبية عفوية انبثقت من التضامن الديني المسلمين والتفافهم حول النادي المسلم الذي تتهدده الاخطار . في الحقيقة، كان قائد الجوقة السري هو اخونا « حديدوش » المسؤول عن مدينة الجزائر . وقد اتخذ وحده المبادرة في تعبئة القصبة لمحاصرة الفرق الفاشستية . وكان من الممكن استغراب هذه الخطة السلمية عند واحد من قادة الفرق المسلحة . لقد كان ذلك عملاً سياسياً طبيعياً عند مناضل سياسي ورياضي ، هو بوزرينا اوزكي ، رئيس نقابة باعة الخضار النشيطة ورئيس إحدى ألمع الجمعيات الرياضية[1] .

لم يكن ألبير كامو ينظر بكثير من الرضا الى جبهة التحرير الوطني . وقد حمل ، في ضوء تجربته الشخصية ، على اعادة النظر في رأيه السلبي في الجبهة ، ذلك الرأي المستورد من باريس . ومنذ اول احتكاك له مع مؤسسي لجنة الاستقبال ، في مطعم « بغداد » ، تأكد له مدى نفوذ جبهة التحرير لمناسبة حادث اصطدام مع ايف دوشوزيل ، المدافع المزدوج عن رئيس « الحركة القومية الجزائرية » ، كمحام اولاً ثم كمبخّر مادح . ومن جهة اخرى ثبت له بطريقة مباشرة ما يتمتع به جيش التحرير الوطني من قوة ومن كراهية للاستعمار ، واتضحت له تصرفات هذا الجيش مع اسرى الجيش الفرنسي وجرحاه . وكان يمثل دور الشاهد الاخلاقي لمصلحة المجاهدين ، الضابط براكس الذي كان قد قبض عليه مع سواه من مساجين الحرب ، ووقع بين يدي خودجا ، الجاويش السابق الذي هرب من مركزه في مدينة الجزائر ، وبطل عصابة « باليسترو » الذي برهن على شجاعته خلال معارك الشاطىء رقم ٦٠٦ .

---

١ ـ حكم عليه مرات عديدة غيابياً ، وقبض عليه في تموز ١٩٥٩ وعذب حتى الموت طيلة خمسة عشر يوماً ؛ وقد سلم تابوته إلى ذويه عند باب المقبرة .

فور توجيه النداء المؤثر من اجل هدنة سلمية ، كان على الضابط براكس ان يكون بين الخطباء الذين كانوا سيتولون تأييد نداء كامو ، وكان على براكس ان يشرح كيف أُسر هو ورجاله ثم كيف أفرج عنهم جميعاً وقد جردوا من السلاح، وكيف كان الجنود حريصين ان يتصرفوا تصرف الجنود ، وان يحترموا قوانين الحرب والسكان المدنيين . لكن الضابط الفرنسي الذي كان سيفضح بطريقة غير مباشرة، الاكاذيب واراجيف الدعاية الرسمية ، قد منع من تقديم شهادته. فقد قبض عليه في الصباح ، وبالطبع كانت التهمة الموجهة اليه هي الاساءة إلى معنويات الجيش الفرنسي الذي كان يحرق القرى ويقتل النساء والاطفال والشيوخ . . .

في مساء اليوم التالي وفي صالون « نادي النهضة » أطلعَنا ألبير كامو على نتيجة مقابلته للحاكم العام . كان موقف جاك سوستيل الشخصي من فكرة الهدنة المدنية موقفاً ايجابياً وقد هنأ ألبير كامو على بادرته .

وكلنا يذكر ماذا كان يطالب ، خارج كل سياسة بل فوق كل سياسة :

« ان تعلن الحركة العربية والسلطات الفرنسية ، دون ان تجري أي مقابلة بين الطرفين ودون أي التزام لأي شيء آخر ، ان السكان المدنيين خلال الوقت الذي ستستغرقه الاضطرابات سيبقون متمتعين، في كل مناسبة، بالاحترام والحماية (...) واكثر ما تظن هذه الضرورة ملحة عندما يكون الامر متعلقاً بصراع يتخذ ، في اكثر من ناحية ، شكل الصراع بين الاشقاء وحيث لا تعود الاسلحة ، وسط ظلام المعركة ، تميز الرجل من المرأة ولا الجندي من العامل . من هذه الزاوية، وحتى اذا لم تؤد بادرتنا الا الى انقاذ حياة انسان بريء واحد فقط ، فسيكون لها ما يبررها[1] . »

وكان الحاكم الخارج يؤيد هو ايضاً الاجراءات المقترحة لإعطاء هذا النداء التأييد الديني من المطران ، والممثل البروتستانتي ، والحاخام وشيخ العلماء .

---

١ - (جريدة الجزائر) ، ٦ - ١ - ١٩٦٠ ، بعنوان (سنة ١٩٥٦ . وجه البير كامو في الجزائر نداءه من اجل هدنة مدنية كان يمكن ان تكون التمهيد لوقف اطلاق النار والسلم .)

لكن لم يكن الحاكم ليستطيع ان يتعهد بشيء باسم خليفته . على ان سوستيل ، رغم هذا، اقترح توسيع الاتفاق بطلب موافقة الحركة القومية الجزائرية عليه، من جهة ، وموافقة المفتي الاكبر (الموظف) من جهة اخرى !...

والفهيم يفهم[1] .

اما الحاكم الجديد (القديم مرتين) الجنرال كاترو ، الذي فاوض من اجل عودة السلطان المنفي في مدغشقر ، فقد جرد من سلطانه منذ البداية .. آخر وفد استقبله رئيس الحكومة كان وفد لجنة الهدنة المدنية ، وقد اصغى غي موليه ، ثم تحدث عن المقاومة الفرنسية ... لكنه رفض النظر الى قضية تصريحات المرور . أما عن موضوع احترام السكان المدنيين ، فمن الواجب إعادة البحث فيه مع « الرفيق » روبير لاكوست ...

لم يقبل وزير الجزائر الجديد ان يستقبل بنفسه وفداً من حركة حماية السكان المدنيين الا بكثير من التردد . مما ضايق رئيس غرفته بالذات . وقد اظهر « الرفيق الاشتراكي » فظاظته رغم وجود نساء في الوفد . وهدد بتحطيم كل بادرة من شأنها ان تعوق سياسته . إن اضيق الناس افقاً كان بامكانه ان يدرك ان لاكوست مصمم على اختيار الفاشستية لإنقاذ الاستعمار . ولكي ينزع من طريقه عقبة الهدنة المدنية — تلك العقبة الأخلاقية المزعجة — تدبر جلاد الجزائر الأمر ليزج في السجن برئيسنا اللطيف ...

ورغم التهم الخطيرة — كما ذكرت الصحف — اصر ألبير كامو على الإفراج عن صديقه السيد دو ميزونسول. وأكد البيان الذي نشرته « الموند » ان كامو اصر على الإفراج عن صديقه خلال ثمانية ايام . لقد كانت جرأة صاحب جائزة نوبل العتيد ، مذهلة ... لكن ما كان أشد مثاراً للعجب هو موقف رئيس الحكومة عندما انصاع لتهديد كامو وافرج — دون محاكمة ! — عن رئيس لجنة الهدنة المدنية .

سوف نقف في ما بعد ، وفي آثار كامو التي ستنشر بعد موته ، (من

---

١ — بالعربية في الاصل .

مراسلات ، إلى نصوص غير منشورة ، إلى مذكرات خاصة) على عواطف كامو الحقيقية . ولعله سيقول لنا من أين كانت له السلطة لترويض رئيس الحكومة الفرنسية ؟ لا شك ان يدي غي مولليه لم تكونا بريئتين تماماً من قضية فشل حلم صاحب « الطاعون » : وهو منع جزائره ، امه ، من الاستمرار في تأدية دور « ارض التعاسة والحقد ». وربما ارتفع غداً صوته من وراء القبر مطالباً باحقاق العدل ومطالباً بانزال القصاص بروبير لاكوست، مجرم الحرب رقم واحد ، ومخرب الهدنة المدنية ، والمجدف على فرنسا ، وجلادها الاستعماري ؟

عندما ينتهي صمت ألبير كامو ، سنعرف كيف اكتشف، وبأى مرارة واي هول ، ان الحرب الاستعمارية التي كان يسعى الى جعلها انسانية كانت قد عفنتها من زمان الكراهية للعرب وحرب ابادة العرب . وكيف اختار ان يكسر قلمه كي لا يجرح كرامة فرنسا من خلال اتهام فرنسا الاشتراكي — الديمقراطي.

لم يكن في وسع رسول الانسانية الملحد ، شأنه شأن جبهة التحرير الوطني، ان يتجاهل الصليبية السياسية التي تضمنها مشروع لاكوست للإبادة ، حتى وان يكن مموهاً بالطلاء « الاشتراكي » . لقد كانت البهلوانية اللفظية الاشتراكية — الفاشستية تكم افواه الشهود الخطرين وتلغي حتى انتقاد البربرية الفرنسية ، بحذفها من القاموس كلمة استعمار ، وهي موضوع الخلاف . وفي الواقع ، فحين اعطى مجرم الحرب رقم واحد ، الصلاحيات الكاملة للجنرال سالان ، مجرم الحرب رقم ٢ ، حرص النقابي الفرنسي السابق على التصريح بقوله: « لا وجود للاستعمار في اللغة الفرنسية . »

لقد تم انتخابه ليحمل السلام الى الجزائر، فاذا به يلح على إرسال إمدادات من الجيش لحرب عمياء وبلا رحمة . ان اصدقاءه السياسيين ، ومعاونيه الاوثق علاقة به ، قد عادوا الواحد تلو الآخر الى باريس حتى لا يلحقوا العار بأنفسهم وحتى يحتفظوا بانسانيتهم سالمة غير ملوثة .

معروف ان الجنرال دو بوللارديير ، لم يتردد ، وقد حُشر بين واجب الطاعة من جهة وكرامته كجندي من جهة اخرى ، في ان يسفّه علانية اوامر

الجنرال ماسو . لكن ما لا يعرفه الا القلائل هو ان القمع الوحشي قد امر به روبير لاكوست ذاته .

لذلك لم يبق الجنرال لورّيو قائداً اعلى إلا لفترة سبعة عشر يوماً فقط . لقد آثر الاستقالة على تنفيذ خطة الشيطان الفرنسي – الماركسي : الخطة القاضية بإبادة الشبيبة الجزائرية إبادة تامة لاستئصال المقاومة الوطنية المناوئة لحركة فرنَسة العرب والمسلمين ، والقاضية كذلك باستغلال حقبة سنوات الهدوء العشرين من اجل « تكوين » الاجيال الجديدة وفقاً لروح روبير لاكوست الاشتراكي – الديموقراطي .

ماذا يمكن ان نسمي ذلك ؟

انه ، للأسف ، دُوار عجيب ، دوار جنوني... انه طموح « الضفدع الذي يظن نفسه بطة طائرة » .

يجب الا نتعجب كثيراً من خطة لاكوست . فمن السهل جداً وسْم الاذهان عندما تكون في بدء تفتحها . وذلك انجع من محاولة « غسل عقول » البالغين . لقد حُققت العملية في الجزائر على نطاق صغير .

لقد رأى « لا فيجوري » الذي كان يومها مطران مدينة الجزائر ، بوضوح عندما ادعى ، وعبثاً ادعى ، انه وريث نابوليون الثالث في حق تحويل الجزائريين الى المسيحية . كان التصميم على تمدين المسلمين (نصف تمدين) الذين ما كانوا يستطيعون ان يكونوا « فرنسيين » قبل ان يصيروا « مسيحيين » – كان ذلك ضرباً من ضروب العبث. ولمناسبة التأسيس الرمزي لقرى الاستعمار العربي – الكاثوليكي في سان سيبريان – دي زاتاف ، اضطر الكاردينال الاستعماري العتيد ان يكتفي بالأيتام الذين نجوا من الموت ابان « عام الشر » ، عام المجاعة ١٨٦٧ . وكان « التحويل الديني » عملية جراحية روحية خيبت الامل بقدر ما يمكن أن تخيبه عملية تلقيح بعنصر غريب .

غير ان التحويل الديني لم يلبث ان استبدل بالالحاق السياسي . ان الوزير مؤهل ومجهز اكثر من رجل الدين لـ « تمدين » الشبان الجزائريين و «تطويرهم» ،

اولئك الشبان الذين لم يكونوا يستطيعون ان يكونوا « فرنسيين » الا اذا صاروا « اشتراكيين – ديمقراطيين ! »[1]

اما في ما يتعلق بالقمع و « اعادة السلام » ، فقد كان بامكان « بوجو » الجديد ان يستلهم التكنيك الهتلري ابان حملة روسيا : كان التوجيه « الكوميسياري » يأمر بابادة جميع المدنيين الذين ارتكبوا جريمة المقاومة ، دون اعتبار للقوانين الدولية .

عندما قبل الجنرال سالان ان يتولى مهمة ابادة الجسم القومي بأسره ابادة فعلية وتحطيم كل جزائري مشتبه بتأييد جبهة التحرير الوطني ، أصبح من المستحيل عليه ألا يلطخ كرامته كقائد اعلى ، وأصبح محتماً عليه ان يتصرف تصرف مجرم الحرب رقم ٢ .

هذا ما تنبغي معرفته لتقدير جبهة التحرير الوطني حق قدرها ، ولأخذ فكرة عن البطولة الروحية التي اجترحناها لـ « ندوس قلوبنا » وننتصر على نزواتنا وعواطفنا العمياء .

لقد احتفظنا برؤوسنا باردة .

لذلك ، فحين نسمع قائلاً يقول إننا اهملنا او نسينا مسألة الاقلية الاوروبية ، فان هذا القائل ، او بالتحديد ، هذا الاتهام الذي يطلقه البيروقراطي في الحزب

---

١ – هذا السراب نفسه سبق ان دغدغ « عباقرة » آخرين. يقول جان وسيمون لاكوتور في كتابهما « مراكش على المحك » (باريس ، ١٩٥٨ ، ص ٨٥): « حوالي ١٩٢٨ تألفت حول السيد لوسيان سان ، الخليفة الثاني لليوتي ، بطانة من رجال القضاء وعلم الاجتماع العلمانيين الذين اكتشفوا بكثير من الغبطة « لا دينية » البربر – وقد دعمت هذه البطانة اوساط نائب رباط البابوي . وقد ظهر في النشرة التي يشرف عليها النائب البابوي مقالات غريبة عجيبة يمكن تلخيصها بما يأتي : ان البربر بما انهم أقل من المسلمين تعلقاً بالاسلام ، يستطيعون ويجب ان ينصرنوا . ان البعض ،وقد أسكرهم على الارجح اعتناق أحد مثقفي الاسلام اللامعين للكاثوليكية عام ١٩٢٨ في فاس ، يريدون أن يجتذبوا إلى المسيحية سلالة القديس اوغسطينوس ، والبعض الآخر رأى في هؤلاء القرويين الراديكاليين – الاشتراكيين المقبلين ، فاراد « تجنيبهم المرور بالاسلام والتيوقراطية العربية – الاسلامية » .

الشيوعي الجزائري ، اتهام في غير محله ، وهو في ذلك ، شبيه بكلب الصيد الذي ينبح دون ان يكون قد شم رائحة الطريدة .

لقد تركنا آثاراً تثبت ان جبهة التحرير الوطني لم تغفل تماماً هذه القضية . ولا بد من الاعتراف لنا بمأثرة كوننا قد قدنا في آن معاً العمل المنفصل والمتوازي للهدنة المدنية ولاتحاد الاحرار ... وسوف يعرف الجميع أن انشاء مجلة « لسبوار » (الامل) هو على الاقل من وحي جبهة التحرير يوم كانت تعمل بالخفاء مرتين : مرة في ترؤسها جمعية ديناميكية تلتقي في مبنى من مباني شارع « درويبه » ، ومرة أخرى في « نادي القصبة » .

اذا كانت الكلمة تطير ، فان الكلمة المكتوبة كنور العدل لا تنطفىء . وهكذا عثرنا على النصوص التي كانت معتبرة ضائعة مع وثائق الحرب ، وعثرنا عليها سالمة ومحفوظة وقد أعيد نسخها لتكون القواعد الاساسية للثورة الجزائرية .

فلنذكر ثلاثة امثلة من هذه النصوص .

انه خطاب اختتام المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للتجارة الجزائرية ، الذي انعقد في « نادي النهضة » يومي ١٣ و١٤ ايلول ١٩٥٦ ، وهو نداء واع وشجاع من أجل توحيد التجار الوطنيين دون تمييز في الجنس واللغة والطائفة[1] .

انه الوثيقة الرئيسية ، و « منطلق » جبهة التحرير الوطني الذي تبناه مؤتمر « السمام » يوم ٢٠ آب ١٩٥٦ . وقد نوقش فيها مطولاً مبدأ العمل مع الاقلية الاوروبية ، وأدى النقاش الى تحديد تدابير حسية حول الالف طريقة الممكن تطبيق العمل بها . وقد أكدنا بنوع خاص على السياسة الواقعية التي تنتهجها جبهة التحرير ، وهي سياسة تختلف في آن واحد عن الحزبية الضيقة التي كانت تعتمدها الهيئات الوطنية القديمة فترفض رفضاً باتاً الجزائريين الاوروبيي الاصل ، وعن انتهازية الحزب الشيوعي الجزائري ، تلك الانتهازية

---

١ ـ « الثورة الجزائرية في النصوص » ، وثائق قدمها اندره مندوز ـ باريس ١٩٦١ ، ص ١٢٤ ـ و١٢٥ .

الرخيصة التي كانت تبالغ في تعليق الاهمية على الاوروبيين .

انها ، اخيراً ، الرسالة المفتوحة التي وجهها الاتحاد العام للعمال الجزائريين الى العمال الجزائريين الاوروبيي الاصل ، وكانت بمثابة منشور دعائي لإضفاء الصفة الشعبية على إضراب الثمانية الأيام لمناسبة مناقشة الامم المتحدة قضية الجزائر (كانون الثاني ١٩٥٧) :

« نحن ، مثلكم ، عمال. اننا لا نعيش إلا من إيجار قوة سواعدنا او من جهود عقلنا . اننا محكومون بأن نعيش معاً ، وان نعمل في سوق واحدة ، ومعمل واحد ، وادارة واحدة ، ومكتب واحد ، وحقل زراعي واحد . يستثمرنا مجتمع صناعي أو مالي كبير واحد ، ودولة — ربة عمل واحدة ، ومستعمر كبير واحد ؛ إن اجورنا هي عادة اجور غير كافية ، وأغلب الأحيان تكون أدنى من اجوركم . وفوق ذلك ، وانتم شهود على هذا ، إننا مغبونون دائماً ومحقَّرون دائماً ؛ لا احترام لكرامتنا الانسانية : فالبطالة تغرق شبابنا في الشقاء .

« نحن ، مثلكم ، نقابيون . كثيرون منا ناضلوا الى جانب الكثيرين منكم في نقابات واحدة . لقد ناضلنا معاً في اضرابات مشتركة لكي نحصل ، للجميع ، على شروط حياة افضل ، وعلى زيادة في رواتبنا ، وعلى قوانين اجتماعية . لقد كنا ، انتم ونحن ، طيلة حقبة طويلة في جهة واحدة من المتراس الاجتماعي .

« نحن ، شأننا شأن جميع العمال الواعين ، ديمقراطيون . لن نرضى ابداً ان نعيش في ظل نظام اقطاعي ، ملكي او تيوقراطي . نحن ايضاً نريد الحرية والازدهار الاجتماعي في جمهورية حديثة يتساوى فيها حقيقة جميع المواطنين دون تمييز عرقي ، او لغوي ، او ديني[1] . »

---

١ — « الثورة الجزائرية في النصوص » ص ١٢٠ ، وكانت قد نشرت قبلاً ملحقاً للطبعة الثانية من « بلاتفورم » (المنطلق) .

الإرهاب في المدن والعمل الجماعي

— « يا نساء ولولوا ... نحّى علينا الغمة ! [1] »

ويرتفع صوت امرأة ثانية ، يغلفه الانفعال ذاته، فيجيب بلهجة نصف آمرة ونصف متوسلة :

— « لا ، لا ! الدياب يهجمو علينا »[2] . الذئاب ستهجم علينا لتأكلنا وتطردنا من المحكمة [3] !

يا للحوار العجيب !

كان ذلك يوم ١٢ كانون الثاني ١٩٥٩ . كانت المحكمة العسكرية تعقد جلساتها بشكل استثنائي في قصر العدل في مدينة الجزائر لمحاكمة الاتحاد العام للعمال الجزائريين .

وكان الجو هو الآخر غريباً . الجمهور واقف ، كثير العدد ، ومعظمه من الجزائريات المحجبات . ان الصورة التي أُعطيت عن زمن السلم تذكر بقصيدة الشاعر الفاسي الذي غنى « الجمعة ، يوم خروج الريم » ، الغزلان البيضاء التي تشاهَد ايضاً في مدينة الجزائر حول الحمّامات وقبو القطّار وضريح سيدي

---

١ — بالعربية في الاصل .

٢ — بالعربية في الاصل .

٣ — بالعربية في الاصل .

ابراهيم قرب الاميرالية أو حول جامع سيدي محمد في «بلكور» . لكن الصورة الخيالية تتلاشى عندما يتجــه النظر ، تحت تأثـير قرقعة السلاح ، إلى جموع الجنود والشرطة اللابسين ثياباً مدنية يحاصرون جمهور المحكمة النسائي . انه لمن الأقرب الى المعقول والواقع ان يتذكر المرء اللوحة الشهيرة التي رسمها مواطننا الحاج إتيان ديني ، الرسام والكاتب ، وجسد فيها رؤياه السياسية والجماليــة لسكان الجزائر الأصليين : فقد صور جزائرياً مقيداً يمشي بين فارسين من فرسان الجيش الاستعماري ، على طريق النفي إلى سجن في الصحراء .

انها لوحة حية للجزائر المحاربة . فالنسوة المجتمعات تراهن حول السجون ، وحول الثكنات ، وحول مراكز التعذيب ، وحول معسكرات الاعتقــال والمحاكم العسكرية ... لذلك كن مرهفات الحساسية ازاء التكريم العلني الذي أداه لهن الجميع . فقد عمدت جبهة التحرير ، وهي في قفص الاتهام ، إلى تمجيد وطنية الجزائريات اللواتي أعطين الثورة « قلبهن وروحهن » ، مجاهــدات وفدائيات ، منجدات ومقاتلات ...

ذلك هو المنبر الكلاسيكي للثوريين . إن الاستجواب يستحيل مديحــاً هجومياً للثورة التي لا تُقهر . لقــد لجأت جبهــة التحرير إلى استخدام جميع الوسائل لبلوغ غايتها ، وهي استقلال الجزائر .

حرب التحرير الوطني كلٌ لا يتجزأ . ولا يمكن فصل العصيــان المسلح عن العمــل البسيكولوجي من أجل كسب اكثرية الشعب ، ولا عن الحرب السيكولوجية من أجل تحطيم معنويات العدو واعوانه . لا يمكن فصل الكمين ، ومهاجمة القطار ، وتخريب السكة الحديدية أو الجسر ، عن معاقبــة الخائن والجلّاد والشرطي . لا يمكن الفصل بين اضراب عمال التبغ والكحول وبــين توزيع منشور أو نيل ادوية ومؤونة ، أو بين تظاهرة نسائيــة للاحتجاج على اعدام محكومين بالاعدام، او احتجاج شخصي على عمليات الخطف، والاغتيال، والتعذيب . لا يمكن الفصل بين الاضراب للمطالبة بحقوق مــا ، والاضراب السياسي والطلابي ، وبين اغلاق المحلات وهجر الملاعب الرياضية ، والاستنجاد

بالصليب الاحمر الدولي ، والارهاب في المدن بواسطة الرشاشات أو علب الكبريت لاشعال الحرائق في المرائب ...

حقاً انها لصفاقة ! كان الغيظ واضحاً على وجوه بعض المحامين الأوروبيين في مدينة الجزائر ، وكانت وجوههم منقبضة من الضيق ، كانوا يعتبرون تلك الحجج غير مقبولة إطلاقاً في محاكمة لزعماء نقابيين ، وكان العرف الاستعماري يقضي بالحكم على « العنف الأعمى » .

وماذا أقول عن ذلك الرئيس الضابط ، الذي تحمل كل شيء ، خلافاً لعادات القضاء العسكري المعروف بقسوته ؟ ورغم كلامه الموجه لم يكن يستطيع تحاشي الاجوبة السريعة المقطوعة بأسئلة اخرى ، تتبعها في الأخرى ملاحظات ساخرة .

طبعاً كان من الواجب احترام اصول اللعبة الدبلوماسية التي أملاها وجود محامين أجانب ووزير بلجيكي سابق ونقيب محامي تونس . لكن لماذا لم ينتبه الرئيس الضابط الى التناقض الفاضح بين استحسان الإرهاب في المدن من جهة وقبول فكرة الهدنة المدنية من جهة أخرى، التناقض الذي لاحظه البير كامو في رسالة وجهها الى المحكمة ؟

كان بامكان السؤال أن ينقلب على السلطات الفرنسية التي كانت قد اعتبرت النداء الموجه لاحترام كرامة السكان المدنيين عصاً في دواليب الحرب الاستعمارية ...

لكن الهاجس نفسه لم يكن ليشغل كاتب الحزب الشيوعي الجزائري الذي كتب عن جبهة التحرير يقول :

« ان الشيوعيين يؤيدون العمل الجماعي الذي يعتبرونه أنجع ألف مرة ولا يشكل على الصعيد السياسي ما يشكله من نتائج سلبية بعض الأعمال العسكرية غير الموجهة كما يجب في المدن، مثل القاء القنابل دونما تبصر ودونما غاية .»

فلنحاول ان نفهم بوضوح . هل ينبغي لنا أن نفهم من ذلك تنكراً مواربا لتصرف الاخ « ايفتون » الذي أعدم شنقاً لأنه حاول نسف معمل الغاز في

« حمة » ؟

اذا كان الامر كذلك فيجب ، بالتالي ، توحيد أنغام الحزب الشيوعي الجزائراي . ان يقظة الضمير عند لسان حال الوفد الخارجي لا ينسجم مع مواقف بعض القادة الشيوعيين الآخرين . فإن بعض الكتابات الدعائية لم تتردد في تبني اسم ذلك المناضل الشيوعي السابق . ترى ، أيكون ذلك شبيهاً باليوم المشؤوم للديك الذي يغسلون قدميه للمرة الاولى ... استعداداً لذبحه ؟ أليس الموقف الغامض الذي وقفه الحزب الشيوعي الجزائري ، مسوقاً بالرغبة في استغلال تضحية واحد من الارهابيين ، ككبش فداء لمسح اخطاء الماركسية ؟

أما نحن فاننا نفضل ان نبقي أنفسنا ، مرددين مع كورنيه اعتزازنا بكوننا جزائريين :

« شكراً للآلهة لانها لم تخلقني رومانياً .

فبقيت محتفظاً بشيء من انسانيتي . »

على كل حال نحن والشيوعيون على طرفي نقيض : نحن في وادٍ والحزب الشيوعي الجزائري في وادٍ آخر .

لكن هذا التبدل ليس بجديد . فقد وجد خلف مذياع راديو لندن مظلي يخاف من القفز في الفراغ فراح يعطي درساً في الاخلاق السياسية للمتطوعين والوطنيين الذين كانوا يشنون الاعتداءات على كباريهات الدعارة الباريسية حيث يعربد الضباط النازيون . وكان المذيع اللندني يستنكر ، كذلك ، العنف الوخيم العواقب . اذ ان كل اعتداء يحدث تعقبه إجراءات انتقامية فورية تذهب بحياة عشرين او ثلاثين او خمسين شخصاً من الرهائن . وقد نصح المتحدث الخبير للفرنسيين بأن ينصرفوا الى اهتمام أهدأ — وأكثر دراً عليهم ! — فيكشفوا على الانهر والجداول ويقيسوا اعماق المعابر بانتظار وصول الحلفاء ...

كان من الممكن ان يوافق هذا مزاج الشعب الفرنسي الذي استُميل عهد ذاك الى التعاون مع حكومة فيشي .

« اقتصرت الحياة في ظل الاحتلال وبالنسبة لـ ٩٨ بالمئة على البحث عن

الغذاء ، وبالنسبة لـ ١,٧٥ بالمئة على التفكير في مآسي الوطن وبالنسبة لـ ٠,٢٥ بالمئة على محاولة وضع حد لهذه المآسي[1] . »

ويعطي « شومن » الجزائري الدليل ، في المجلة المسكوبية ، على انه مغترب اكثر جهلاً. إنه لا يميز بين الاحتلال النازي لفرنسا – وهو ، نسبياً شيء محتمل – والحرب الاستعمارية في الجزائر ، وهي شيء اكثر وحشية . ذلك بأن :

« هتلر ورجاله استطاعوا ان ينتزعوا من فرنسا سيادتها واستطاعوا اخضاعها لأسوأ المعاملات ، لكن لم يخطر قط ببالهم ان يضعوا اي خطة تهدف الى إبادة الأمة الفرنسية ومحوها عن الارض[2] . »

حتى لو وضعنا جانباً الاختلاف الطبيعي والخصائصي بين حربي التحرير الوطني هاتين ، هل نقدر ان نسلم بنظريات شيشرون الخطيب وشيشرون الكاتب ، التي تزعم ألا توافق بين اعمال المتطوعين والوطنيين والفدائيين وتكنيك العمل السياسي الجماعي ؟ كلا ، بالطبع . في فرنسا وفي الجزائر ، تسنى للوطنيين أن يؤدوا عمل المقاومة ، معاً ، في جميع اشكالها .

ان التأكيد على مبدأ صحيح نظرياً قد يخفي عناصر خاطئة ومضللة ، والأخذ بالمظاهر الاولية ، وتكريس المبدأ حقيقة عالمية ومقياساً صالحاً لكل زمان ولكل مكان ، يفضيان حتماً الى نتيجة خاطئة .

فلنترك الفلسفة الآن الى الواقع التاريخي .

من الواضح ان ردود فعل الجزائريين تختلف باختلاف اختيارهم السياسي بين جزائر مستقلة او جزائر « فرنسية » .

ويجب الا تستغرب « الكومونيست » ان يذهب إحساسنا في اتجاه يناقض اتجاه إحساس محررها . وعلى كل حال يكفي ان نلاحظ صدى اعتداءات منظمة الجيش السري في اكثرية الشعب الأوروبي الذي استميل الى حرب

---

١ – روبير اسكربيت ، جريدة « لوكانار انشيني » ، ١٧ – ٥ – ١٩٦١

٢ – حديث مع بن غوريون ، بقلم سرج غروسار ، الموفد الخاص الى اسرائيل ، جريدة « الفيغاوو » ، ٦ – ١ – ١٩٦٢ .

الإبادة الاستعمارية والى العنصرية الكارهة للعرب .

إن جبهة التحرير الوطني ، التي تستهدي بميزان الجو الشعبي ، اي بميزان الاكثرية المعادية للاستعمار – اكثرية بين المسلمين وأقلية واعية بين الاوروبيين – لن تتخلى عن الطريدة لتكتفي بالظل .

وهذه الملاحظة تستتبع ملاحظة اخرى .

إن الفدائيين لا يتصرفون عفو الخاطر ولا وفقاً لضروب الحظ . لكل من مهماتهم هدف محدد ووراءها اسبابها ودواعيها ضمن إطار استراتيجية سياسية او نفسية او عسكرية . لا مكان اذن للصدفة ، حتى ولو كان الأمر يتعلق بإلقاء قنبلة يدوية في إحدى خمارات الجواسيس او تفجير قنبلة بغية إقلاق راحة الجنود الأعداء في مرقص من المراقص .

أخيراً ، لعبت فرق الصاعقة دوراً كبيراً في الثورة الجزائرية . ولنذكر هنا بعض مآثرها :

١ – دور الإعداد والامتحان المرشحين الى شرف الخدمة في جيش التحرير الجزائري – كان على طالب ارتداء لباس الجيش الجزائري ، ان يُظهر جدارته بهذا اللباس سواء من الناحية السياسية او الأخلاقية او الجسدية . كان اهالي المدن الذين يلتحقون رأساً بالجبال يُردّون على اعقابهم دون شفقة ولا رحمة . اما الاختبار الأخير فكان القيام بمهمة خطرة ، عادة ما تكون ، بالنسبة لابن المدينة ، ان يشنّ اعتداء في مدينته .

الماركسي – اللينيني يقدّر حق التقدير القيمة الانسانية والاجتماعية والسياسية والثورية لاختبار كهذا . خاصة حين نعلم ان هذا الاختبار يوفر الإطار العمالي لجيش معظم جنوده قرويون في الأصل !

إن الفدائيين ، بدعمهم وحدة جيش التحرير الوطنية وبثهم فيه روح الثورة العنيدة حتى النهاية ، حتى النصر – قد شاركوا في جعل جيش التحرير الجزائري قوة قادرة على خوض حرب طويلة الأمد دونما كلل ودون تخاذل .

ولئن كانت المقاومة في المدن لم تحقق إلا هذه المهمة ، فهذا يكفيها لتكون ذات فضل على تحرير الامة .

٢ – التطهير السياسي لبواطن المجتمع – في البدايـة تصدت جبهة التحرير الوطني للصوصية التي لم تزل منذ ان وجدت ، تنهش المرافىء المفتوحة والمدن الكبرى . لكن من المفيد التوقف قليلاً للحؤول دون الخلط بـين من نتحدث عنهم وبين المأساة الاجتماعية التي يشكلها فتيان القمصان السود او الذهبيـة ، وأوباش اوروبا ، اللامبالون بالسياسة ، ضحايا الهستيريا اللاواعية والعنف .

عندنا ، تتألف اوساط مديري ألعاب القمار ومهربي المخـدرات (حشيشة الكيف ، الافيون ، الكوكايين) ومهربي البضائع (الساعات السويسريـة ، الحرير الطبيعي الياباني ، الاجواخ الانكليزية او الايطالية الخ ..) من الشبان « المنحرفين » ، والجيش الدائم من العاطلين عن العمل اضطراريـاً ، والعمال الطيبين ضحايا العنصرية واضطراب الاجور وعدم انصافهـا ، و « الاولاد » السابقـين ، ماسحي الاحذية او باعة الجرائـد في سن يكون فيها الاولاد الاوروبيون على مقاعد المدارس والمعاهد . انـه وسط مؤلف من « عصابات طيبة القلب » ، انهم أشقاء رافاشول ، وبونو ، وريمون – لا – سيانس ، يرعبون البورجوازيين ويقلقون وزراء الدولة التي كان ينبغي تهديمها بواسطة اللاشرعيـة الفوضوية ، على اعتبار ان مبدأ العصابة السياسية يتيح المجال للعيش على هامش المجتمع المتآكل المتعفن ، باستغلال موارد الاستقلاليـة والخـروج على التقليد . مثلهم ، كان « متحررونا » متمردين على الظلم الاجتماعي المضاف اليه ، عنـدنا ، الضغط الوطني والكراهية لكل ما هو عربي .

وهم غير كسالى . ولـكي لا يعيشوا عالة على ذويهم ، رضوا بـأن يقوموا بكل الاعمال الصغيرة التي ينفر منها الشبان الاوروبيون ، فاشتغلوا حمالـين ، وباعة خضار ، وخداماً عند التجار ، ومنظفي سيارات الخ ... انهـم يحلمون بالآفاق الجديدة لارستقراطية تنعم بالمركز المثالي: « الزين والمال والمقدرة[1] » ، وهم ينعطفون من مفرق الملاكمة وكرة القدم والغناء والموسيقى والإغراء .

---

١ – بالعربية في الاصل .

انهم يزدرون الأوباش الذين هم بلا أنف (على اعتبار ان الأنف رمز العزة والكرامة والاستقامة والشرف)... بين هذه الطغمة من قشور المناخير والمخاط الملتهب ، جاءت الشرطة الفرنسية والجيش الاستعماري تنبش جواسيس لهـا ومرتزقة وسفاكين ليسفكوا دماء اخوتهم .

كان « بوت أبوت » حثالة الأرذال . وهذا الاسم المستعار – ومعروف انه اسم الممثل الاميركي الهزلي – كان لقب رجل عريض البطن قبل بان « يشتغل » مع فريقه من القتلة المرتزقة لحساب الشرطة الاستعمارية . ولم يُصرع بوت أبوت في وضح النهار وفي بيته في القصبة الا عقب اعتدائه على المحامي عويضة الأب ، والقائه قنبلة على دارة الدكتور تمزالي .

كان على رأس « قضاة » جبهة التحرير الذين ينزلون العقاب بالمستحقين ، عمّار علي الملقب بعلي حد السيف ، وهو احد المحكومين عليهم سابقـاً ، هرب من مزرعة تابعة لسجن « برواجيا » .

ان هذه الطريقة التي تمتزج فيهـا الكلمة الطيبة بالعنف قد افادت ايضاً في ترويض جمعية « ٨ تشرين الثاني » . لقد وفر في الماضي هذا التجمع من المعادين للمارشال بيتان الذين حاولوا عـام ١٩٤٢ ان يساعدوا في نزول الاميركيين ، قتلة محترفين لرئيسهم أكياري ، نائب مدير بوليس « جولما » سابقـاً ، وقاتل الكشافة المسلمين عـام ١٩٤٥ ، وعميل سوستيل ولاكوست في تصميمها على التخلص من الشخصيات الوطنية عام ١٩٥٥ . وأدى التحذير واعـدام بعض الضالين ، برجال مقاومة ٨ تشرين الثاني ١٩٤٢ إلى التقيـد بقوانينهم فطردوا رئيسهم الذي أخل بهذه القوانين .

لم يكن الفدائيون آلات تنفذ الأوامر دون رحمة . كانوا يعرفون دائمـاً كيف يلجأون الى وسيلة الاقناع ، والتحذير ، والتهديد . وكانوا لا يستخدمون العنف إلا بعد تجربة صبورة وعقيمة مع الذين يرفضون ان يغيروا عقليتهم السافلة وسلوكهم المؤذي .

وشارك الفدائيون، حتى «الاشرار» السابقون منهم، في لأم جرح اجتماعي.

في المـــاضي كانت توبـــة الشخص تكرس بالحج التقليــدي الى مكة المكرمة . وأحياناً كانت التوبة الجماعية ترتــدي طابع اعتناق لرسالة وطنية بالانتماء الى الحزب الوطني الجزائـــري والحزب الشيوعي الجزائري والمؤتمـــر الإسلامي .

مع الجهاد من أجل استقلال البلاد، أسفر هذا التحول الجديد عن وطنية سامية أعيت البوليس الاستعماري الذي يعتبر « الوسط » برجاً عاجياً لا يخرقه الشعور الوطني. ان محكومي الحق العام كانوا فور الإفراج عنهم لأنهم لا يشكلون خطراً على الأمن العـــام ، يحتجزون على باب السجن لأنهم يشكلون « خطراً » على أمن الدولة !

ان هؤلاء الفدائيين الطالعين من أعماق المجتمع وطبقاته السفلى ، قـــد بلغوا في انطلاقة لا شبيه لها ، قمة الاستشهاد .

وفي مدينة الجزائر وحدها ، تلتمع بـــين قائمة الذين مشوا بشجاعة لا مثيل لهـــا إلى حتفهم على المقصلة وإلى حتف المقصلة — تلتمع باحرف من نور اسماء لا تنسى :

علي بو العيون الزرق

الرزقي لوني

مرزاق هاهاد

المراكشي الصغير

سعيد طواطي الملقب بذي الندوب

٣ — خميرة تهديم معنويات العدو .— ان الارهاب في المدن يكتشف الحرب النفسية .

ولكي نتأكد من ذلك حسبنا ان نتذكر التصريحات المتباهية التي ادلى بهـــا كل من سوستيل ولاكوست حـــــول الهـــدوء والأمن والاستقرار في المدن الكبيرة ، وقوافل الصحفيين الاجانب الذين دعوا ليتأكدوا بانفسهم من ان مدن الجزائر ووهران وعنابة تجهل حتى مجرد وجود عصيان .

كانت مـدينة الجزائر تستحق ، فعلاً ، لقب باريس الصغيرة ، المدينة التي يلهو فيها المرء كثيراً . لقد تضاعف عدد دور السينما وأضحى شارع «ميشليه» بما فيه من خمارات مضاءة بأحدث وسائل الإضاءة « النهارية » والنيون المتعدد الالوان وجماهير وطاويط الليل والمتنزهين ورواد الكابريهـات والمراقص والسيارات الفخمة المزدحمة بجانب الرصيف – أضحى جزءاً من الشانزيليزيه .

وكان الضباط الفرنسيون الذين يتقاضون رواتب ضخمة ، ينفقون بسخـاء كما كانوا ينفقون في سايغون ... كلا. أخرقُ هو هذا التشبيه. ان الهند الصينية بعيدة الآن ، بعيدة جداً عن فرنسا وقريبة جداً من الصين. الجزائر هي فرنسا. انها فرصتها السانحة الوحيدة .

بالنسبة للبورجوازية الاستعمارية ، كان بامكان الحرب ضد العرب ان تستمر مئة عام . ولا ضرر في ذلك . وعلى العكس ، فالازدهار الاقتصادي كان يجمّل الحياة . ان كل شيء كان يشارك في زيادة العائدات : الانفاقات العسكريـة ، والاستملاكات العامة ، والنهضة العمرانية ، وانطلاقة المصانع المنتجـة لكثير من مواد الاستهلاك الفورية ، والإيجارات الفرعية وغلاء المساكن ...

وأدت التعويضات التي اخذ يتقاضاها الموظفون لقـــاء تنقلاتهم وتعريض حياتهم للخطر الى رفع مستوى معيشتهم ، وراحت اسهم البيـع ترتفع باضطراد في حقول تأثيث المنازل ، والتجهيز الكهربائي ، والسيارات ...

غير ان صوتاً نشازاً ارتفع وسط عالم التجارة والصناعة هذا ، وفي مقـابل البوجادية المتطرفة في نزعتها الاستعمارية امكن تمييز نشاطهم مدهش يقوم بـه فريق تحرري بقيـــادة السيد بلانشار ، رئيس « الاتحاد العــام لأرباب المهن الجزائريين » . وكان بلانشار أشبه مـا يكون بالبروفسور ماندوز ، لكنه ماندوز خطِر على النقابة التجارية الرجعية ، ومناوىء لمبدأ سيطرة أصحاب رؤوس الاموال الكبار سيطرة سياسية – اقتصاديـة. لقد كان بلانشار ، اذن حليفاً غير مباشر لجبهة التحرير الوطني .

دليل من مئـــة دليل . في حين كان « عدو الرأسمالية » لاكوست يتغنى

بـ « الاعمال التمدينية » التي حققها الاستعمار الفرنسي ، وهو يرافق البرلمانيين الاجانب في تجوالهم حول « ديار السعدى » ، البناية المختلطة الاولى التي سمح فيها لمستأجرين مسلمين بالسكن بين المحظيين الاوروبيين – كان اتحـــاد ارباب العمل ، الحديث النشأة ، يحاكم الاستعمار ويدينه في دراسة للأمـانة العـــامة للاتحاد نشرت في مجلة « نوفيل رياليتي الجيريين » (الوقائع الجزائرية الجديدة[1]) بعنوان « بوبسيلا ، مدينة الاكواخ الجزائرية » .

إن احداً لا يجهل ان سكان الاكواخ والتـكايا والخيـام السوداء في مدينـة – الجزائر – البيضاء هم من المسلمين فقط . ولقد ارتفع عددهم من ٤٨٠٠ سنة ١٩٣٨ الى اكثر من ٥٠ الفاً سنة ١٩٥٦ . غير ان التذكير بوجود « قرى سوداء » بأكواخ من الخشب مغطاة بالتنك وقائمة على الغالب في المناطق التي تفرغ عليها نفايات المدينة وأوساخها ، واظهار ان العلم الفرنسي يرفرف فوق أحقر منطقة للسكن في العالم بأسره ، تأتي مباشرة بعد مناطق الهند وباناما .. أليس معناهما تبرير ثورة الفقراء واعطاء الثورية الجزائرية اسباباً مشروعة ؟

لذلك لم يتردد دو سارييني ان يشنّ حملة ضارية في « ليكو دالجيه » (صدى الجزائر) على السيد بلانشار وفريقه من ارباب العمل الشبان المؤيدين لإنهـــاء الاستعمار .

وجهتا نظر مختلفتان ، وسياستان متناقضتان . ان الاستعمار يولي عنـــاية خاصة ، وبطريقته الخاصة ، لـ (مساكين) والذين بلا مـــأوى ... لقد أدلى احد اعضاء مجلس الشيوخ السابقين ، في محاكمة الكاهن دافوزياس ، بالشهادة الآتية :

« استطرد السيد فونلوبت – اسبيرابير قائلاً : الحادثة الثانيـــة تتعلق بعمليات تعذيب فظيعة جرت في مدينة محي الدين حيث اختفى اثر مئـــات الرجال الذين لم يعودوا في شكل يسمح لهم بالظهور أمام قاض من قضاة التحقيق

---

١ ـ العدد ١ من مجموعة ١٩٥٦ ، مدينة الجزائر .

أو محكمة ما ، أو حتى معسكر للاعتقال . وقـــد اختفى اثر هؤلاء وأشيع انهم ذبحوا .[1] »

مدينة الاكواخ المسماة محيي الدين لا تقع خارج مدينــــة الجزائر ، مثل « بوبسيلا » قرب حسين داي ، و « القطار » قرب المدافن الحاملة الاسم ذاته ، أو « نادور » بالقرب من كلو – سالمبييه . انها جزيرة صغيرة في قلب المدينة ما بين « شاندوما نوفر » وبلكور وبولفار برو . ومما يثير الدهشة ان قتل بضع مئات من الرجال ، بـــين عمال تفريغ في الموانىء وحمالين ، لم يسبب القيء لبورجوازيي شارع فونتينبلو الصغار ولا لساكني القصور والفيلات المجاورة .

خنجر المظلي اداة فعالة ، حقاً ، في اعمال المدن الاستعمارية من اجـل إبادة « الجراذين » المسلولة والعائشة من قلة الموت في حي مأهول !

حسناً. لكن في مثل شريعة الغاب هذه، حيث يتستر النمر بجلد حمل مسالم، يصبح الإرهاب في المدن شأنه شأن حرب العصابات وسيلتي التعبير الوحيدتين لشعب مسحوق ومذبوح ... يجب التمييز بـين « العنف الذي يحرر ، والعنف الذي يستعبـِد » .

سوف يأتي ارهاب المدن ليقلق راحة محترفي الاستعبـاد ذوي القلوب المتحجرة ، ويُدخل بـذرة القلق والخوف حتى الى شارع ميشليه ، مركز الكراهية المسعورة للعرب، مع الهجوم على «الاتوماتيك» ، «لوكوك هاردي» ، « كافيتيريا » ، « ميلك بار » ، الاعتـداءات الخاصة على فروجير ، والجنرال ماسو ، وأكياري ، أو التدابير المتخذة ضد بورجو ، لاكيير ، دو سارينيي ، سوستيل .

ارهاب المدن هو الانتقام الوطني من الجرائم الاستعمارية : من الخطف ، والاختفاء ، والاغتيال ، والتعذيب . إن تعميم الاضطراب على شوارع المـدن الكبرى ، والهجوم على الدوريات ومراكز الشرطة والأمن لما يثبت للصحفيين

---

١ – جريدة « الموند » ، ١٢ – ١ – ١٩٦٢ .

الأجانب وللرأي العــــام العالمي وجود غضبة اجماعية في الجزائر هي غضبة الشعب الجزائري .

على صعيد الاستراتيجية السياسية – العسكرية ، أدت اعمال الفدائيين الى بعثرة خطط الحرب للقيادة الفرنسية وبعدها أدت الى تغيير هذه الخطط تغييراً جذرياً . وقد ظهر ذلك بقرار خافت اللهجة لكنه محمّل بمغزى خطير . فقـد صنفت « الجريدة الرسمية » « مجموع الاراضي الجزائرية منطقة عمل حربية » . وأصبح الشرطي المكلف بتأمين نظام السير في شارع « ايسلي » يتقاضى علاوة حربية بقيمة ٢٠ الف فرنك شهريـاً . وسُرّ « ذوو الاقدام السوداء » ، انهم ظلوا محتفظين بامتيازاتهم ، وأعيدوا الى الوحدات الاقليمية الجديدة . وهكذا استسلمت السلطة المدنية العاجزة امام كامل سلطات الجيش الطموح .

حتى لاكوست تغـيّر وجهه . فبعدما كان لقبه « بوجو » تهدئة البلاد ، (تلك التهدئة المستحيلة)، أصبح لقبه « ترتاران معركة مدينة الجزائر » !

الحماقة مضافة الى العجز .

القادر على الكثير قادر على القليل ، كما يقولون . لكن عكس هذا المثل يعطي معنى نقيضاً وغير معقول . هل العاجز عن الانتصار في حرب استعمارية أهل لشن حرب ثانية وكسب الحربين في آن معاً ؟

غير ان وزراء الحكومة الفرنسية أذكى من نواب حزب العمال البريطانيين الذين عارضوا « الحملة على مصر » . فحكومة باريس الاشتراكية – الاستعمارية لم تكن تحلم فقط بنزهة عسكرية بسيطة لاسترداد قنـــاة السويس ، بل ايضاً بخلع الرئيس عبد الناصر وخنق التمرد الجزائري في ينبوعه ... في القـاهرة !

لكن ، لسوء حظ الحكومة الفرنسية ، اضطر الجيش الفرنسي للانسحاب ! وعض المظليون على جراحهم ، بعد ما كانوا قد اغتبطوا اشد الاغتباط بمغادرتهم الجبال الجزائرية لينعموا ، أخيراً ، بلذة الحرب الخــاطفة في سهول النيل ، وأعيدوا الى الجزائر ليخوضوا حربـاً طويلة الامد ، هي الاخرى دون أكاليل غار ... وعينت مراكز فصائل « النخبة » في المدن ومدن الاكواخ للقيـــام

بأعمال مُحطة ومهينة ، وعقيمة . إذ بينما كان يخيّل ان ارهـــاب المدن قد بدأ يتراخى ، تدفق فيه دم جديد منحه حيوية جديدة ، فقد عاد المجاهدون فدائيين ، وصاروا جنوداً يلبسون ثياباً مدنية .

٤ – خميرة العمل البسيكولوجي – ليس ارهاب المدن جهازاً آلياً يدور في الفراغ الفوضوي . وانما هو عضو حي مربوط بالحركة البيولوجية للثورة الخفية.

إنه لمن الضلال ألا نرى في ارهاب المدن الا الجـانب المادي الذي يكون احياناً جانبـــاً سلبياً . وذلك الموقف شبيه بموقف نصف المثقف الذي يزدري الرياضة . فهو في ردة فعله الجزئية والمتحيزة ، يفوته ان الرياضة البدنية ، مثلاً ، ليست وقفاً على تمرين العضلات والقلب واوعية التنفس وحسب . وإنمـــا هي تهذب ايضاً الجهاز العصبي وتفتح طاقات الذاكرة وتصون التوازن النفسي .

في المدن ، لعب الفدائيون ، طبعاً ، دور قوة مغناطيسية . وكللتهم النساء بالمجد الصوفي ، وهو نفسه الذي يكلل هامات الجنود اللابسين ثياب الجنود . ان المحبة الجماعية ، الوطنية والدينية ، للمجاهد ، تتحد بنوع آخر من التقدير هو الاعجـــاب بوجه المحرر الذي له كل يوم موعد مع الموت . وتجذرت هذه المشاعر في أعماق الشعب وكان التعبير عنها ، عند الشعب ، هو التضامن العملي مع الابطال . عام ١٩٥٤ كان الولاء والشجاعة ونكران الذات صفـات نادرة جداً ، فأصبحت ابتداء من ١٩٥٦ وعند ولادة فرق الجهاد في المدن ، عملة رائجة .

وللمسلمات حساسية خـاصة تجاه القدر الذي رسمته السماء للمحارب الذي جعل منه الاسلام بطلاً مثالياً غير خـــاضع لعوامل الضعف البشري . وهن يؤوين منقذي الوطن المدنس، ويوفرن لهم الطعام ويخدمنهم، ويعالجن الجرحى، ويخبئن الهاربين والمطاردين . واصبحت النساء المسلمـــات بطريقة عفوية ، مساعدات ورديفات للفرق المسلحة ، يؤمّن الاتصال العاجل ، بل ينقلن حتى السلاح او الذخيرة . وهن يعتنين بأيتام الامة الجريح ، وأيتـــام الشهداء ، الشهداء الناصعي الجبين والقلب الذين يمكن دفنهم بثيابهم . فهم للحقيقة ، في

غنى عن الطقوس التقليدية لدفن الموتى وتكفينهم بالأكفان الناصعة .

وهكذا ، فإن إرهاب المدن لا يتدخل بشكل كيفي في عملية تطور مقاومة الشعب الجماعية . بل انه يتصرف ضمن جماعة ووفق التأييد الجماعي حيث الظروف الموروثة مباشرة من المجتمع الاسلامي تتيح المجال امام المساعدة المتبادلة .

فلنعزز هذا العمل المتبادل بمثلين عكسيين .

في الحالة الاولى نرى ارهاب المدن يلعب دور الوازن السياسي للقوى الشعبية .

في حزيران ١٩٥٦ حدثت الاعتداءات الاولى على الاوروبيين ، وكانت اعمالاً انتقامية مشروعة . فلقد كانت جبهـة التحرير الجزائرية قد اعلنت في مناشيرها أنها ستثأر لزيانان وفرّاج ، جنديي جيش التحرير اللذين أُسرا وهما في ثيابهما العسكرية واعدما بالمقصلة ، خلافاً للأعراف الدولية في ما يتعلق بأسرى الحرب .

في تموز ١٩٥٦ حدث اول اعتداء أعمى ! جريمـة رهيبة . اول قنبلة ، استعمارية ! فقد وضعت ليلاً في شارع « طيبة » ولما انفجرت نسفت بضعة منازل عربية وذهب ضحيتها ٥٣ شخصاً وسقط مئات من الجرحى .

وثارت ثائرة القصبة . لقد عم السخط ورغبة الانتقام جميع السكان ، ولم يهدىء هؤلاء غير التدخل المباشر ، التدخل الجسدي والسياسي للفدائيين والفدائيات .

« حيال اللامبالاة العامة – ظاهرياً – في موقف الرأي العام الفرنسي والسلطات العامة الفرنسية ، نجد ان المسلمين في اضطراب شديد : لقد دب فيهم الشعور بأنهم أُسلموا – دون حماية ولا سلاح ولا عون شرعي من اي نوع كان – الى الجريمة بكل معنى الكلمة ، الى التقتيل . وعندما انفجرت بدورها ، بعد ذلك بشهرين ، القنابل الاولى لجبهة التحرير الجزائرية ، استقبلت بالترحاب الحار في اوساط اكثر فأكثر أهمية بين اوساط الرأي عندهم ، ولا غرابة بعد

هذا أن يظهر « واضعو القنابل » مظهر « حماة » الشعب و « الابطال الوطنيين[1] . »

لا شك مطلقاً في ان ذلك الاتصال الحميم مع الجماهير ، او بالأحرى تلك الحياة داخل الشعب هي التي جعلت جبهة التحرير الوطني قادرة على تجنب الموجة الحيوانية التي اطلقتها منظمة الجيش السري .

لقد عمل إرهاب المدن ، إرهابنا المحرر ، كصمام الأمان . وأتاح للمواطنين الذين أرهقهم الصراع غير المتكافىء ، وأثارهم الظلم الفرنسي الذي استمر يمارس ضغطه على الافريقيين دون الاوروبيين ، ان يفجروا « كبتهم » ، وان يحتفظوا برباطة جأشهم ، وان يتقيدوا بالانضباط الثوري .

اجل ! لقد تصرفت « فرق‌الموت » في كل من الجزائر ووهران وقسنطينة وتلمسان وتيزي اوزو وسطيف ، الخ ، تصرف القوى السياسية لكي تحول دون وقوع مجازر طائفية ...

وتأخر كثيراً مجيء الاعتراف لنا بهذه المأثرة :

« لا ريب في ان الانضباط الصارم الذي تتحلى به جبهة التحرير الوطني هو الذي كبح ، اكثر بكثير من عامل الخوف من الجيش الفرنسي ، المسلمين عن القيام بعملية انتقام من الاوروبيين[2] . »

نصل الآن الى الحالة المعاكسة ... إن القوى الشعبية تؤمّن ، بالمقابل ، الزخم اللانهائي لإرهاب المدن .

واذا كان « واضعو القنابل » يظهرون بمظهر « حماةالشعب » فان الطاقة البشرية ستكون ، بالتالي ، دائمة التفجر ولن تنضب . انه اختيار يلغي الذريعة السخيفة ، ذريعة الكولونيلات السافلين الذين ارادوا ان يفسروا التجدد الدائم للتائقين الى الخطر والعذاب والاستشهاد ، بأنه نتيجة الإكراه لا الاندفاع .

إن تجميع الفدائيات يتم وفقاً لاختيارهن المطلق الحرية . ونستطيع ان

---

١ ـ جرمين تيّون : « الاعداء الاضافيون » ، باريس ١٩٦٠ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

٢ ـ جريدة « الاكسبرس » ، ٨ ـ ٣ ـ ١٩٦٢ .

نذكر اسماء الفتيات « ملقيات القنـــابل » اللواتي نجون من الموت ، واللواتي يرفضن العودة الى العمل حيث لا يمكنهن المخاطرة بحياتهن ... بشجاعة !

انه مثل بين الأمثلة عن المشاركة النسائية في انطلاقة ثورتنا العظيمة. وفوج المجاهدات من بنات المدينة هو على صورة الإجماع الشعبي كله . وبالاضافـة الى تنوع أصولهن او طوائفهن هناك التنوع الاجتماعي (فبين المجـــاهدات الفتاة ، والأم ...) او المهني (طالبات حقوق او طب ، موظفـــات ، عاملات في المنازل ، خادمات او ممرضات طالبات ، معلمات بالفرنسية او بالعربية ، عاملة، مذيعة وممثلة ، مولدة ، طبيبة ...)

هذه ثروة ساحرة من انكار الذات على الصعيدين الشخصي والعـام . ان الجزائريات ، كل الجزائريات قد انتزعن حقهن بالمواطنية كاملاً غـير منقوص . وسيكملن ذكرى الشهيدات الخالدة . ذكرى الشقيقات الصريعـــات في قلب المعركة التحريرية مرتين ... وهذه بعض الاسماء في قائمة طويلة ومقدسة :

زاهية ، سقطت وسلاحها في يدها الى جانب رامل .

حسيبه بن بوالي ، دفنت حية مع عـــلي حد السيف ومحمود ، ١٧ سنة ، وعمر ، ١٣ سنة .

عريضه ميداد ، القيت من الطابق الثـــاني من مركز التعذيب في مدرسة ساروي .

بهية ، بترت ذراعاها وأحرقت ساقاها بلهيب الغاز المذيب للمعادن .

أما الناجيات من الموت، اللواتي سبق ان أصدرت المحاكم العسكرية أحكاماً بإعدامهن، فقد كن يعرفن كيف يؤثرن فينا، كأن يروين لنا ، بمنتهى التواضع، قصص نشاطهن المحفوف بالمخاطر . اننـــا نأمل ان نعود غـداً لنكتشف مرة اخرى في ادب المقاومة شهادتهن المباشرة حيث كانت الكلمات العادية تتحول في روايات سجن « فرين » ، الى كلمات بليغة بمزيد من البساطة الراسينيّة .

لقد كان إرهاب المدن الخيرة المولدة للبطولة الثورية التي تفتحت في السلام

العائد ، في هيئة إرادة محوّلة للمجتمع ، بدأت بتحرر المرأة الجزائريـة تحرراً ناجزاً .

* * *

حاولنا ان نبرهن كيف عرفت جبهة التحرير الوطني ان تقود إرهاب المدن بتوفيقها بين تناقض الواقعية التاريخية والمثالية الثورية .

لكن الحزب الشيوعي الجزائري ما يزال يجادل ...

وتقول النشرة الشيوعية ، في ما تقول :

« بعد ما أظهر كيف ان انعدام الصلة السياسية العميق بين الجيش والشعب الجزائري يؤدي الى علاقات استبدادية ، كتب الرفيق الجزائري يقول :

« ينبغي أخيراً ان نمنع بعض العنـــاصر المشبوهة من ان تلطّخ بسلوكها الغاية النبيلة التي ترتسم امـــام شعبنا وينبغي ان نتخذ ضد هذه العناصر الإجراءات الأشد جذرية . »

ومن غرائب الأمور ان نشرة « توحيد » لم تر ضرورة في ان ترينـــا كيف « أظهر » كاتب الحزب الشيوعي الفاشل انعدام الصلة المذكور – والعميق ! لكن للأسف يبدو ألا امل في ظهور هذا التفسير . لقد لاحظنا دائماً ان الشيخ – المستشار أخصب بالتعللات منه بالتفسيرات – التفسيرات التي يمكن ان تلقي اضواء على الحوادث المعطاة على انهـــا حقيقة ، ولكنه لا يثبت قط أنها حقيقية .

ما معنى انعدام الصلة بين جيش التحرير الجزائري والشعب ، هذا الانعدام المؤدي الى « علاقات استبدادية »؟ اننا ، بمساعدة شهادتنا الفرنسية الابتدائية ، نعطيه معنى مهذباً هو « الفلاح الذي يمارس الإرهاب على الأهلين » .

كلا . لم تنعزل جبهة التحرير الوطني يومـــاً عن الشعب الجزائري . مثلاً ، الأوامر بمقاطعة التبغ كانت حازمة . وكان يتبع التغريم بخمسة آلاف فرنك تدابير قصوى بحق المدخنين المشاغبين الذين يتخذ عصيـانهم العلني شكل تحدٍ

استفزازي . ان التشويه الموقت للأزلام[1] ، الخاطئين والمرتكبين المجدوعي الأنف ، لم يثر يوماً شفقة أقوى من الشفقة التي يثيرها رجم السكارى و« وكّالي رمضان » الذين كانت تنهال عليهم بالضرب عصابات الأولاد ، الحماة المتعصبين للاعتدال والحِمية والأخلاق العامة .

هل معنى ذلك ان الإكراه هو الوسيلة الوحيدة للإقناع ووسيلة الضغط السياسية – التعليمية الوحيدة ؟ هذا هو العبث الأخرق والمصطنع الذي تحاول الشيوعية ايقاعنا فيه . المثل المصطنع المضروب لنا ليعلمنا الفضيلة هو جريمة قذرة وراء الستار السياسي .

ستة جزائريين تابعين لإحدى فرق الصاعقة ، محبوسين في سجن مرسيليا بتهمة قتل مجاهدة من مجاهدات جبهة التحرير في « مارتيغ . »

« الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها هذه الجزائرية – على حد ما قالوا لنا – هي أنها رفضت ان تستمر في مقاسمة احد زعماء الجبهة المحليين فراشه . »

هل هذه الرواية صحيحة ؟

لن نرتاب في الشهامة الفكرية وصدق آراء نشرة «رابطة المناضلين القدامى للحزب الشيوعي الفرنسي الذين بقوا على ولائهم للقواعد الماركسية – اللينينية . » خاصة حين تعلم ان النشرة تصدر بإشراف مارسيل برّونان ، العالم الحقيقي ، والبروفسور في معهد العلوم ، والضابط الكبير والقائد السابق لمجلس قيادة المتطوعين والوطنيين .

لا شك ان الحق على محرر من المحررين اراد ان يبذل جهداً خارقاً في موضوع يجهل عنه كل شيء هو موضوع القضية الوطنية والاستعمارية . وعندما أضاف من عنده الى آراء « الرفيق الجزائري » اراد ان « يحط على عين » قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي التي لم تر مناسباً نقل المقال المنشور في « الكومونيست » الى جريدة « الأومانيتيه » .

إن جدال الاخوان الأعداء يتم على حساب جبهة التحرير الوطني مكدّساً

---

١ – بالعربية في الاصل .

الظلم والخبث والخطأ .

حذار ان يسارع الخبثاء الجزائريون والفرنسيون الى الاغتباط والتهلل على طريقة المرأة العجوز حين تفاجىء لصاً ... وفرضاً كان الجرم حقيقياً ، أفليس من نوع الجرائم « الفرويدية » ؟ أفليس حادثة اجتماعية وظاهرة انسانية مستقلة بوجودها عن الثورة الجزائرية ؟

إن جرماً كهذا في فرنسا لا يعدو كونه حادثاً عارضاً بين جملة من الحوادث المتفرقة ، والتافهة . عند الشيوعيين ، ربما كانت الفظائع علاقات مجرمة دون إهراق دماء. على ان تحطيم حياة الأزواج كان أكثر حدوثاً هنا منه في الأوساط المحترفة للدعارة . وبين سارقي نساء المناضلين، هناك واحد على الأقل ظل عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ولدى تحرير فرنسا أصبح وزيراً .

من حقنا ان نعتقد أن الاستنكار مصطنع . وأن غاية افتعال الألم ، جدلية اكثر منها اخلاقية .

نحن هم الذين تمزقت نفوسهم لتبديد دم غالٍ هو دم إحدى مناضلاتنا في فرنسا . والجزائريون هم اكثر الجميع تألماً ، لأنهم بطبيعة الحال حساسون لجراح العفة . ليس صدفة ان عملنا البسيكولوجي الاول كان محصوراً باعادة طبع وتوزيع الصور التي وجدت عند العسكريين والتي تظهر الاعتداءات على عفاف الجزائريات .

لقد بينا سابقاً كيف ان الفدائي الذي يقدم حياته كل يوم ضريبة لتحرير بلاده ، غارق في جو من الزهد والتنسك يجعله في حرز حريز من عوامل الضعف الطبيعية . الأخلاق الاسلامية تدفعه نحو الفضيلة التى تسمو بالطبيعة البشرية . ان الفدائية ، اخته في الكفاح ، تضرب المثل في الطهارة الغريبة عن دُوار الشهوة الجنسية . إن الشبق والمجون ، خارج الزواج ، هما تجسيد للزنى .

نحن ، في الحب ، شرقيون . وعقليتنا المحافظة قريبة من التقشف الطبيعي عند السوفييت والصينيين . لقد أجبرت الثورة وحياة التخفي فدائيينا وفدائياتنا على ان يعيشوا كاخوة وأخوات . ان الفريق ، تقول طبيبة صينية ،

رقيب أحذرُ من الكهل .

« فمثلاً ، غالباً ما يمضي الطلاب والطالبات معاً في رحلات للبحث في امور النبات أو طبقات الأرض او سواها. وهم يستطيعون ان يناموا في غرفة واحدة دون ان تنشأ بينهم أية علاقة جنسية او اية قبلة كانت .

...«غالباً ما قاسمت في القطارات شقة من الشقق، طوال ايام كاملة وليال ، عدداً من الرجال وذلك دون ان أتعرض قط لأية حركة ولأية كلمة يمكن تفسيرها بأنها « تمهيد » . هناك ، من هذه الزاوية فرق كبير بين المرأة الغربية والمرأة الشرقية ، فبينما نرى الأولى تتألم وتنقبض إذا لم يعبر لها علانية بكلمة أو حركة مجاملة عن الاعجاب بمفاتنها الجسدية ، نرى الأخرى تعتبر اقدام الرجل على قول تلك الكلمة او اصدار تلك الحركة عملاً سفيهاً ومهيناً [١] . »

غير ان الوطنيين ليسوا جميعاً ملائكة ، حتى جنود السماء أنفسهم يخرون احياناً تحت وطأة التجربة ويسقطون الى الجحيم، إلى فرن الجسد. ان الأساطير اليونانية والفرسية تحكي عن نزول آلهة وأرواح من السماء الى الأرض لتتحد بالبشر . والقرآن يعلمنا ان الملاكين هاروت وماروت كانا يستهزئان بالانسان . وامتحاناً لها ، أرسلها الله الى الأرض وأمرهما ألا يُذلا نقاءهما الروحي . وعلى الارض اغرتهما امرأة حسناء ، فلم يقو الملاكان على مقاومة الخطيئة الجسدية ، فسجنهما الله تعالى في إحدى آبار مدينة بابل .

ان الجزائريين ليسوا قديسين . وحادثة « مارتيغ » بالذات تكفينا مؤونة التوهم باننا معصومون عن الخطأ . ثم إن المنطقة المرسيلية ليست مؤهلة بشكل خاص لتوفير العصمة ، بما فيها من شمس لاهبة ، ولغة عارية ، وفسق إباحي : سينما جنسية ، ستريب تيز ، « فنانات » مثيرات ، ومناخ عابق بالجنس يحرض المرء على الاستسلام لنداء الشهوة وللتخاذل الجسدي والنفسي .

أي قديس من القديسين ، أي قديس انطوان جديد يقدر أن يقاوم التجربة

---

١ – هان سويان ، مؤلفة « الروعة الكثيرة الجوانب » ، جريدة « الاكسبرس » ، ٢١ - ٦ - ١٩٦١ .

وقد تقمصت في وحشية جنية حديثة، « تجن بعناقها المطيب الذين يلاحقونها »
ثم تلقي بهم وبشهوة جهنمية ، في أحضان اليأس» ، كما يعبر فردريك ميسترال
في قصيدته « كالندال » ؟

ان بطل الوطنية في الجنوب يقمع الغريزة الحيوانية لأنه يبقى وفياً للحب
العذري الذي غناه الشعراء الجوالون (تروبادور) . ليست « كالندال » عملاً
أدبياً صرفاً ، ولم تعتبرها باريس تحفة جديدة خليقة بـ « ميراي » . ان
فريدريك ميسترال يمجد فيها « روح بلاده » ويصم بالعار الصليبيين ، برابرة
الشمال الذين عاثوا فساداً في قصور الجنوب وجلبوا الشقاء لجنس بشري اكثر
انسانية وفخراً منهم . وبالمقابل ، يحكي في موضوع آخر عن هانيبعل سيد
« الرون » ، وعن سحر « البروفانس » العربية ، وعن استلطاف البحارة
المغربيين : « سفينة الشواطىء البربرية، التي تصل قبل غيرها الى سوق « بوقير»
تطلق مدفعها وتتلقى بكل شكر خروفاً رائعاً . »

لكن ، مع هذا ، لا شيء يساوي حياة متواضعة في وطن حر :
« افضل أن نضحك في « كادوليف » ونحن نأكل الزيتون من أن نكون في
باريس قلقين ونحن نأكل الفراخ . »

وهذا ، أيضاً ، هو شعور « غونغارون » ، البحار البروفنسالي الذي رقي
إلى مرتبة الانكشاري . فقد أسره البربار ، فقرر أن يستهدي بالنهج الواقعي
ويكون عملياً ، فاعتنق الإسلام . ونجح في كل ما توخاه نجاحاً عظيماً حتى انه
استطاع أن يفوز بحب ابنة السلطان . وعشية زواجه منها سمع فجأة ، في
البعيد ، أغنية لواحد من بحارة مارسيليا . ولم يقو قلبه ، رغم صلابته ، على
الصمود أمام الحنين فذاب تأثراً . وقال « غونغارون » الوداع للملابس الملكية،
والطعام الشهي ، والحدائق المعطرة ... وهرع الى البحر عائداً الى مواطنيه
ينشد هذا المقطع في لهجته الشعرية :

تذوّق السّعادة — مع الأميرة —

هو جنّة محمّد —

لكن أكل البلوط – على الجبل –
أفضل من الحب دون حرية[1] . »

إن توقفات القدر باتت اقل ملاءمة" اليوم للجزائريين الباحثين عن الثروة في وصف شارل مورّاس . حتى بالنسبة لبعض المقتلعي الجذور ، المتغربين ، والجانحين بسائق الحداثة الى التمسك بنوع من الحرية ازاء الأخلاقية العربية – الاسلامية .

بعيداً عن « الحرمة » وعاداتها القديمة – حرمة الشيء المقدس ، والمرأة بالدرجة الاولى ، يصبح الشاب الجزائري في فرنسا منبوذاً ، تسحقه تعاسة العوز العام وضحالة العوز الفردي . منذ أن بدأت حرب الجزائر والعنصرية تحتقره في كرامته (في بعض الخمارات يرفضون ان يبيعوه خمراً) كما تحتقره في رجولته (بائعات الهوى يصدفن عن ذلك الذكر الذي كن يستقبلنه بالأمس ايما استقبال) . هل نستغرب اذا علمنا بالنهاية الفاجعة لمغامرة ضيّع فيها جمال صعب المراس لبّ عقل ضعيف، خاصة حين تثير السيطرة العسكرية– الذكرية إثارة حادة سخط الرغبة المصدومة ؟

المستغرب ، في فرنسا ، هو أن يكون الأمر نادراً جداً في تخمر الحياة الانحطاطية . ان هذه الفوضى الأخلاقية المسببة للجريمة غير واردة عندنا. ليس لأن ابليس عاجز عن إغوائنا ، في حين ينجح في جر الملائكة إلى الهاوية . كلا . وانما لأن تأثير محيطنا الاجتماعي يساعدنا على مقاومة أنفسنا وغرائزنا السفلى . وايضاً بسبب الزيجات المبكرة والمرتفعة النسبة . وأخيراً بفضل البساطة التي يتم فيها الزواج والطلاق سواء بسواء .

بإمكان الجزائري ان يعقد قرانه دون اللجوء إلى الكاتب العدل والمختار إلا الى القضاء الفرنسي. الزواج بالفاتحة للعرف. وكثيرون هم الفدائيون والمجاهدون الذين عقدوا زواجهم شرعياً في المدن أو الجبال باذن رسمي من جيش التحرير

---

١ – بيار لاسير : « فردريك ميسترال ، الشاعر والاخلاقي والمواطن » ، منشورات بروميق ، باريس ١٩١٨ ، ص ٢٦٠ .

الوطني او جبهة التحرير الوطني .

بالإضافة الى ان التربية الجنسية تنتقل شفهياً خلال التقاليد الموروثة منذ مئات السنين . الجزائريون غير الفرنسيين ، وثم كثيرون ، يعرفون سر السعادة الزوجية : إنه اولاً في إسعاد الزوجة يجعل الحب طبابة ، وعلماً وفناً ! وهو ، اخيراً ، في محبة الأهل لابنائهم .

فلنحفظ توازننا ، حتى امام الافتراء .

« يوجد من يهذر مثل طعن السيف . أما لسان الحكماء فشفاء » .

(من امثال سليمان الحكيم ، العهد القديم ، الاصحاح الثاني عشر) .

لن نحمر خجلاً ، اذن ، امام المآسي ذات الطابع العاطفي التي لا ريب في ان جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني تعاقب عليها بكل الصرامة الثورية المفروضة .

معروف اننا متعشقون للعدالة . وحين يقع احياناً خطأ قضائي ، فالله هو الغالب[1] ! لكن جبهة التحرير الوطني لا تألو جهداً في الإسراع بالعمل لتجنب المحذور . وهذه مجلة شيوعية تشهد بذلك في كلامها على دور فرق «المسربلين[2]» وهم وطنيون مدنيون مسلحون :

« قد يكون المحارب بعيداً جداً عن مركز قيادته ، ويقوم ، مع هذا ، بتنفيذ قرار الاعدام « بتهم ارتكاب جرائم ضد الشعب الجزائري » وإعدام هذا او ذاك من المحكوم عليهم[3] . »

* * *

يختلف الواقع النفسي – السياسي اختلافاً تاماً عن الفكرة التي يكونهاعنها الشيوعي الفرنسي او المهاجر المفرنس حين يتحدث عن جزائر يجهلها .

لقد نصبت الثورة نفسها ، بمراقبة جبهة التحرير الوطني ، مدافعة عن ذاتها

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

٣ ـ « لا نوفيل كريتيك » النقد الجديد ، كانون الثاني ١٩٦١ ، ص ١٥ .

لتنقذ كرامة المجموع وكرامة الفرد . كل جزائري وكل جزائرية واعيان الى ضرورة التنكب عن العفونة للوصول الى التقدم والنهضة . ليس صحيحاً ان الفعالية هي بالضرورة غير صافية . ان سلوكنا الجماعي والفردي يثبت ، على الضد ، ان الصفاء هو الفعال .

وكيف نشك في ذلك ، حين لا تعود اعمال المقاومة والتخريب ، والقتال المسلح امتيازاً للرجل ؟

النساء حاضرات في كل مكان من الثورة الوطنية .

لحسن الحظ !

لانه اذا اردنا ان نقدر حق قدرها المقاومة الانسانية الخارقة ، علينا ألا ننسى ابداً الخطة المذكورة سابقاً للإبادة . وهذه السيدة جرمين تيون تؤكد وجود حرب الإبادة اللاكوستية – المولليتية ، بموضوعية رهيبة :

« الخلاصة ، حوالي ايلول من العام ١٩٥٦ ، تلقى الجيش امراً بإبادة العناصر السياسية – العسكرية للعصيان « بجميع الوسائل » . والترجمة العملية للعناصر السياسية – العسكرية المقصودة في : جميع شخصيات المدن وصفوتها ونخبتها ، جميع الشباب المتعلم[1] . »

وتدعم المجلة الشيوعية السابق ذكرها الشهادة على جريمة الحرب . وتبرز الاستنتاجات الخاطئة التي استخلصها ضباط فرنسيون كانوا يبيدون السكان الرجال إبادة منتظمة » وينبشون شعرهم (كذا) وهم يواجهون المفاجآت غير السارة (كذا ايضاً) :

« من الممكن ان يكون هؤلاء المحاربون نساء . يوم ٨ ايار ١٩٦٠ ، اثناء معركة ضارية نشبت في « ميديا » (على بعد ٨٠ كيلومتراً الى الجنوب الغربي من مدينة الجزائر) ، كان عدد من النساء المسلمات يقاتلن جنباً الى جنب مع فرقة جيش التحرير الوطني[2] . »

---

١ ـ في الصفحة ١٨ من كتابها .

٢ ـ « لا نوفيل كريتيك » : « الجيش الفرنسي واستراتيجيا جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٦٠ » .

وهذا مثل آخر غير معروف. في حقيبة أحد المفوضين السياسيين الذي سقط قتيلاً في احد الكمائن التي نصبها رجال المقاومة في « تابلات » ، عثر الجيش الفرنسي على وثيقة نادرة. انها خطة العمل السياسي – العسكري المتعلق بمنطقة الجزائر العاصمة حيث جبهة التحرير الوطني التي اعلنت « وفاتها » أكثر من مرة تعود لتنبعث من رمادها ... لكن ما اثار فضول ضباط الحرب النفسية هو ان الكتابة بخط امرأة . وهذا لمما يدعو مرتين الى العجب ... فحتى الآن لم يعط جيش التحرير الوطني دليلاً بمثل هذا الوضوح على قبوله ، بين صفوفه ، بالجناح النسائي . انه يقبل المعونة النسائية كقوة إضافية ، ثانوية . ولبثت هذه « الترقية » لدور المرأة تشغل بال « العالمين » بالنفسية البربرية – الاسلامية .

أتكون « فاطمة » ما رئيسة الشبكة ؟

تم الاعتقال في الليل ، وسط تحركات القوى العسكرية المحفوظة ، بضرب من البراعة ، « للزعماء الارهابيين » دون سواهم . وأخضعت الموقوفة للتعذيب طوال ٢٢ يوماً . لكن المرأة لم تغير حرفاً واحداً مما قالته في البداية . انها لم تحاول قط ان « تلعب دور جان دارك » ، حسب تعبير أحد الذين عذبوها . ولم تكن سوى ضابطة ارتباط . ولم يجدوا في بيتها أثراً لسلاح او قنبلة او منشوراً او شيئاً من أرشيفات جبهة التحرير الوطني. اما ما يتعلق بخطة العمل التي عثر عليها في الجبل ، فان دورها فيها كان مقتصراً على « إعادة نسخ » نص ثم اتلافه فيما بعد لتضييع كل اثر من آثار واضعه . واعترفت بانها سبق لها ان امضت في السجن عاماً كاملاً ، لكن ألم تبرئها المحكمة العسكرية ؟ إنها ام لأربعة اولاد . زوجها اختفى . انها خياطة ، درست المرحلة الابتدائية دون ان تنال شهادة السرتفيكا ...

ترى ألم يقع ضباط الحرب النفسية فريسة مخيلاتهم ويتصوروا انه بالامكان ان تحدث في الجزائر مقاومة هي ، في رفعتها ، امتياز لحضارة متفوقة ، كالمقاومة التي حدثت في فرنسا ، والصين ، والفييت نام ؟ واخذوا يعيبون على انفسهم انهم اعتقدوا الى حين ان بامكان عربية مغربية حتى وان تكن

جامعية الثقافة، ان تبرهن على قوة ذهنية تجمع الى ارهاب المدن النشاط النقابي: كنجدة عائلات المساجين الذين عاقبوا جندياً حاول تلطيخ ذكرى « أيسات إدير » ، النقابي الذي مات ضحية الغدر ؛ وكتأليف جمعية لتظاهرات النسوة مطالبات بحماية الفتيات ضد وقاحة الارذال والزعران ...

كان ذلك في كانون الاول ١٩٥٩ . ان قبول امرأة في مركز مسؤول تحتل فيه المبادرة محل المشورة انما هو اختيار اكثر مما هو رمز . انه يبرهن على نضج العقول ، ويهدم اسطورة « تخلف » الجنس الضعيف ، ويعلن مدى مشاركة الجزائريين في ارهاب المدن والاعمال الجماعية .

كانون الاول ١٩٦٠ . حدث « عجائبي » يباغت الاعداء والانهزاميين الذين كانوا جميعاً قد اعتقدوا بنصر المظليين «النهائي» ابان «معوكة الجزائر العاصمة» . حتى ان بعض العقول الكبيرة كانت قد أبدت اعتقادها « بفشل » إضراب الثمانية الأيام ، فيما كان نجاح ذلك الاضراب العام يبلغ غايته : وهي اظهار جبهة التحرير الوطني أمام الأمم المتحدة الممثلة الحقيقية والوحيدة لشعب الجزائر[1] .

على الرغم من الوحشية الرهيبة الفظيعة ، ظلت روح الثورة الجزائرية تشع بالأمل . وظهرت حيويتها المتجددة ابداً ، في الشوارع تحت اشكال مواكب وطنية تلوح فيها النساء بعشرات الاعلام الخضراء والبيضاء ...

هذا « الانبعاث » الذي تم لجبهة التحرير الوطني بفضل التعبئة الشعبية ، لم يتردد ضباط الحرب النفسية في عزوه، وذلك في بيانات سخيفة ، الى مساعدة الحزب الشيوعي الجزائري لنا بالخفاء !

وقد رمى الضباط من هذا التضليل الى تبرير فشلهم في مقاومة الثورة . فما دام عدوهم هو الشيوعية الدولية ، هذا العملاق المحنك والخبير، فلا عتب عليهم اذا اخفقوا ، وانما يرتدي فشلهم طابعاً بطولياً !

---

١ ـ « بالمقابل يستطيع زعماء الجبهة المباهاة بما لهم من تأييد شعبي واسع . وقد اثبتت اضرابات كانون الاول ١٩٥٦ - كانون الثاني ١٩٥٧ ان اوامر الزعماء تلقى اكبر عدد من الآذان الصاغية ؛ وقد ذهبت كل المحاولات التي بذلت لتكوين قوة ثالثة ، أدراج الرياح . » (روبير غوتيه ، لوموند ، ٢١ - ٢ - ١٩٦٢) .

وبقي آخرون نهب اللغز المحيّر . ولم تفت « الموند » الاشارة الى غيظهم العاجز أمـــام صرخات « اليو يو » «Les you-you» الداوية التي تطلقهـــا « فاطمات هستيريات ... »

إنها لظاهرة مذهلة ! كيف يمكن للتغريد الفولكلوري في حنـــاجر بنات حواء ان يحطم أعصاب المرتزقة ويشعل نار الغضب وكراهية المرأة في قلوب خريجي سان سير ؟

قبل الثورة ، كانت « اليو يو » صرخات فرح تطلقها المغربيات في الحفلات التقليدية : في الخطبة والعرس والولادة والختان والعودة من الحج ، الخ ... عام ١٩٥٥ ، صارت الهتافات المعبرة عن الفرح أمراً نادراً ، ثم اختفت نهائيـاً من الحياة الاجتماعية باختفاء كل مظهرآخر من مظاهر اللهو اختفاء عفوياً تلقائياً ، ابتداء من الغناء حتى الموسيقى مروراً بالرقص . ولم يكن ذلك بوحي من سوق عكاظ لجبهة التحرير الوطني. ان ما أوحى بالرقابة الذاتية هي الحشمة وحدها ، هذا الشعور بالحياء الذي يمتزج في الانسان خوفه من احتقار نفسه اذا هو أظهر فرحه الاناني ، والتعبير الصامت عن التحسس العميق بأحزان الأمة .

إنه لتحول عجيب ! ان عودة « اليويو » بهذا الشكل المفاجىء هي بحد ذاتها لغز ، لأن الحرب الرهيبة لم تنته بعد . وهـذه هي الولولة القديمة البريئة والهزيلة ، التي كانت وقفاً على بعض المنازل ، قد استحالت بغتة صرخة حربية تطلقها جوقة من النساء ، جوقة لا يُحصى عدد افرادهـا ، جوقة خفية ، مثل زئير العاصفة الارضية ، تنفجر من أعماق المدينة كلها .

ان « المثقفين » الفرنسيين بارعون ملاعين . لقد تعلموا جميع أنواع الحرب في الصين ، وكثيراً مـا كان الفلاح والمرأة في الفييت نام يضللانهم ويحيرانهم . فكيف يتحسبون لما قد تبتكره « الفواطم » من اساليب للعمل محض جزائرية ، جديدة في مفهومهـا ، وفي تطبيقها ، وفي بساطتها وديناميكيتها وفعاليتها ؟ كيف يفسرون هذه القدرة لـ « ولولة » النساء على مسح عقدة الخوف ، واطلاق المجال لآلاف الاعلام « الفلاحة » في المدن « المقموعة » ، وإرعاب الفاشستيين ،

وإيقاف تظاهرات الاستعماريين ؟..

لقد ألهمت نداءات « اليويو » الثورية ، هذا التعبير عن عبقرية الشعب الخلاقة ، شعراءنا الناشئين .

فلنحاول ، اذن ، ان نحدد « الولولة » الوطنية.

انها المد المعروف ، المألوف ، لحرف واحد على انغام عديدة يؤديه شخص واحد ، ثم عدة اشخاص ، ثم يتسع المد ويكبر شيئاً فشيئاً ودون توقف ، فكلما انتهى فريق من ارسال النداء تولى فريق آخر المهمة عنه . ويرتدي « اليويو » مسحة من الرتابة ، لكنها رتابة زائفة مثل رتابة الموسيقى الشرقية ، وهو يتبدل بتبدل قوة الاصوات المختلفة وكثافتها وتنوعها ، كما يحدث في جوقة مؤلفة من عشرين الف مغنية .

وتأثير « اليويو » مثير للأعصاب بقدر ما هو مؤثر في النفس . فهو في وقت واحد صوت صفارات الانذار وأنين التأوهات الساحرة ، زئير وتجويد وتلاوة مقدسة . لقد مارست « الولولة » المعادية للاستعمار تأثيراً لا يقاوم ، وكانت قادرة دائماً على التقمص في البطولة الجماعية .

وقد اعجز « اليويو » خبراء « السكان الاصليين » والرجعيين والصوفيين السياسيين . أهو وباء ، ام نوع من الذهول المعدي ، ام نوبة من نوبات جمهور هاذر ، ام من فعل الشيطان ؟

على ان ليس اقرب من « اليويو » الى العقل ، وليس أكثر منه وعياً وهدوءاً كوسيلة جديدة وفذة من وسائل العمل الجماعي ، وتعبئة مجموع سكان قصبة ما ، او مدينة ما .

« واليويو » هو ايضاً صرخات مشحونة بالمعاني المحددة المتنوعة حسب الظروف . فقد يكون ، كزقزقة العصافير في الليل ، اشارة انذار تعلن قدوم الدوريات أو صرخة تحذير لتجنب خطر منظمة الجيش السرية . وهو ايضاً نداء للمساعدة والمقاومة ضد الاعتقالات . وهو ، فوق ذلك ، تقدير إجماعي لبسالة جيش التحرير الوطني ومآثره .

وحين يتظاهر الوطنيون فاتحين صدورهم لنار المظليين الوحشية وقنابل المتطرفين المختبئين بجبن وراء الشرفات ، كان «اليويو» يتصاعد من الجزائريين، صرخات تشجيع بادىء الامر ، ثم يتلاحق دون انقطاع ، كصلاة الموتى التي تثير المشاعر ، تمجيداً لتضحية الشهداء السعداء .

كان هذا « اليويو » الذي لا يستطيع الرصاص ان يسكته ، يخترق آذان قاتلي النساء والاطفال ... فيرهقهم ويعذبهم ككابوس يطاردهم حتى في أوكارهم ومعسكراتهم .

وكان « يويو » النصر ، بالنسبة لهؤلاء الذين « اكلوا خبز المساوىء » ، هو الرعب المسيطر في العاصفة ... مع هذا الوسواس بأن هناك موسيقى تقضي على كل شيء كما في رؤيا يوحنا ، موسيقى الثورة الجزائرية التي ترافقها تهاويل أحلام تتراقص فيها نيران هائلة ، كما لو ان تفتّح الجزائر الشعبي ليس الا تحولاً سياسياً لشبح ديان – بيان – فو ، وقد صار جسداً حياً .

ضِدّ الشيُوعيَّة ؟ كلاّ ، ضِدّ الغبَاء

« كما انك لست تعلم ما هي طريق الريح ، ولا كيف تنشأ العظام في بطـن الحبلى ، كذلك لا تعلم اعمال الله الذي يصنع الجميـع . »

نستطيـع بدورنا ان نوجه هذه الكلمة في سفر الجامعة الى السكرتير الضال للحزب الشيوعي الجزائري ، فليس الفرق كبيراً جـداً بين محدودية الانسان المقصود في كلمة الجامعة وكاتب « الكومونيست » . الاول يجهل علم الحوادث الجوية والبيو – كيمياء . ويجهل الثاني الاخلاقية الجزائرية وعلاقة الإرهاب في المدن بالعمل الجماهيري عند شعب مخنوق ومحروم من كل وسيلة مشروعة للخلاص من عبوديته .

وحين نتأمل جيداً نرى ان كفة المقارنة ترجح مع سلفنا التوراتي القديم . كان له الحق ان يتساءل : « من أمسك الريح بيديه ؟ » لم يكن الإنسان آنذاك يعرف بعد جميع القوانين التي تفسر ظواهر الطبيعة . لم يكن بامكانـه بعد ان يتخيل ان أحفاده سيتقنون العلم الذي يمكنهم من جمع السائل الغازي في أوان فولاذية ، في شكل هواء مضغوط وهواء سائل . وأنهم سيتقنون فن السيطرة على الكهرباء ، واللعب مع الجاذبية الارضية واختراق حرمة الفضاء الاثيري .

أما معاصرنا فيريد ان يجهل انه جاهل . وهو من الوقاحة بحيث انه يلعب دور « الغيرة المفرطة الباطلة » في ثورة بدأت وسرعان ما ستنتهي ، دونـه ،

بكل تأكيد .

لا شك أنه كان من حظـه ان درس مع بعض الجزائريين ، بين ١٩٣٤ — ١٩٣٦ في « جامعة عمال الشرق » ، في موسكو .

لكن هذا لا يشكل إطلاقاً حجة كافية لأن نجعل من طالب خامل ثورياً علمياً ، بدل ان نسند إليه مهمة محددة في حزب ذي رسالة ثورية .

أجاب مرة نابليون بجفاء ، ضابطاً خاملاً :

« لقد اجتاز بغلي جبال الالب ، هو ايضاً ... دون ان يتطور . فلقد مضى بغلاً ورجع بغلاً ! »

ليست هذه فكاهة خبيثة . فإننا نعثر على هذه الفكرة ذاتهـا ، بأسلوب مجازي ، عند السيد كاتيلنيكوف المسؤول السابق عن اجهزة الكومنترن :

« لقد اخترنا الجزائريين ، شأن طلاب البلدان الاخرى المستعمَرة او بلدان الشرق الاوسط ، ونحن نشعر ان جامعة موسكو كانت نوعاً من الحوض المليء بالدّهان الاحمر ... فكان يكفي ان تغطّس فيه أياً كان لكي يخرج منه « بلشفياً » من حقه ان يصير عضواً في القيادة العليا للثورة العالمية . »

لهذا الرأي طابع النبوءة . وهو يتحقق في مثل محسوس ، بعد خمسة وعشرين عاماً . وسنرى كيف ان « مفكراً نظرياً معزولاً عن الشعب يحول علماً حياً ومتحركاً الى تجريد ميت . »

ومن اجل ذلك سنتبنى شعار إحدى كاتباتنا في جيش التحرير الوطني : « بلا حقد ولا شفقة[1] . »

إن درويش الحزب الشيوعي الجزائري يجر على نفسه السخط . فلو ان الوقت لم يكن زال وانتهى ، لكان يستحق الكي على شفتيه، عقاب الكذابين .

ولنستمع إليه كيف يهذر بشكل جازم ايضاً :

« ينبغي القيام ، في تواز مع النضال المسلح ، بعمل دائم للتربية السياسية بين صفوف الجيش الفرنسي واوساط الشبان الفرنسيين ، وعلى الخصوص بين اوساط

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

العمال والفلاحين، الذين أقحمهم الكذب في حرب ظالمة وضد مصالحهم . وهذا يفترض موقفاً اكثر دقة وايجابية إزاء القوى التقدمية في فرنسا . »

هذا العمل لم تهمله جبهة التحرير الوطني . ولعلنا لم نقم به وفق منهج محدد ومثابرة . الاكيد هو أننا كنا ، منذ عام ١٩٥٥ ، نوجه مناشير الى الجنود الفرنسيين الشبان . ثم إن عمل التوضيح والشرح لمجموع الجيش كان يتجدد باستمرار ، ويتسع ، ويتحسن .

إن هذا « المخيخ » البيروقراطي للحزب الشيوعي الجزائري هو وحده الذي لا يرى ، ما عملناه . فلقد حال خموله العقلي دون ان يقرأ « أدب » حزبه ، المادة الاولية في الدعاية التي تقع مسؤوليتها ، نظامياً ، على عاتقه .

وهناك ما يدل رسمياً على هذا التناقض الداخلي ، نراه في إحدى النشرات التي طبعها في براغ ، مكتب الشؤون الخارجية في الحزب الشيوعي الجزائري ، ويرأس المكتب هذا الشخص نفسه الذي يوجه اللوم الى جبهة التحرير الوطني. هذا الدليل الرسمي ، وهو عبارة عن استدراك ذاتي تلقائي من قبل النشرة الجزائرية التشيكوسلوفاكية نثبته فيما يلي :

« ويضاف الى جهد بعض وحدات جيش التحرير الوطني التي تملأ بالمناشير الساحات المليئة بالقطعات الفرنسية ، السلوك الإنساني الذي سلكه جيش التحرير الوطني ، إزاء المساجين الفرنسيين ، وعلى الخصوص الجنود منهم ، لا لأسباب « أخلاقية » وحسب ، وإنما ايضاً وبنوع خاص لأسباب سياسية . »[1]

هذا يدل على ان نشاط جبهة التحرير الوطني يختلف عن الهذر البيروقراطي . ثم ان هذا النقد الآمر لا يرافقه ، كالعادة ، أي اقتراح عملي ملموس .

« يجب ... يجب ... » لكن ماذا وكيف ؟

هل كان ينبغي لتحسين العمل «اللاعنفي – اللاحربي» في الجيش الفرنسي،

---

[1] ــ الماركسية والواقع الجزائري ، عدد ٦ ، آذار ١٩٦١ ، ص ٦١ .

ان ندعو المفوضين السياسيين في جيش التحرير الوطني للانخراط بين صفوف الفرق المظلية والبحرية ، حيث الشبان الفرنسيون «عمالاًوفلاحين»، كثيرون لكن حيث لا يُقبل العرب .

ما من جماعة كانت مهيـــأة بطبيعتها للاتصال بهؤلاء الجنود حتى في فرنسا ذاتها ، مثل جماعات الشبيبة الشيوعيـة والنقابات العمالية والطلاب . لكن ، لسوء الحظ ، نعرف من إحدى المقابلات المنشورة في جريدة «الاونيتا» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الإيطالي ان :

« الحزب الشيوعي (الفرنسي) كان يمنع على اعضائـــه ، طوال السنوات الخمس الاولى من النضال ، اي انخراط او مشاركة في شبكات دعـــم المنضالين المناضلين الجزائريين ، وبشكل اعم ، تقديم اية مساعدة عملية لهم . »[1]

اظن اننا نفهم ، دون حاجة الى ترجمات ، ان تبني « موقف أكثر دقـــة وإيجابية ازاء القوى التقدمية في فرنسا » ، ليس إلا دعوة لنـــا لتبني عجز الحزب الشيوعي الفرنسي عن التغلب على العطالة الهائلة في الطبقة العمالية التي بقيت ، في معظمها زمناً طويلاً في عزلة تامة عن روح الكفاح والثورة .

اكيد ان التفسير الديالكتيكي يوحي الا نفصل بين كفاح شعبين ضد العدو المشترك – الاستعماري الذي ينضح بالفاشية .

غير ان الثوري الجزائري او الفرنسي يركز ضرباته الاقسى حيث يبـدو العدو اكثر ضعفاً منه في اي مكان آخر ، اعني في الجزائر . امـــا فيما يتعلق بالماركسية المزيفة، اسيرة الخرافات ، فإنها تعود بنا ربع قرن الى الوراء . إنها ، دون ان تراعي الوضع الجديد ، تشدد هجومها ضد الفاشية التي تهـدد فرنسا ، واضعة في المرتبة الثانية الثورة الجزائرية التي يتوقف على انتصارها انتصـــار الديموقراطية في فرنسا ذاتها .

إن هذا لضلال استراتيجي يحسب المعلول علة .

---

١ – هذه المقابلة نقلتها بكاملها جريدة « اللوموند » تاريخ ٢٥ – ٩ – ١٩٦١ .

ثم إن في هذا دعوة لنا لتقديم الثانوي على الاساسي.

وهذه دعوة معسولة ؛ فقد عُرضت علينا كمساومة مليئة بالدهاء جديرة بصرخة « يا حبيبي[1] » ، التي يصرخ بها الباعة في ساحة شارتر ...

« سيكون من السهل أن نثقف الجيش والجماهير الشعبية ثقافة سياسية ، إذا توصلنا الى ان نحسن فهم قضية الوحدة . فالجوهري هو ان نوحد ، دون استثناء ، جميع القوى الجاهزة للنضال ولدعم الحكومة الموقتة . ومن اجل ذلك ، بنوع خاص ، لا بد من إنهاء السياسة التي تعزل الشيوعيين الجزائريين. »

كأنما إعداد هذه الثقافة يتم ، سحرياً ، بتوحيد جميع القوى « الجاهزة للنضال ... »

فلنسرع الى القاموس . « جاهز ، يعني مستعد ... مثلاً ، مستعد لتأدية خدمة . »

هذا حسن . إن شعورنا الفطري لم يخدعنا . ولقد جنبتنا هذه العبارة من الحزب الشيوعي الجزائري الوقوع في خطأ . فقد كنا نظن ، بسذاجتنا ، ان القادة الشيوعيين تلقوا ، بعد الفشل الأليم الذي مُني به « مجاهدو التحرير » ، أمثولة « قضية الوحدة » بواسطة الانضمام الصادق النهائي الى الثورة التي تقودها ، وحدها دون غيرها ، جبهة التحرير الوطني .

وقد نبهنا رئيس الحزب الشيوعي الجزائري – في السنة السابعة ! – أنه لم يدخل المعترك بعد . إنه « جاهز للكفاح . » لكنه يتطلع الى عمل آخر في المستقبل !

الشرط « الذي لا بد منه » هو ان تضع جبهة التحرير الوطني حداً للسياسة « التي تعزل الشيوعيين الجزائريين . »

إننا نرى ، على العكس ، أننا أقرب الى الحقيقة حين نتكلم على سياسة الحزب الشيوعي الجزائري العشواء حيث كانت تترافق الانتهازية والعصبية

---

١ – بالعربية في الاصل .

الحزبية باستمرار . إن الإنسان كما يصنع سريره ، ينـــام ؛ والحزب الشيوعي الجزائري هو ، وحده ، المسؤول عن عزلته هذه .

كان هذا الغارق في سباته يبدو متصلباً لحظة كان العمال في اللحظة الحاسمة ينطلقون لملاقاة النصر بانضوائهم دون شرط تحت لواء جبهة التحرير الوطني . لم يفهم أنه فوّت قطار العودة الاخير الى بلاده التي أجهزت على الاستعمار . لقد انتهى الامر ... ولن يستطيع بعـد اليوم ان يشارك في الحسنة[1] — العمـل الطيب الاخير الذي يتيح للمتـأخرين ان يرموا حفنـة رمزية من التراب فوق الجثة الاستعمارية التي تستقر في القبر .

إن تفسير عزلة القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري وتبريرهـا بـ « اللاشيوعية » ، يعنيان إغلاق باب النقد الذاتي — بحثاً عن الاخطاء الشخصية الخاصة . إنهما يعنيان أيضاً البحث عن حل لمشكلة مزيفـة ؛ او التحرك دون جدوى ، شأن « النحلة العمياء »[2] ، والانتحار .

وقد عرض لنا الحزب الشيوعي الجزائري الحقيقة المؤلمة ، كتابياً ، بلسان سكرتيره :

« منذ ان تشكلت الحكومة الجزائرية الموقتة ، حياها حزبنا متمنياً لهـــا النجاح ، وأعلن انه مستعد لدعمها ، وفي الوقت نفسه كان يعبر عن رغبته بحمل نصيبه من المسؤولية ، كما كان أعضاء حزبنا يحملون نصيبهم من المسؤولية في فرق الانصار وغيرها .

« إلا أن رغبة حزبنا هذه لم تتحقق . وينبغي التذكير انـه لم يكن هناك شيوعيون في الحكومة او في الاجهزة الحكومية . بل واكثر من ذلك — فقـد كان في الحكومة اشخاص لا يخفون عداءهم ومناهضتهم للشيوعية . »

ولقد قرأنا هذا الكلام جيداً ، ولم يُدهشنا قائله . فإن هذا البيدق الجوّاب

---

١ — بالعربية في الاصل .

٢ — بالعربية في الاصل .

ليس مستعداً للمشاركة الشخصية في الثورة إلا بعد تحقيق « رغبته » : تعيينه وزيراً في الحكومة الجزائرية الموقتة .

كيف لا تكون ردة فعلنا إزاء هذه « الرغبة » مستوحاة من المثل الذي يعبر تماماً عن وضع هذا المرشح للوزارة : « يا معوّج الحنك[1] ما كان بينقصك غير السواك[2] . »

إن هذا الموقف غريب على المواطنين الثوريين الذين ضحوا بإيمان صادق ولاءً لمثلهم العليا ، واجدين سعادتهم في الكفاح والنجاح . وهذا الهوان يكبر عنه الشيوعيون القدامى الذين لم يساوموا على انضوائهم الى الثورة ، وعلى آلامهم ..

إنهم ، في المخابىء والسجون ، يبصقون قرفاً حينما يذكر أمامهم اسم هذا الوارث لدار النخلة [3] — ملجأ المجانين ، قديماً ، في جزائرنا الماضية . ولا بد من ان يكون أبله ، مسبقاً ، هذا الذي يُعلن بلا حياء رغبته في ان يحمل اللقب العظيم كمؤسس للجمهورية الجزائرية ، مطالباً هكذا بحق ملكية بستان سقاه وأخصبه فكر الآخرين وعرقهم ودماؤهم !

وإذن، فإن الحق على الأشخاص « المشتركين في الحكومة الجزائرية الموقتة، والذين لا يخفون عداءهم ومناهضتهم للشيوعية . » في عدم حصول الحزب الشيوعي الجزائري على مقعدين أو ثلاثة مقاعد وزارية .

ما أصدق هنا المثل القائل : « عنزة ولو طارت[4] ! »

إن الاستناد الى عوامل أخلاقية دون غيرها ، لا يعني إظهار الحماسة ضد اللينينية وحسب ، وإنما يعني ايضاً الهبوط بالمادية التاريخية الى مستوى هزليات جحا .

إذ ليس هناك من مناهضة للشيوعية تستقيم ، حينما يرتكز اتجاهٌ سياسي

---

١ ــ بالعربية في الاصل .

٢ ــ بالعربية في الاصل . والسواك يعني تنظيف الاسنان بالمسواك .

٣ ــ بالعربية في الاصل .

٤ ــ بالعربية في الاصل .

صحيح على عمل الجماهير . فالعامل الحاسم ، في الشأن السياسي ، هو العلاقة بين القوى المتجابهة .

هل كان تشرشل صديق الشيوعية حينما اختــار ان يساعد تيتو ضد ملك يوغوسلافيا ؟

ولماذا لا نبحث عن مثل أكثر شهرة، مثل فرنسا ، الذي يسمح لنا بمقارنات حية ناطقة . فإن اشتراك الشيوعيين في الحكومة الفرنسية لم يكن نتيجة أعجوبة من أعاجيب علاء الدين بمصباحه العجيب أو دونه .

إنه نتيجة لعمل الجماهير الإيجابي . وكان يفرضه الواقع التاريخي . فقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي ممثلاً تمثيلاً قوياً في « مجلس المقاومة الوطني » . لكــن هل انتهت ، بسبب من ذلك ، مناهضة الشيوعية التي تمثلت في كتــلة بيدو – غي موليه – سوستيل وبورجوازيين آخرين وأصحاب بنوك ، وغــابت عن مذبح الوحدة الوطنية ضد هتلر ؟

ألم يُعمد إلى إنزال الأسلحة والمعدات التي كانت تنقص الفرق المنــاضلة ضد النازيين والفيشيين ؛ في مناطق الجيش السري الذي أبقي «محفوظاً» لمنع المقاومة الوطنية من أن تتحول الى ثورة اشتراكية ؟

ولنذكر للمناسبة أن ذلك المرشح لمقعد وزاري في الحكومة الجزائرية الموقتة لم يزاحم للحصول على مقعد في « المجلس الوطني للثورة الجزائرية . »

ذلك أن هالة الدعاية لا تحيط بهذا المقعد ... وربمــا تعرض صاحبه للقيــام بمهمة في الداخل حيث يقترن خطر اجتياز الحدود بكمائن ليس لمن يتنزه في بلاد اشتراكية ، أية فكرة عنها .

لا تدع لذة اليوم للغد[1] !

لماذا نلتفت نحو الماضي لنكتشف كيف أن الحــزب الشيوعي الفرنسي لم يكن مستجدياً ، وإنما كان حليفاً مرغوباً ؟

---

١ ـ بالعربية في الاصل .

فلم يكن الجنرال جيرو نائب رئيس الحكومة في الجزائر صديقاً للشيوعيين حينما اتخذ المبادرة للاتصال بقائد الفرق التي تحارب النازيين وأنصار فيشي .

وهل من الصدفة الخالصة أن المكلف بمهمة النزول في منطقة محتلة كان يدعى كميل لاريبير ، الضابط الحائز على وسام جوقة الشرف ، والجميع في الجزائر يعرفون أنه كان عضواً في الحزب الشيوعي الجزائري ؟ ما كانوا يجهلونه هو أن هذا الذي أصبح نائباً عن وهران كان سابقاً ملازماً في فرقة الرماة الجزائريين ، وجرد من رتبته عام ١٩٢٦ ، على الجبهة المراكشية ، لانه دعا جنوده المسلمين لمؤاخاة أشقائهم المستعمرين الريفيين الثائرين .

وهل كان الجنرال ديغول صديقاً للشيوعيين حينما تقرب من شارل تيلون نفسه ، رئيس فرق محاربة النازيين وأنصار فيشي ؟ وكان الجميع يعرفون أيضاً أن شارل تيلون كان في الوقت ذاته عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي ، وهو من متمردي قضية البحر الأسود ، وضابط برتبة عالية ، مثل أندريه مارتي ، في الفرق الدولية طيلة الحرب الاسبانية .

أضف إلى ذلك أن الجنرال ديغول قد زاد عدد وزرائه الشيوعيين ، وتعب في تحويل « الهارب » موريس توريز الى رجل دولة .

ولم يأبه رئيس فرنسا المحاربة للمعارضة العنيفة أو المبطنة ضد الشيوعية . ولأن شارل تيلون ذكر بأن السكرتير العام للحزب موريس توريز ، كان لاجئاً في موسكو طوال حرب المقاومة ، طرد من المكتب السياسي ، وجُرد من أية مسؤولية داخل الحزب الشيوعي الفرنسي .

إن الحجة الأخلاقية التي تتذرع بها شارل تيلون ليست عادلة . فيمكن الإنسان أن يخدم بشرف أياً كان . وإنما أشرنا إلى الحادثة لكي نظهر أن هذا الرأي الذي يتقارب مع شعار مناهضة الشيوعية لم يكن له « الوزن » الكافي لتحقيق التعادل في مشاركة الحزب الشيوعي الفرنسي في المقاومة ضد النازية .

١. كان الحزب الشيوعي الفرنسي يشكل ، كحزب ، القوة السياسية الأكثر انسجاماً ، والأحسن تنظيماً والأقوى نضالاً . وكان يمارس نشاطه

بأشكال متنوعة : الإضرابات ، بواسطة العمال ، مظاهرات الطلاب ، الإرهاب المدني والتخريب ، العمل السياسي داخل لجان التحرير ؛ الخ .

٢. وكان الحزب الشيوعي الفرنسي يملك ، كحزب ، قوة مسلحة تبلغ حوالي مئة ألف مقاتل . وكان الجنرال جيرو وديغول أول من قدروا القيمة السياسية – الحربية لهذه القوة .

٣. وكان الحزب الشيوعي الفرنسي يتمتع ، كحزب ، بصيت عظيم في جميع الطبقات الاجتماعية . وكان « الحمر » حتى في أعين الفلاحين المحافظين يتحولون من خبثاء « مخرّبين » إلى وطنيين يقتلون الألماني والخائن ، ويفوقون غيرهم في عدد الضحايا والشهداء الذين يقدمونهم .

٤. وكان الحزب الشيوعي الفرنسي ، كحزب، حليفاً مفيداً جداً فيما يتعلق بالسياسة الخارجية . فلقد ساعد الجنرال ديغول على إقناع الاتحاد السوفياتي ليعترف « باللجنة الفرنسية للتحرير الوطني . » وبفضل ذلك فشل المشروع الأميركي الذي كان يقضي بأن يطبق على فرنسا نظام الإدارة الحليفة الذي طبق في البلدان العدوة سابقاً .

كان يخيل أن مناهضة الشيوعية تلاشت حتى في الجزائر .

إلا أن هذه المناهضة التي تلاشت مع مد النجاح عادت للظهور وازدهرت مع الجزر المعاكس . ففي عام ١٩٤٧ ، وتحت ضغط الرأسمال الكبير ، داخل فرنسا وخارجها ، أنهى رئيس الحكومة الفرنسية في العهد الاشتراكي – الديمقراطي سياسة إشتراك الشيوعيين في الحكم – هؤلاء المصلحين المنكودي الحظ في هذه الدولة البورجوازية .

وعادت مناهضة الشيوعية لتصبح فكرة قاهرة تلجم التقدم الاجتماعي . ومع ذلك فلم تكن تشكل بحد ذاتها عقبة يستحيل التغلب عليها . فإن تطورها يعكس تقلب الأوضاع التاريخية المختلفة اختلافاً جذرياً .

إن عزلة الحزب الشيوعي الفرنسي راللاشيوعية لم تقاوما السياسة التي تتمتع بتأييد عام من الشعب . والجبهة المشتركة عام ١٩٣٤ ، والوحدة النقابية العمالية

عـام ١٩٣٥ ، والجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ ، وفرنسا المحـاربة عام ١٩٤١ ، والتحالف الثلاثي عام ١٩٤٥ هي دلائل واضحة على ما نقول .

ولـكي يساعدنا ربانا هذا على التخلص من « لاشيوعيتنا » ، فإنه يتسلم دفة الثورة . وهو يلوم فرانسوا ميتيراند – خصوصاً ! وبعض اليساريين الفرنسيين، « الذين صاروا ، وقد تـأخروا في متابعة التيار الشعبي ، مدافعـين عن الشعب الجزائري . »

إن هذا التشدد البيّن الصارم ، لتكتيك غريب ترسمه جبهة موحدة ! وهي تحتفظ بالصفح « البروليتاري » « للأخ الاشتراكي » لاكوست ، لإنقاذ العلمانية ببلبلة الأكثرية في مجلس عام .

إلا أن جماعة سوستيل والقائلـين الآخرين بإبقـاء الجزائر « فرنسية » يهاجمون البورجوازي ميتيراند والوجهاء الذين تغافلوا، في معظمهم ، عن الرأي العام الفرنسي ولم يكترثوا له .

هل ينبغي أن نرمي بين أيدي « أنصار اليوتوبيـا والحرب التي لا تنتهي » الجزائريـين من أصل أوروبي الذين توصلوا إلى أن يفتحوا عيونهـم على آفاق جديدة ، مع مجيء الجزائر المستقلة ، والاعتراف بالدولة الجزائرية ؟

هل يجوز أن « نخنق العلم » وننكس راية الثورة حينما يتفاوض سريـاً « منتخَبو » الجيش مـع جبهة التحرير الوطني أو يدافعون علناً عن مواقف تؤكد أن الحكومة الجزائرية الموقتة تمثل ، وحدها ، الجزائر ؟

هل يجوز أخيراً التخلي عن الجنود الفرنسيـين « من ذوي الميـل الضئيل إلى القتال » ، هؤلاء الذين استقالوا ، ومونوا جيش التحرير الوطني والتحقوا به ، بكامل معداتهم وأسلحتهم ، هؤلاء الذين لا يترددون ، كما في تيبازا ، أن يلبسوا بكبرياء أمام ضباطهم الفرنسيين السدارة المرصعة بالهلال والنجمة .

لا تكفي ، في السياسة – وفي كل شيء – الموعظة للسلوك مسلكاً حسناً من أجل تغيير عادة فكرية وتعديل موقف ، لا يكترثان لتوبيخ الضمير .

إن الخداع لبالغ الوضوح . فإن قائد الحزب الشيوعي الجزائري يريد أن

يخلط شعبان برمضان[1] ليقوم بالنقد الذاتي عن الآخرين ويخفي عجزه ونقصه. إنه يريد أن يوحي إلينا بمقارنة مضمرة أنـه لا يشبه « ميتيراند الذي التحق ، متأخراً ، بالتيار الشعبي » ، دفاعاً عن الشعب الجزائري . وهـذا يخلق فكرة أن الزعـيم[2] الشيوعي ، إذ قرن بين روح المبـادرة ونور البصيرة ،' قد قدم بالطبيعة مساعدته للثورة في أسابيع التردد الأول .

يا حسرتاه[3]! فالعكس هو الصحيح. والممتع، خصوصاً، – ولنضع الكذب الخبيث على حدة – هو أن هذا الذي يعلمنا الفضيلة قد تبنى إزاء الثورة موقفاً مماثلاً تماماً لموقف الوزير منديس – فرانس : أدانها أولاً إدانة شفويـة ، ومن ثم انضم إليها متأخراً .

من طرف الشفاه .

هذا مخزٍ ، على الصعيد الأخـلاقي . وهو يذكّر بشيخ الزاوية[4] ، الذي يضرب « شارب الخمر[5] » « عدوّ الله ورسوله » ، زاعماً ان البركة[6] تنزل على كأسه الخاصة هو وتصيّر ، في حلقه ، اليانسون عسلاً !

وهذا أكثر خطورة ، على الصعيد السياسي . فالخطأ ذاته الذي يرتكب في الوقت ذاته ، يختلف مـع ذلك في الدرجـة والنوع حسب جنسية المرتكب ووضعه . إن موقف السيد ميتيراند ، إذ ينظر إليه من الخارج ، موقف عادي بالنسبة لفرنسي بورجوازي ووزير للداخلية كلفته، على وجه التحديد، حكومته بأن يُبقي الجزائر في السجن الاستعماري. وإذ ننظر من الداخل إلى موقف «الراعي دون عصا » ، يبدو موقفاً مشؤوماً من زاوية نظر جزائري ، عامل ومسؤول

---

١ ـ بالعربية في الاصل .
٢ ـ بالعربية في الاصل .
٣ ـ بالعربية في الاصل .
٤ ـ بالعربية في الاصل .
٥ ـ بالعربية في الاصل .
٦ ـ بالعربية في الاصل .

في حزب تلقي عليه ، على وجه التحديد ، عقيدتـــه مهمة تحـرير الجزائر من البورجوازية الإستعمارية .

أكيد أننا لن نعود الى الخط الذي يفصل ، اصطناعيــاً ، اليسار عن اليسار المتطرف . فلقد رأينا أعداء جبهة التحرير الوطني في وسط العمال ، كما رأيناهم في وسط أصحاب العمل. ودللنا على أن الثورة الجزائرية قسمت المجتمع شاقولياً، إلى بيض صغار معادين ورأسماليين كبار ملاطفين .

ما يصدم هو أن نرى بهلوانياً يأخذ مكان الصدارة ، بينما هو في الواقع ليس أكثر من جندي أعزل ، غبي ، كسيح ومتخلف .

وليس ما نقوله مجرد صفات كلامية ، وإنما هو واقع تاريخي .

ففي داخل اللجنة المركزيــة ، ابتعد هـــاتف الغيب في الحزب الشيوعي الجزائري عن الفكرة التي طوّرها لامراني ، نقيب المحامين في بطنـــا ، بانقياده إلى المتمسكين بأنماط العمل التقليدي في وهران وبالعباس ، وحكمه على المغامرة العربية .

وهكذا دُفع هذا البوهيمي الجوّاب إلى أن يسلك تماماً كما يسلك الأعمى الذي يـدير ظهره لحقيقة العمل المسبّق . فقد أمر هذا المحرر في المجـــلة الموسكوبية المندوبين الشيوعيين في الأوراس الذين جاؤوا للمرة الرابعة يطلبون السماح لهم بالانضمام إلى المجاهدين – أمرهم بعدم التسلح وبعدم الانضمام !

وقبل أن يغادر الجزائر ، اتصل بنا مندوب أوراسي[1] . وكان الحق مـع هذا الوفد الذي يمثل القاعدة السليمة للحزب الشيوعي الجزائري ، ضد قيـادته البيروقراطية الغـــارقة في التشوش الإيديولوجي ، والخوف من المسؤوليات ، والخيانة السياسية .

وما العمل حين لا يُطاع طاعة مطلقة أمر اللجنة المركزية التي تخضع خضوع الجثث ؟ وما هي الطريقة لجعل النظام و « روح الحزب » سائدين عند الفلاحين

---

١ ـــ بالعربية في الاصل .

الخشنين الراضخين لتأثير الثورة الوطنية ، تأثيراً يبطل كل ما عداه ؟

كان ذلك في الحقيقة تطهيراً طبيعياً . وكان الحزب الشيوعي الجزائري يتوطد . وكانت نوعيته تتحسن ...

« إن حفنة من النحل لخير من ملء الكيس ذباباً . »

لقد تم تجنيد الفلاحين العام في مرحلة تعريب ، متقطعة . وكان هناك متدربون ماركسيون يجهلون اللغة الفرنسية جهلاً تاماً ، مما جعل هذا عملاً مرهقاً دون فائدة ، بالنسبة للسكرتير السياسي الذي كان قد تعلم اللغة القشتالية الصافية وبقي محتفظاً باللغة المختلطة الفرنسية – العربية !

ولقد صارت الأرثوذكسية العقائدية شيئاً وقتياً يمكن إبطاله؛ خصوصاً حين يسمح قواد آخرون – جنود ضائعون – أن يبقى سكرتير الفرع في الأوراس في مركزه عند عودته من مكة وقد حج إلى بيت الله .

إن « شرعية » الحزب الشيوعي الجزائري بقيت في خطر دائم . فقد كان الفلاحون الذين فقدوا حقوقهم مشاغبين ، في كل وقت ، ومتسرعين، وعنيفين . وبدل أن يكتفوا بالشكاية[1] التي ترفع بالتسلسل إلى « السلطات » ، كانوا يستخدمون طريقة تمتزج فيها التهمة بالعقاب المفاجىء الكبير . وكان المسؤول الذي يستبد ويسيء استعمال سلطته ، أياً كانت مسؤوليته ، يضرب ويداس كالكلب المسعور .

وكان بين « عصابات الشرف » الكثيرة في جبال الأوراس ، عضو قديم في الحزب الشيوعي الجزائري . كان يعيش من صناعة الفحم السرية ، محافظاً على الطريقة القديمة في استثمار الغابات : لا يقطع غير الأشجار المخصصة للقطع ويترك الأشجار الأخرى .

وقد التحقت به زوجته في مخبأه هناك . وكانت تمكن رؤيتها وهما يسيران بزهو ، في فسحة أو ممر ، يتنكب كلّ منهما بندقية صيد .

---

١ – بالعربية في الاصل .

أفٍّ لهؤلاء الأعضاء ! إن خسارة أمثالهم ليست مميتة . ومن جهة ثانية ، فإن أحداً لم يهتم بأن يمسك بأطراف برنسهم أو ثيابهم ويستبقيهم .

كل شيء تبخر . كما يتبخر أثر الأفعى فوق الصخر أو أثر النسر في السماء ... أو الضيافة التي تغمر الضيف بالجوز المقشر والعسل ، هذا الطعام الإقليمي الطيب كالمزيج العطر الذي يتركب من الغابة والصداقة .

حقاً ، ما أشقى الأخ المزيف الذي يقصر عن واجبه المدموغ « بالخبز والملح » اللذين تُقوسما في جو مشترك . إن جبالنا لتستقبله باحتفال ذي طابع فولكلوري .

إنه احتفال « تعرّي » فيه النساء والرجال الخائن[1] تعرية رمزية . ثم يحطن به في الساحة العامة ، ويتركنه نهباً لغضب الأطفال وسخرهم اللاذع ، بينما تطبع على ظهره الفتيات براحة يدهن بالحنّاء والوحل شارةً لا تمحى ، هي شارة الأصابع الخمس ، رمز الرجس والعار !

إن رحيل الأوراسيين الجماعي ورفضهم القاطع للخضوع إلى إيديولوجيا الاستسلام ، كانا وسيطاً لنشوء حركة معارضة أكثر اتساعاً . وقد شعرت بذلك جبهة التحرير الوطني وباركته معتبرة إياه يقظة وطنية ثورية بالمعنى الصحيح . وأشار إليه مؤتمر الصّمام ورأى فيه مأثرة سياسية – عسكرية جديرة بأن تُدرج في نص البيان التاريخي .

إن شجاعة الأوراسيين هي التي افتتحت أزمة الحزب الشيوعي الجزائري . وابتدأت أولاً إشعاعاً هادئاً كنقطة الزيت ، ثم اتسع الانشقاق وأخذ يهدد بتحوّله إلى هيّال ثلجي ...

في المدن ، تحرك الشبان والطلاب . وقرر بعضهم ، بشكل شخصي ، أن يساعد مناضلي جبهة التحرير الوطني ، على الرغم من تهديدهم بالطرد . ومما يذكر في هذا الصدد أن عاملاً أوروبياً في السكك الحديدية ، في « حسين – داي » ،

---

١ - بالعربية في الاصل .

مزق بطاقته الشيوعية والتحق بفريق من الفدائيين . وقد صرح بكبرياء أمام المحكمة العسكرية أنه مناضل في جبهة التحرير الوطني وليس عضواً في الحزب الشيوعي الجزائري الواهن المتراخي .

هذه هي الفضيحة ، وهذا هو التشتت .

وقد هيأت مدينة الجزائر ، على حين غرة وبنصيحة باريس ، عرضاً عسكرياً . وكان لهذا العرض غايتان :

الأولى هي السماح للحزب الشيوعي الجزائري بأن يكون لديه جيش متميز عن جيش التحرير الوطني ، وأن يرسم سياسة مستقلة خاصة به كحزب .

والثانية هي الدخول في محادثات مع جبهة التحرير الوطني ، ليست من أجل الانقياد لها ، بل من أجل ان يظهر أمامها مظهر الندّ للند .

وقد توقف « مناضلو التحرير » عن النضال لعدم وجود المناضلين . ولم يبق في فرقة « أوارْسِينيس » التي مات افرادها ببطولة إلا شخصان أسرا .

كان بين الآخرين ، كما يعرف الجميع ، المرشح مايو ، وطالب بو علي ، وموريس لابان – المناضل المستعرب الذي اشترك سابقاً في الحرب الاسبانية . وقد اتصل في بداية الثورة بالأخ مصطفى بن بولايد ، في حين التحق لامراني بجيش التحرير في الأوراس ، وخضع لابان لأمر سكرتارية الحزب الشيوعي القاضي بمنعه من الانضمام إلى جيش التحرير الوطني. ثم اشترك ، كمناضل نظامي ، في الكفاح المسلح في أوارسينيس ، بينما كان يعتقد ان الأصح والأفعل هو ان يكافح في صفوف جيش التحرير الوطني ، وفي الأوراس – هذه المنطقة التي يعرفها أكثر من غيرها ، ويعرف سكانها جميعاً .

ليس هناك شيوعيون في الحكومة الجزائرية الموقتة ... الطريقة إذن ، هي التعزية على غرار الثعلب الخائب : الدالية التي يصعب الوصول اليها لا تحمل غير الحصرم ! إن في الثورة الجزائرية عيباً وراثياً – ذلك أن جبهة التحرير الوطني والحكومة الجزائرية الموقتة ،

« يقودهما ممثلو البورجوازية الجزائرية ، أو أشخاص يمتون إلى إيديولوجيا

البورجوازية الوطنية . »

والنتيجة المتأتية عن ذلك ، هي ايضاً خاطئة وباطلة وخطرة .

١. في ذلك توكيد قاطع لا ينـاقش ، على ان الثورة خاضعة لهيمنـة البورجوازية الوطنية .

٢. وفيه يُفترض ، كحق إلهي مكتسب ، أن الحزب الشيوعي الجزائري هو الممثل الوحيد الذي يستقطب الطبقة العمالية الوطنية .

٣. وفيه يُرى أن إشراك وزير شيوعي في الحكم هو العلاج العجائبي الذي يكفي لتغيير الطابع «الطبقي» في ثورتنا التي لا تقهر ، والتي هي الآن في المرحلة الأخيرة من مراحل الوصول إلى الانتصار الاخير .

أما نحن فنرى في ذلك تجريداً « يسارياً » يريـد أن يستبق المراحل . وهو تجريد يذكر « بالكلمة الثورية » التي ترددها الاشتراكية - الديموقراطيـة التي تغش العمال بتبنيها موقفاً طليعياً ، هو موقف كلامي شفوي خالص .

وتفسير هذا بسيط إذا رجعنا إلى المبادىء المعروفة .

إن المقياس الأساسي الذي يحدد ثورة ما ، ليس الأصل لقوادها ، وإنما هو في الدرجة الأولى الطبقة الاجتماعية التي توجّه الثورة ضدها .

ويستطيع الثوري ، انطلاقاً من هذا المبـدأ ، ان يعرف ان حرب التحرير الوطني هي حرب عادلة . ومن الواجب عليه ان يباركها ، وأن يدعمهـا حتى لو كان يقودها إقطاعيون ، رجعيون من الناحية الاجتماعية ، لكنهم من الناحية القومية تقدميون في كفاحهم ضد الطغيان الأجنبي .

وإننا لنجد في المغرب ذاته التجسيد العملي المتنوع تنوع البلدان التي تحررت بقضائها على الأنظمة الاستعمارية .

ففي مراكش ساعد العمال في تقويض السلطة الاستعماريـة التي يتمتع بهـا الزراعيون والصناعيون الفرنسيون ، على الرغم ممـا تتصف به العائلة المالكة المناهضة للاستعمار من صفات الملكية التيوقراطية .

وفي تونس ساعد العمال في حرب الفلاحين ، على الرغم من انتقال السلطـة

الحتمي من أيدي البورجوازية الفرنسية إلى أيدي البورجوازية التونسية .

وفي الجزائر ، أكد السيد خروتشوف تأكيداً واضحاً أن :

« الحرب الجزائرية هي حرب عادلة ومقدسة يجب على جميع الشيوعيين أن يدعموها كلياً ودون تحفظ [١] . »

هذا هو موقف صحيح على الصعيدين العقائدي والسياسي . إنه يتناقض مع النظرية اللاعقائدية التي احتضنتها المجلة الرسمية الناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي .

فإن تلك المقالة التي نشرتها « الكومونيست » ، إذ تشدد على الصفة البورجوازية المزعومة التي تتصف بها الحكومة الجزائرية الموقتة ، تحجب الأساس الجوهري للثورة الجزائرية ، أعني صفتها القومية . إنها تحاول ان تحوّل – اصطناعياً وقبل الأوان – ثورة من أجل الاستقلال والأرض والديموقراطية ، إلى ثورة ضد الرأسمالية . إنها تعتبر أن الهدف الأول في عام ١٩٦٠ قد مر عليه الزمن ، في حين أن الاستعمار الفرنسي ، المحتضر ، لا يزال قائماً . هذا يعني عملياً الذهاب لنجدة العدو الأجنبي . إن مهاجمة البورجوزية الجزائرية ، قبل الأوان ، هي حكم على أنها لم تعد حليفتنا في الكفاح القومي ضد البورجوازية الفرنسية ، العدو الرئيسي . وأنها أصبحت هي أيضاً ، العدو الرئيسي للجزائريين ، عمالاً وفلاحين فقراء .

هذا يعني أيضاً نسيان الهدف الجوهري المباشر . وليس من الضروري أن نرجع إلى كتاب في السياسة العليا لنكتشف ضلال الخطة . فالحس السليم يكفي .

إن ذلك جميعاً نتيجة السياسة التي تختار العزلة .

والحزب الشيوعي الجزائري ، هنا أيضاً ، ضحية أنانيته البالغة ، وهو يشبه المسافر المدعي الذي لا يسمح للقافلة أن تهتز بغير أذنه . والمعزول الضائع في الصحراء حيث لا يساعده أحد ، يدور حول نفسه على الرغم من « البوصلة » التي

---

١ – جريدة اللوموند ١٩ – ١ – ١٩٦١

لا يعرف أن يستخدمها . إنه يصير فريسة السراب الذي يقود إلى الجنون ... والظمأ الذي يقود إلى الموت .

إن جبهة التحرير الوطني هي القافلة التي تجتاز الصحراء متغلبة على جميع الصعوبات . وحين تحيد عن الطريق التي شقها الروّاد ، تعرف أن تكتشف في أعماقها المعرفة الفلكية الأليفة جداً ، منذ أقدم العصور ، عند شعوب الشرق . وهي تعرف أن تربط بين الخبرة والعلم باللجوء الى الحدس في علم المياه في المنطقة : حيث يفجر الماء العذب بقياس الرطوبة الجوية على نحو غريب ، وهو قياس يحدد درجة الرطوبة الأرضية وذلك بواسطة شم حفنة من الرمل الناشف...

إن الواقع التاريخي هو الذي يحكم فيما إذا كانت سياسة ما صحيحة أو خاطئة بحسب النجاح أو الفشل .

هل كان معنا الحق أن ندعو محرر « الكومونيست » لينتظر موت هؤلاء الذين يعرفونه قبل أن يصير شخصية كبيرة – شريفاً من أشراف الجهاد الوطني ؟

ومن الحق أن يتساءل الجميع كيف أن المجلة الرسمية للحزب الشيوعي السوفياتي كانت من السذاجة بحيث نشرت تقريراً طويلاً حاذرت « الأومانيتي » من أن تنقله .

ويجهل السيد خروشوف أن مُهره الجزائري ليس سباقاً ، بل هزيل متهدم . لقد فشل كسكرتير سياسي عام ١٩٤٤ . وفشل كسكرتير إقليمي في منطقة مدينة الجزائر ، ثم في منطقة قسنطينة . وأجبر عام ١٩٤٦ على ترك منصبه السياسي ليعود الى وظيفته القديمة في الإغاثة الشعبية ...

ولا ريب أن من حقه أن يخدع السوفيات بادعائه أنه يلقن أمثولة لجبهة التحرير الوطني دليلة الثورة المظفرة .

ونحن أيضاً استعملنا حقنا في أن نقدم إلى عقائديي الاتحاد السوفياتي هذا

التفنيد البسيط لنقدهم دون – الماركسي .

ذلك أنهم شركاء في المسؤولية ... لتبنيهم هذا الفَلْوَ الذي ما يزال اليوم، شأنه في الأمس ، دون أي تغير .

وهو ، حتى في موسكو ، « لا يعرف كوعه من بوعه[1] . »

---

١ – بالعربية في الاصل .

الجهادُ الأفضل

« لا يمكن لأية حركة ثورية أن تأمل بالنجاح ، ما لم تغرس جذورها في الواقع التاريخي . لكن لا بد لها ، لكي تغرس جذورها ، من اختبار الكفاح العظيم ومن التعمق في عقيدة سياسية حقة .

« هذا ما يفسر نجاح الحزب الشيوعي الصيني وفشل الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية (التي لم تتوصل إلى تقديم نقد نفاذ وكاف للمجتمع الإسلامي[1] .)

إن هذا الرأي الذي يبديه « جيل مارتينيه » صحيح تماماً . فإن العقائديين في المغرب لم يفهموا أن الفلسفة التي ينادون بها ليست نقداً للدين وحيد الطرف ، وسلبياً . إنهم لم يدركوا أن الماركسية تميّز بين الإيمان الذي يولد من الحياة ذاتها ، والكنيسة التي قد يكون دورها الاجتماعي دوراً رجعياً ... أو تقدمياً. وهم لم يفيدوا من أمثولة لينين حيث وافق على انضمام أحد الكهنة إلى حزب عمالي ثوري وإلى مخططه المناهض للإقطاعية والرأسمالية . لقد تبنوا وجهة النظر المعادية للإكليريكية ، ناظرين من زاوية واحدة إلى الأساقفة الرجعيين وإلى العلماء[2] الذين يحاربون الاستعمار .

---

١ ـ جريدة « فرانس ـ أوبسيرفاتور » ، تاريخ ١٠ آب ١٩٦٠ .
٢ ـ بالعربية في الاصل .

كانت صدمة أصدقائنا الفرنسيين عميقة بسبب عدم التماسك الظاهري في اتجاهنا العقلاني المطعم بإيديولوجيا دينية ترتبط بنظام اجتماعي قديم .

إن موقفنا ، إزاء الإسلام ، يختلف لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب . ذلك أن رفض الإيديولوجيا الإسلامية في بلاد مستعمرة يضطهد دين أكثرية سكانها الساحقة ، علامة تجدد أخرق تنادي به فئة منفصلة عن الشعب ، غربية الحياة والفكر ، امتصتها أو شلتها إيديولوجيا العدو المستعمِر .

ما أكثر الذين انتقدوا الإسلام دون أن يعرفوه . إنهم يشاركون في الجهل « رينان» الذي لم يكن يرى فيه إلا مذهباً هو ، على حد زعمه ، «أثقل السلاسل التي حملتها الإنسانية في تاريخها . »

هناك أصوات أخرى ترتفع اليوم لتقف معنا ضد العقلانية الهيلينستية .

فما أعظم فرح سجين في فرين Fresnes [1] يكتشف عشية « ليلة القدر » محاضرة صديق مجهول . فقد تحدثنا ، ونحن ننتظر المصفوف[2] ، وهو نوع من الكسكس بالزبيب ، قدم لنا في السحور[3] قبل أن تشرق شمس السابع والعشرين من رمضان ١٣٨١ – تحدثنا بلذة حول نظرية السيد « ماكسيم رودنسون » المنشورة بعنوان : « الإسلام عقيدة تقدم ومقاومة . » ووافقناه على خلاصته القائلة :

« ليس الإسلام في أية حال ، عاملاً بسيطاً أو عاملاً صلباً ، أو عاملاً منعزلاً . إنه ليس أكثر عجزاً من أية إيديولوجيا ثانية ، على التكييف أو على أن يكيّف مع الضرورات الجديدة . يؤكد ذلك ، التاريخ الفكري في العصر الوسيط . فهو ليس مدعاة جمود أو قسوة أو تعصبية أو توقف عن التقدم الاجتماعي أو خنق للفكر الحر ، بأكثر مما هي مدعاة لذلك ، أية إيديولوجيا أخرى .

---

١ ـ حيث كان المؤلف مسجوناً .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

٣ ـ بالعربية في الاصل .

« ويمكن الشعوب الإسلامية ، اعتماداً على الإسلام أو دونه ، أن تتقدم أو تتأخر ، وأن تكون حكوماتها توتاليتارية أو ليبرالية ، وأن تكون جماهيرها منفتحة على تيارات فكرية متعددة أو متمسكة على نحو تعصبي بالمعتقدات القديمة أو الجديدة .

« ... لم تلعب اللعبة ولم تخسر مسبقاً . وستكون البلدان الإسلامية كما تشاء لها شعوبها وقوادها . وإنه لدور جميل ذلك الدور الذي يلعبه هؤلاء القادرون على السير بها نحو التقدم والحرية[1] . »

ليس الإسلام إيديولوجيا توتاليتارية . لقد أفسح المجال لتعدد الاتجاهات وتسامح معها . وفي التراث النبوي ما يجعل حرية الكلام حقاً قانونياً .

وكان الجدل الإيديولوجي الحر يتناول الأشياء المقدسة . فحتى في عصر انحطاط الحضارة العربية ـ الإسلامية ، كانت تجري مناقشات بين فرق المتكلمين[2] ، وتعبّر كل فرقة عن آرائها التي قد تتعارض جذرياً مع آراء الفرق الأخرى .

وهذا مما يفاجىء هواة « نادي فوبورغ » الباريسي والفئة العقلانية الفرنسية . ويستطيع اللا إكليريكيون ، المتعلقون بالنزعات الفكرية المجردة ، أن يرجعوا إلى آراء شاعرنا الخالد أبي العلاء المعرّي ويتمتعوا بما تضمنته سخريته الشاكة :

أفيقوا أفيقوا ، يا غواة ، فإنما

دياناتكم مكر من القدماء .

يجب على كل جيل أن يحل مشاكله الخاصة . ففي الماضي ، جدد العالم العربي الاقتصاد العالمي بقضائه على الأنظمة الاجتماعية في العالمين الروماني والبيزنطي القائمين على العبودية . وبانطلاق المدنية التجارية ، ابتدأ العلم والعقلانية والتقدم الإنساني وابتدأت الفنون أيضاً بالنمو والازدهار .

---

١ ـ محاضرة ألقيت في السوربون ، تاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٦١ .

٢ ـ بالعربية في الاصل .

ثم تركت هذه البقعة الفسيحة الممتدة من الفرات إلى الأطلسي – تركت لأوروبا أن تسبقها في ميدان التقدم الصناعي . ويعزو المؤرخون الغربيون ، الأوروبيون والاستعماريون ، هذا الجمود إلى القدرية وإقفال باب الاجتهاد[1] ، أي النقاش الحر ، والبحث الديني الحر .

إن هذا لرأي لا يقوم على أساس من العلم . فإن أسباب انحطاط الحضارة الإسلامية لا تعود إلى الدين الإسلامي .

والتفسير الصحيح نجده عند ابن خلدون الرائد الأول للمادية التاريخية . فقد كان مواطننا هذا أول من أظهر لنا أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين تنبع ، في الدرجة الاولى ، من التطور الاقتصادي ، في معزل عن الدين والجنس والوطن .

ولذلك فإن السر في كون أوروبا لحقت بأفريقيا وتجاوزتها ، ليس في تفوقها الأخلاقي ، بل في تحول النظام الإقطاعي إلى نظام رأسمالي .

فمنذ أن فقد المجتمع الإسلامي السيطرة على التجارة بين آسيا وأوروبا ، ضعف دور التجار العرب نتيجة لضعف التبادل . وبدل أن تتوجه الرساميل التجارية نحو الصناعة ، اتجهت نحو الملكية العقارية . وهكذا أدار التاجر العربي ظهره للتقدم الاقتصادي ، لكي يصير إقطاعياً .

والماركسية تعيد النظر في هذه الظاهرة الاجتماعية بنزاهة وموضوعية ، فيبررها السيد إيف لاكوست تبريراً علمياً :

« الواقع أن النشاط التجاري لم يقدر ، على الرغم من أنه كان بالغ الأهمية في العصر الوسيط ، أن يؤدي إلى الرأسمالية ؛ ذلك أن اليد العاملة الباقية في أطر قبائلية ، لم تكن تملك سهولة الحركة ولم تكن قادرة أن تبيع طاقتها على العمل إلى رأسماليين احتماليين[2] . »

ويقول كارل ماركس : « إن ظرف الرأسمالية التاريخي لا يتطابق مع

---

١ – بالعربية في الاصل .

٢ – إيف لاكوست : « أثر ابن خلدون » ، مجلة « الفكر » ، عدد ٦٠ أيلول ١٩٥٦ ، ص ٢٥ .

رواج البضائع والنقد . وهو لا يتم إلا حيث يصادف في السوق صاحب الإنتاج والقوت العامل الحر الذي يبيع طاقته على العمل إلى رأسماليين احتماليين . »

وليس البطء في تطور الفكر الفلسفي والعلمي إلا نتيجة الانحطاط الاقتصادي لطبقة التجار التقدمية . وإذا كانت هناك رجعية دينية ، فلأن طبقة الملاك الجدد بحاجة إلى التيوقراطية وإلى بدو أُجراء لتحمي نفسها من الصناع والفلاحين الذين ترهقهم الضرائب .

إن معرفة الماضي تنير مستقبلنا .

إن الأمة الجزائرية الطالعة من حرب تحرير ثوري لا تشبه المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط المسيحي ، ولا البلد الذي احتلته الاستعمارية الفرنسية ، منذ ١٣٢ عاماً .

كل شيء تغير ، ويجب أن يتغير كل شيء .

إن الواقع الاجتماعي الحديث يجبرنا أن نكون من عصرنا ، القرن العشرين — قرن العلم والصناعة والاشتراكية وتقدم العمال المدنيين والريفيين .

إننا إذ ندرك مدى التخلف الذي ينبغي علينا أن نتخطاه ، ننطلق بأوضاع جديدة سياسية واقتصادية واجتماعية . وعلينا ، لكي نبني جمهورية حديثة أن نجدد إيديولوجيا الدولة الجزائرية بأن نضع لها دستوراً ديموقراطياً يسهل تحقيق العدالة الاجتماعية .

لن يكون ذلك ، بالطبع ، مهمة سهلة . فلن تتأخر قوى المحافظة الضيقة الأفق عن المقاومة سراً أو علانية لوقف التقدم الإنساني . وتستطيع أن تستخدم في ذلك بعض الرموز الدينية لكي تطيل أمد الجمود النيو- استعماري ، وتعرقل الإصلاح الزراعي ، وتبقي على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الكبيرة .

غير أن القوى الشعبية لن تكون مكتوفة الأيدي . فلقد أدرك الجزائريون ، في كفاحهم الثوري ضد النظام الاستعماري أن الإسلام لا يكفي وحده ، كدعامة إيديولوجية . ولقد ظهرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية منذ زمن طويل أنها عاجزة عن تحرير البلدان الإسلامية من النير الاستعماري الأوروبي .

وفي الجزائر ، فسّر الدين ، بالتعاون مع العلماء المصلحين ، تفسيراً يخدم الوطنية الجزائرية . وقدمت الحركة الإصلاحية البنية الإيديولوجية للقومية الثورية التي قضت على النزعة الزهدية التنسكية، الأداة في يد الاستعمار والملكية العقارية شبه الإقطاعية .

هذا المظهر الديني في كفاحنا القومي من أجل حرية العبادة الإسلامية وفصل الكنيسة عن الدولة حتى في عهد النظام الاستعماري هو إرث إيجابي . إنه سيساعدنا على تحقيق العلمانية ، الشكل الحديث للتسامح الإسلامي .

إن القول بأن الإسلام يتناقض مع الاشتراكية صورة خاطئة للنظرية دون – الماركسية . ويعكس وجود الاشتراكية والإسلام ، هذا الوجود المقترن معاً ، واقعاً اقتصادياً – اجتماعياً ، ويعبر عن بعض العلائق بين القوى داخل البلدان المتخلفة .

تستعجل العقلية العصرية كثيراً في توديع الأديان كلها توديعاً مأتمياً ، دون أن تدرك أن الإيديولوجيا الإسلامية ليست محتضرة ، بل في كامل اندفاعها وحركتها .

إن الوضوح السياسي والفعالية الثورية يستلزمان الاحتفاظ بالقيم الروحية التي يمكن أن تغذي نهضتنا في الحياة الصناعية المتقدمة .

« من الأسهل بصورة عامة ، إجراء تبديل أساسي في نظام اجتماعي ما داخل إطار رموزه ، من إجرائه عن طريق معارضتها . »[1] .

وكان هذا صحيحاً حينما كتب الشعب الجزائري حربه القاسية من أجل الاستقلال القومي ، « فصلاً خارقاً من فصول تحرر الشعوب . »

وتلك هي حقيقة المستقبل حينما سيحل محل جهادنا المسلح ضد محتلّ الوطن، جهاد سياسي ضد مستغل الشعب .

إن كلمة جهاد تعني في المصطلح الأوروبي المذهبي « الحرب المقدسة » ، أي

---

١ – بارنغتون مور ، دور الافكار في التغير الاجتماعي ؛ جامعة هارفرد ١٩٥٠ ؛ ذكرها رودنسون .

التعصب الديني البربري .

ففي دعوى الأب روبير دافيزياس ، كان قرار الاتهام مبنياً على التعارض بين حضارة الصليب اللاتيني وحضارة الهلال . وكان الكاهن متهماً بمساعدته لجبهة التحرير الوطني ، الحركة العنصرية التي تكره الأجنبي .

« وحين ننظر ماذا نرى ؟ الحرب المقدسة . وليس صدفة أن تُسمى الجريدة الناطقة باسم جبهة التحرير الوطني ، « المجاهد » . »[1]

حوار طرشان . إن سوء الفهم المزمن عائد إلى تحريف معنى الجهاد : الكفاح ، النضال ، الجهد الجماعي .

يترجم المستشرق شارل بيلا ، في معجم عن العربية الحديثة ، كلمة جهاد بـ « الحرب المقدسة » ، لكنه يترجم « مجاهد » بكلمة « مناضل » . أما رأي السيد حميد الله فأكثر دقة :

« إن « الحرب المقدسة » التي كثيراً ما ترد في الكتابات الأوروبية عن الإسلام ، ليست إلا ترجمة خاطئة لكلمة « جهاد » . وإذن فإن هذه الكلمة لا تعني إلا « الجهد الجماعي » ، حيث لا شأن للحرب بذلك ولا للقتل ولا للقداسة ، بخاصة . »

« ... إن هدْيَ الناس الى الإسلام بالقوة ممنوع ، والحرب لهدي الناس بالقوة ممنوعة قطعاً . »[2]

حتى في الآية الكريمة : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله » ، تعني كلمة جهاد في آن معاً الدفاع العسكري وعمل الإحسان بما فيه الجهاد ضد الذات .

للجهاد إذن معنىً أوسع وأنبل .

ويشير النبي في احد احاديثه عن التجارة التي كانت النشاط الرئيسي في ذلك الوقت ، إلى ان الربح مما هو مسموح جهاد ، وأن منحه للعائلة والأقارب

---

١ – جريدة « اللوموند » ، ١٣ كانون الثاني ١٩٦٢ .

٢ – القرآن ، نادي الكتاب الفرنسي ، باريس ١٩٥٩ ، ص ٣٥ .

إحسان ومحبة .

واليوم سقط مشعل التقدم الاجتماعي من أيدي البورجوازية التجارية أو الرأسمالية . واصبح للشعب نفسه شرف السيادة على مصيره وحريته وديموقراطيته وعمرانه .

إن معركة جديدة سلمية ورائعة ، تنتظر في الجزائر الحرة ، المجاهدين والمجاهدات ، الفدائيين والفدائيات .

بعد وقف النار ، تستمر المكافحة للقضاء على « منظمة الجيش السرية » وعصابات الاستعمار .

ويستمر الكفاح في سبيل الإخاء القومي .

ويستمر الجهاد لإكمال الثورة الجزائرية ، وانتصار الديموقراطية القومية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية .

تنبّه واحترس ، أيها الشعب الجزائري الباسل !

إن شعوب أفريقيا وآسيا ، إن شعوب العالم كله ، التي أدهشتَها في الحرب ، تنتظر بأمل عظيم مآثرك في السلم .

لن تكون « شعب خِراف » ، كما يعبّر ، بهذه الصورة القاسية كاتب أمريكي ، منكراً الطريقة التي يخدع بها القواد مواطني الديموقراطية الكبيرة فيما وراء الأطلسي[1] .

ولن ننسى ، إذ نترك نقد الأسلحة لنعود إلى أسلحة النقد ، ما يأمرنا به سيدنا محمد :

« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر . »

المستوصف الملحق بسجون فرين

٧ آذار ١٩٦٢

---

١ — وليام ج. ليديرر ، « شعب الخراف » ، نيويورك ، نورتون ١٩٦١ م.

فهرست

الجهاد الافضل

هـذا الكتاب هو صورة الدّراسة الأساسيّة العميقة الاولى لتاريخ الحركة الثورية الجزائرية ومشاكلها. في القسم الاول يبين مؤلف الكتاب عمّار أوزيغان وزير الإصلاح الزراعي في الحكومة الجزائرية الحاليّة ، كيف توصـــل الشعب الجزائري إلى أن ينبذ الأحزاب والمنظّمات البالية ، وأن يبتكر في آن واحد الإيديولوجيا المنسجمة مع كفاحه ، والشكل التنظيمي" الملائم : جبهة التحرير الوطني .

وفي القسم الثاني يـــدرس المؤلف المشاكل الرئيسية التي واجهتها جبهة التحرير الوطني" ، ويخلص إلى التدليل على أن المحتوى السياسي التقدمي "تقرّه وتقول به الأفكار والنظم في الإسلام .

إن هـــذا الكتاب لبالغ الأهميّة . ليس لأنه يمثـــل الدّراسة الأساسية الشاملة الاولى للثورة الجزائرية وحسب ، بل لأنه أيضاً تأليف شخص يتمتع بخبرة عسكرية استثنائية ، ومعرفة حميمة بالمشاكل التي يعالجها، وثقافة تحليلية كبيرة؛ يعزز هـــذا كلّه اشتراكه في أوّل حكومة جزائرية بعد الاستقلال .

الثمن : ٤٠٠ ق. ل.
٥٠٠ ق. س.

منشورات دار الطليعة - بيروت